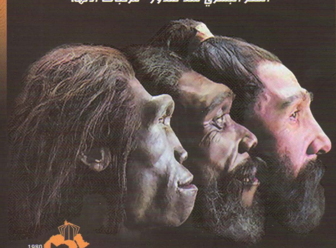
رونه نوربير غن

رحلة تاريخية ممتعة في عالم ساحر

أسرار السلالات البشرية المفقودة

أثارت هذه الرؤية جدلاً لامثيل له في تاريخ الفكر البشري منذ صدور "مركبات الآلهة"



ترجمة : فارس ضاهر تقديم: عبد الرحمن غنيم

1980
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

تقديم وتنبيه هام

عندما بدأت فى تصوير الكتاب.. كنت أعرف جيدًا بأن كتب "دار الكتاب العربى" ما هى إلا كتب تعتمد على الهبد من أجل الإثارة والبحث فى الماورائيات والحديث عن فرعونى يوسف وموسى عليهم السلام.. ولذلك تجد عليهم إقبال كبير.. نظرًا لأن الكثير من القراء يلهثون وراء الكتب التى تمشى على المثل القائل: "خالف تُعرف".. لذلك تباع هذه الكتب بسرعة ويصدر منها العديد من الطبعات بسبب شدة الإقبال عليها.

فى حين أنه لو صدر كتاب لأثرى معروف مثل زاهى حواس مثلا فلن يُباع من الكتاب أكثر من طبعة أو طبعتين بالكثير.

ورغم ذلك فقد ظننت فى البداية بأن هذا الكتاب سيكون خاليًا من الهبد على اعتبار أن المؤلف أجنبى.. ولكن خاب ظنى فقد وجدت الهبد فى هذا الكتاب قد فاق التوقعات.

منها أن الأهرامات استخدمت لتوليد الكهرباء.. فلماذا لم يستخدمها العلماء الآن لتوليد الكهرباء ويقومون ببناء أهرامات فى كل مكان.. ومنها استخدام إنسان ما قبل التاريخ إلى الأسلحة النووية.. إلخ.

وعندما تبحث على الانترنت عن معلومة لن تجد لها أثر.

على سبيل المثال:

صفحة ٢٤ نجده يتحدث عن "الباحث الألماني الشهير الدكتور جوهانس رايم".. وعند البحث عن الانترنت عن هذا الباحث لن تجد له أثر.

وفى نفس الصفحة "العالم الجيولوجي الإسكتلندي الشهير هوغ ميللر".. فى حين أن العالم المذكور بهذا الاسم هو بريطانى وليس اسكتلندى.

وفى صفحة ٢٦ يتحدث عن "الباحث الدكتور إي. و. ثوينغ".. وهو ليس له أى وجود.

وفى صفحة ٢٦ يتحدث عن "شيرمان كوليج".. وهو أيضًا ليس له وجود.

وأترك الكثير للقارئ وأنتقل إلى صفحة ٤٥ لنجده يتحدث عن "ي. ف. ليبّي" باعتباره أحد الحاصلين على نوبل.. ولا يوجد بين الحاصلين على نوبل شخص بهذا الاسم.

وهكذا إلى بقية الكتاب.. فهو ليس مجموعة من الخزعبلات والهبد.

أسرار السـلالات
البشرية المفقـودة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

غن، رونه نوبير
أسرار السلالات البشرية المفقودة:
أثارت هذه الرؤية جدالاً لا مثيل له في تاريخ الفكر البشري منذ صدور (مركبات الآلهه)
رونه غن نوبير، ترجمة فارس ضاهر، تقديم عبد الرحمن غنيم – القاهرة: دار الكتاب العربي، ٢٠١٧
٢٧٢ ص، ٢٥ سم
تدمك: 978 977 376 9957

١- التوراة	٢- اليهودية
٣- السلالات البشرية	٤- الديانات القديمة

أ- ضاهر، فارس (مترجم)
ب- غنيم، عبد الرحمن (مقدم)
جـ - العنوان

272,2

اسم الكتاب: أسرار السلالات البشرية المفقودة	**تصميم الغلاف:** قسم الجرافيك بدار الكتاب العربي
تأليف: رونه غن نوبير **تقديم:** عبد الرحمن غنيم	**رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:** ٢٨٥٧٥ / ٢٠١٧
المراجعة اللغوية والتدقيق: محمد غازي تدمري	**الترقيم الدولي:** 7 -995 -376 -977 -978

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

حقوق الطبع محفوظة – الطبعة الأولى ٢٠١٨

سوريا – دمشق – الحجاز – شارع مسلم البارودي: تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥
مصر – القاهرة – ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت – شقة ١١ تليفون: ٢٣٩١٦١٢٢ – فاكس: ٢٣٩٣٣٦٧١
لبنان – تليفون: ٠٥/ ٤٣٤١٨٦ – ٠٣/ ٦٥٢٢٤١ – ص. ب. ٣٠٤٣ الشويفات
darelkitab@yahoo.com

تحذير: جميع الحقوق محفوظة لدار الكتاب العربي للنشر وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية أو نقله بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو أو تسجيله على أي نحو بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

الآراء الموجودة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر دار الكتاب العربى للنشر وإنما تعبر عن وجهة نظر أصحابها.

رونه نوربيرغن

أسرارُ السّلالاتِ البشريَّةِ المفقودةِ

أثارت هذه الرؤية، جَدَلاً لا مثيل له
في تاريخ الفكر البشري، منذ صدور
(مركبات الآلهة)

ترجمة البروفيسور فارس ضاهر

تقديم: عبد الرحمن غنيم

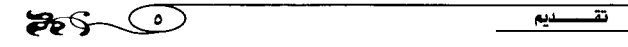
Secrets OF The Lost Races

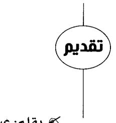
Rene NOORBERGEN



تطلب منشوراتنا من دور النشر والمكتبات التالية

البلد	أسماء المكتبات
مصر	دار الكتاب العربي: ٢٥ شارع عبد الخالق ثروت (القاهرة) – مكتبات الشروق – مكتبات ديوان شركة الشرق للمكتبات – مكتبات مؤسسة الأهرام – مكتبات أخبار اليوم – مكتبة منشأة المعارف (الإسكندرية) – مكتبات دار الفاروق (هايبر ٦ أكتوبر) – مكتبات (أ) – مكتبة الكتب خان – مكتبة الخياط الإسكندرية – مكتبة دار الحديث (أسوان) – كتابيكو – مكتبات فكرة
ليبيا	طرابلس: المكتبة العلمية – المكتبة العربية – مكتبة السلام – دار الوليد – دار المعرفة – مكتبة ١٧ فبراير (بنغازي) – دار الجيل (بنغازي) – مكتبة الشعب (مصراته)
تونس	إداريات ومعارف سوسة – شركة كتبكم تونس – المركز التونسي للكتاب – دار المعرفة – مكتبة تونس – دار الجيل – مكتبة الكتاب – سوبيس – مكتبة نومام
الجزائر	دار العزة والكرامة للنشر والتوزيع (وهران) – دار الأنيس (الجزائر العاصمة) وسائر فروعها ومكتباتها بالجزائر – مكتبة ابن خلدون ٥٧ ش ديدوش مراد (الجزائر العاصمة) – مكتبة المأمون شارع جيش التحرير جبهة البحر (وهران) – مكتبة ابن باديس جامع ابن باديس (وهران)
المغرب	الدار العالمية – دار الإنماء الثقافي – دار الثقافة – دار الأمان – مكتبة الألفية الثالثة– وراقة المبادرة – دار إحياء العلوم الزاهرة – الناشر الأطلسي –وراقة الجنوب – مكتبة فرنسا– مكتبة باريس
السعودية	مكتبات جرير – مكتبات العبيكان – مكتبات تهامة – مكتبات الرشد – دار الوراق – مكتبات الشواف – مكتبة المتنبي (الدمام) – كنوز المعرفة (جدة) – روائع المعرفة (جدة) – المكتبة التراثية
الإمارات	مكتبات إنفنتي (دبي) – مكتبة زين المعاني (دبي) – مكتبات دبي للتوزيع – المكتبة التجارية (العين) – مكتبات جرير– البرج ميديا للنشر والتوزيع (أبو ظبي)
الكويت	مكتبات ذات السلاسل – دار الفكر الحديث – مكتبة العجيري – مكتبة الرسالة – الشركة المتحدة لتوزيع الصحف – مكتبات جرير – دار أفاق
سلطنة عمان	مسقط: مكتبات جرير – أحمد ناصيف 0096892339307
البحرين	المكتبة الوطنية (المنامة) – مكتبات جرير
العراق	دار الكتب العلمية (بغداد) – دار المدى للعلوم والثقافة (أربيل) – دار التفسير (أربيل) – مكتبة هورمان (أربيل) – مكتبة برايتي (أربيل) – المكتبة القانونية – مكتبة النهضة (بغداد)– مكتبة السنجري (الموصل) – دارالزمان (أدهوك) – مؤسسة المصباح (بغداد)– مكتبة المعرفة (باب المعظم)
الأردن	مكتبة دنديس –دار أسامة –مكتبة الفرسان –دار صفحات –كشك الثقافة العربية حسن أبوعلي – دار جملون
فلسطين	مكتبة دنديس (الخليل) – مكتبة القدس (القدس الشريف) – دار العماد للنشر (الجليل)– دار الجندي (القدس)
السودان	مكتبات القاضي (الخرطوم –أم درمان) – مكتبة الدار البيضاء (أم درمان)– وادي النيل للتنمية البشرية (الخرطوم
لبنان	شركة الشرق الأوسط – النيل والفرات كوم





✍ **بقلم: عبد الرحمن غنيم**

في كتابه الهام «أسرار السلالات البشرية المفقودة» يقدم لنا المؤرخ (رونه نوربيرغن) إحاطة موسوعية حول كثير من الأشياء التي تستوجب الوقوف عندها بتمعن. وهذه الأشياء تهمُّ القارئ معرفتها بشكل عام، مثلما تهمُّ أصحاب الاختصاص في مختلف المجالات. والأهم أن هذه الظواهر تفرض على كل منا التفكير، وتشعر كل واحد منا بضرورة أن يعثر لغرائبها على تفسير. وهذا يعني عملياً أننا أمام كتاب استثنائي في مضمونه، ولسنا فقط أمام حشد من المعلومات المهمة والمفيدة التي تتسم بالغرابة، وتقود أيضاً إلى الإدهاش.

خلال مطالعتنا للكتاب، وقبل أن نقدمه للقارئ العربي، أحسسنا بأن هناك حاجة ماسة في العديد من المواضع للتدخل وعرض بعض الملاحظات، وخاصة في تلك الحالات التي اعتمد فيها المؤلف على «سفر التكوين»، وهو أول أسفار التوراة المتداولة، في تحديد زمن أو ملامح بعض الوقائع؛ مثل طوفان نوح، وما يتعلق بالأنساب قبل وبعد طوفان نوح، أو أسطورة برج بابل وتبلبل الألسنة، وكأن هذه المعطيات حقائق تأريخية مقدَّسة لا مجال للفكاك من هيمنتها، خاصة وأن قصة طوفان نوح واردة في القرآن الكريم وأبعاد وملامح وزمن ومسرح هذا الطوفان تختلف عنه في الرواية التوراتية. ولكننا وجدنا أنفسنا في نهاية المطاف أمام السؤال المحيِّر: كيف ننتظر من مؤرخ غربي أن ينهض بهذه المهمة

إذا كان المفسرون والمؤرخون العرب القدامى لم ينهضوا بها، بل أخذوا بالرواية التوراتية وزادوا عليها ؟!.

على كل حال، لقد وجدنا أنَّه من الأفضل أن نقدم الكتاب للقارئ العربي أو للباحث العربي دون مثل هذه التعليقات، تاركين له أن يتفاعل مع الأفكار والأسئلة المطروحة وفق طاقته المعرفية. ولكننا وجدنا بالمقابل أن اللغز الكبير الذي سعى المؤلف وراء معالجته وخصص من أجله هذا الكتاب توجد معطيات واضحه في القرآن الكريم. ومن الملائم بالنسبة للقارئ العربي وهو يطالع الكتاب أن يبدأ بمطالعة وضوح المسألة وتبين أبعادها، ومن شأن ذلك أن يساعده أيضاً في التفاعل مع الموضوعات المطروحة والتعامل معها.

إن النقطة الأساسية التي يجب التأكيد عليها أولًا وهي إنَّ طوفان نوح لم يكن طوفاناً عالمياً كما يرد في رواية «سفر التكوين»، وإنما كان طوفاناً أغرق قوم نوح وحدهم. وكما نعرف من القرآن الكريم، فإن نوحاً عليه السلام وأهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ والذين آمنوا معه ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قد نجوا على السفينة. وهذا يعني أن الرواية القائلة بأن البشر جميعاً قد غرقوا بالطوفان باستثناء نوح وبنيه الثلاثة، وأن الجنس البشري كله بعد ذلك ينتسب إلى أبنائه سام وحام ويافث ليست رواية صحيحة.

لعلَّ من الأمور الأكثر غرابة في هذا السياق أن نكتشف بأن بني إسرائيل، والذين يفترض أنهم يقفون وراء الرواية، كان جدهم أو أجدادهم من بين المنقذين مع نوح على السفينة، ولم يكونوا من ذرية نوح، فوجودهم إذن هو في حد ذاته شهادة على عدم صحة روايتهم. يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٢، ٣]. هم إذن ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ وليسوا من آل إبراهيم ومن ثم فهم ليسوا ذرية يعقوب عليه السلام الذين ادّعوا أن اسمه صار إسرائيل. وللتثبت من ذلك يكفي أن نستشهد بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ

عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤]. فآلُ إبراهيم وآلُ عمران هم من ذرية نوح، أما بنوإسرائيل فهم من ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾. ولنا في هذه الحالة أن نتساءل: إذا كان من دوَّنوا التوراة المتداولة قد زوَّروا أصل بني إسرائيل وادَّعوا لهم نسباً ليس لهم، فكيف نُصدِّق بقية ما أوردوه من أنساب ؟.

ولكي يتثبت القارئ من أن رواية التوراة المتداولة حول طوفان نوح ليست صحيحة البتة، يكفي أن نتمعن في قوله عزَّ وجلَّ لنوح بعد أن استوت السفينة على الجودي ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٤٨]. وهذا يعني وجود أمرين: أن هناك أمماً ستنبثق ممن حملوا مع نوح سواء من ذريته أو من غير ذريته، وقصة بني إسرائيل ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ دليل على ذلك، وأن هناك أمماً أخرى في الأرض لم يغرقها الطوفان وسيكون لها دورها أيضاً في مسيرة بني الإنسان وكان في مقدمتها قوم عاد. فإذا كان هذا هو الوضع، وإذا كانت تلك هي أبعاده، فكيف يصحُّ لنا أن نجعلَ من طوفان نوح فاصلاً بين زمنين تأريخيين على نحو جذري ؟. وكيف يجوز لنا أن نُميِّزَ بين بشرٍ ما قبل الطوفان وبشر ما بعد الطوفان ؟.

ثم إن الدراسة الجادة لطوفان نوح وفي ضوء ما ورد في القرآن الكريم تُرجِّحُ أن الطوفان وقع قبل حوالي ٣٠ ألف سنة من الزمن، أي في أواخر العصر الحجري القديم (الباليوليت) وليس في العصر الحجري الحديث أو حتى العصر الحجري النحاسي، ولم يقع ضمن ما بات يُعتبر زمناً تاريخياً بالنسبة لمنطقتنا العربية على الأقل، بل وبالنسبة لمناطق أخرى. فكيف يمكن لحدث ضخم من هذا القبيل أن يقع في العصر التاريخي دون أن يكون رصدُهُ ممكناً؟!.

إن طوفان نوح في الواقع كان واحداً من طوفانات عديدة كبيرة شهدتها الأرض في أماكن متباعدة، وفي أزمنة متباعدة، وهذا ما يفسر تعدد الأساطير حول الطوفان، وهذا ما نفهمه من قوله عز وجل ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا

ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦]. فهذه الآية تعني طوفانات عديدة طالت قروناً عديدة. ولنلاحظ هنا أن طوفان نوح مثلاً تم في منطقة لا توجد فيها أنهار بدلالة قول نوح لقومه ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح: ١٢]، بينما بعض الطوفانات الموصوفة في الآية السابقة تشير إلى فيضان الأنهار بالإضافة إلى سيول الأمطار. ولنلاحظ أن الوصف في الآية ٦ من سورة الأنعام يوضِّحُ المقولةَ التي طرحها (نوربيرغن) بقوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾. والتمكين له أبعاد عديدة محتملة، وسنرى كيف تتضح معنا تباعاً.

لم تكن الطوفانات هي الأسلوب الوحيد المعتمد الذي أدى إلى انقراض بعض الأقوام، ونحن نفضل كلمة الأقوام على كلمة السلالات. يقول تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٢٦].

وواضح هنا أننا أمام زلازل وبراكين وتصدعات في الأرض. وواضح أيضاً أننا أمام سلالات أو أقوام كان لديها بناء وعمران، ولم تكن بدائية متخلفة. وهذا ما يؤكد صحة وجهة النظر التي سعى المؤلف إلى إثباتها.

وحتى بالنسبة لمقولة الأعمار الطويلة، وهي الفكرة المستمدة من «سفر التكوين» ومن الكتابات السومرية القديمة، وربما كان فيها من المبالغة الكثير أو أن مقياس تحديد الأعمار كان مختلفاً، نجد القرآن الكريم يؤكد على فكرة الأعمار الطويلة. يقول عز وجل: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٤]. كما يقول تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد: ٤١]. وهنا عَدَا عن مسألة الأعمار الطويلة، ثمةَّ ربط بين طول العمر وبين قدرة الإنسان على ملاحظة التبدلات التي تطرأ على الأرض واليابسة، واجتياح المياه لليابسة، وهي ظاهرة ترتبط أيضاً بالعصور الجليدية التي شهدتها الأرض، وهي وفق ما وصل إليه المؤرخون أربعة عصور.

في الواقع إن مشكلة التمييز بين الإنسان القديم والإنسان الحديث - إن صح التصنيف - لا يمكن أن ترتكز على إنسان ما قبل طوفان نوح وإنسان ما بعد الطوفان، وإنها بين إنسان ما قبل آدم المصطفى - إذا سلمنا بأن آدم هو بداية ما يُسمِّيهُ المؤرخون الآن بالإنسان العاقل - وبين ذرية آدم. ووجود إنسان ما قبل آدم، والذي هناك ما يُشير إلى وجوده في الأرض لزمنٍ طويل للغاية، مؤكد من قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. فما قالَهُ الملائكة هنا كان توصيفاً لسلوك إنسان ما قبل آدم الذي جاء آدم المصطفى وذريته ليكونوا خلفاء له في الأرض. وهذا السلوك كما رأينا كان يتصف بالإفساد وسفك الدماء.

وتتأكد هذه المسألة أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

فهذا يعني بوضوح أننا جئنا من ذرية قوم آخرين. كما يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

في الواقع إن المشكلة الأساسية بالنسبة لعلماء التاريخ تتمثل في تحديد خصائص ذلك الإنسان القديم بالمقارنة مع الإنسان العاقل. ولكن ما يجب أن ننتبه إليه أن العلاقة بين إنسان ما قبل آدم وبين إنسان ما بعد آدم لم تكن صفحة طُوِيَتْ فجأةً لتحُلَّ محلها صفحة أخرى، وإنها كانت قضية تطور في التكوين البشري استغرق زمناً ليس بالقليل.

إذا كان نوربيرغن استخدم تعبير الإنسان البدائي (لما قبل التاريخ) بغية التعريف بتلك السلالات المنقرضة أو المفقودة أو ربما المذابة أو المندمجة، فإن القرآن الكريم ميَّز بين «الأولين» و«الآخرين». وهو تمييز أكثر دقة ووضوحاً. يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦-١٨].

ويقول سبحانه وتعالى ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]. فالتمييز هنا يبدو تمييزًا شاملًا بين [الأولين] و[الآخرين]، مما قد يفهم منه أنه تمييز بين مرحلتين في تاريخ الإنسان، مع ملاحظة أنه في بعض الحالات يأتي ذكر الأولين لوصف الأقوام السابقة التي تعرضت للضربات بشكل عام.

وبوسعنا الافتراض بل التأكيد – وهو ما يعترف به المؤرخون وعليه إثباتات – أن سلالات [الأولين] – أي إنسان ما قبل آدم – لم تنقرض قبل آدم، ولم تختفِ بمجرد ظهوره وذريته، فقد بقي لها وجودها إلى جانب من نسميه بالإنسان العاقل، وحصل تزاوج بين الطرفين، ولعلَّ بعض الصفات الوراثية لإنسان ما قبل آدم لا تزال موجودة لدى بعض البشر حتى الآن وتبرز من حين إلى آخر كطفرات، بل إن هناك الكثير من الشواهد على ذلك. يقول تعالى ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦– ٨]. وهنا نلمس التمييز بينهم وبين [الأولين] من وصف الأولين بأنهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾. والبطش مظهر من مظاهر الإفساد، لكنه أيضاً من نتاج الإحساس بالقوة أو بالأحرى امتلاك القوة الجسدية.

في الحقيقة إننا لا نملك أيَّ نص مباشر يصف شخصية إنسان ما قبل آدم وملامح هذه الشخصية وطبيعة سلوكها الاجتماعي. وحتى فيما يتصل بالبشر منذ آدم وحتى طوفان نوح، فإن القصة الوحيدة الواردة هي قصة الأخوين المتمثلة في قوله عز وجل ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ ، ٢٨].

علينا أن ننتبه هنا إلى أن قوله تعالى [ابني آدم بالحق] لا يعني بالضرورة أنهما ولداه كما هو الحال في رواية سفر التكوين، حيث أن كلمة بالحق تعني «كما حصل حقيقة»، بينما يعتبر البشر جميعاً أبناء لآدم، ثم إنه لا مسوِّغ أن يكونا ولديه الوحيدين إن كانا من أولاده

بالفعل. والأهم في هذه الواقعة: أن الإنسان (العاقل) لم يكن يعرف في البداية طقس الدفن مما يرجح أن إنسان ما قبل آدم لم يكن يدفن ميته. يقول تعالى إنه بعد أن قتل أخاه ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١]. وعليه تكون مسألة الدفن الشعائري هي إحدى صفات الإنسان العاقل المكتسبة لاحقاً ولو كانت قائمة عند إنسان ما قبل آدم لما احتاج إنسان ما بعد آدم إلى أن يتعلم الدفن من الغراب. ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه حقيقة يدور حول السبب الذي ربط بين هذه الواقعة البدائية القديمة وبين بني إسرائيل بالذات، وذلك في قوله عز وجل ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة: ٣٢]. فهل نفهم من هذه الآية أن بني إسرائيل كانوا من ذرية القاتل الأول الذي أطلقوا عليه في سفر التكوين اسم قايين، ويعرف عند العرب باسم قابيل ؟.

لنلاحظ أنه باستثناء الواقعة السابقة المتعلقة بالقاتل الأول، فإن القرآن الكريم لا يؤكد أياً من الروايات الواردة في سفر التكوين حول البشر من أبناء آدم قبل طوفان نوح. فالرسالات كما تتحدد في القرآن يؤطرها قوله عز وجل لخاتم الأنبياء والمرسلين ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٣]. ولكن تحديد بدء الرسالات على هذا النحو لا يعني أن مسألة تطور الإنسان كانت قد انتهت إلى وضع محدد قبل الطوفان. فهذا نوح يقول لقومه ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٤].

وهذا النبي هود عليه السلام من بعد قوم نوح يقول لقومه ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩]. وإن دل هذا على شيء فعلى أن التزاوج بين الإنسان العاقل وبين الإنسان السابق عليه، وقيل إنه إنسان

(نياندرتال)، أدى إلى ظهور إنسان يتمتع بِبَسْطةٍ في الخلق هو من وصف بإنسان كرومانيون. فهل كان التزاوج بين الإنسان العاقل والإنسان ما قبل آدم سبباً في ظهور صفات معينة تميز بها الإنسان في تلك الفترة حتى عمَّن جاء بعده من البشر الآخرين أم أن صفات الأولين تتعلق بإنسان ما قبل آدم ؟. سؤال يصعب علينا البت في الإجابة عليه.

حين نستقصي الصفات الخاصة بهؤلاء [الأولين] في القرآن الكريم نستطيع أن نجد في هذه الصفات فعلاً ما يُفسِّر المعطيات الواردة في كتاب نوربيرغن حول أسرار تلك السلالات، وما تثيره المظاهر الدالة عليها من استغراب ودهشة عند المؤرخين المعاصرين، وإن كانت هذه الصفات تتصف بالعمومية بينما يذهب هو إلى افتراضات عميقة الغور حول حجم ما كان قد تحقق من تطور تكنولوجي.

يقول سبحانه وتعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾

[فاطر: ٤٤].

هنا نحن أمام صفة محددة، وهي أن **هؤلاء الأولين كانوا أشدَّ قوّةً**. ولعل المقصود هنا هو القوّة البدنية المتميِّزة، وليس القدرة التراكمية للقوة الناجمة عن الكثرة مثلاً، أو القوة المستمدة من أسلحة مدمرة، وهي على كل حال تبقى فرضيات واردة للاستقصاء التاريخي.

كما يقول سبحانه وتعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

ما أضيف هنا إلى القوة هي الآثار في الأرض أو بالأحرى الآثار التي تركوها في الأرض والدالة على قوتهم، أو على جانب آخر من ملامح شخصيتهم وتطورهم. وقد تكون في هذا إشارة لما تناولها نوربيرغن من معلومات حول الأوبارتز أو حول المنشآت الميغاليثية وما على شاكلتها من آثار تثير الدهشة عندنا حتى الآن.

ويقول سبحانه وتعالى أيضاً ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

هنا أكثر من صفة إضافية إلى جانب القوة منها: كثرة الأموال (أي الممتلكات من أنعام وزروع وربما أشياء أخرى غير الأنعام والزروع)، وكثرة الأولاد، وهي مسألة مرتبطة أيضاً بطول الأعمار وتعدد الزوجات، وهناك الاستمتاع بالخلاق أي الاستمتاع بالملذات والشهوات الفانية، والخوض في الباطل والتكذيب.

كما يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

وهنا تأكيد على الكثرة العددية المتفوقة، إضافة إلى القوة والآثار. وقد حاول نوربيرغن أن يقدم لنا تفسيراً لتلك الكثرة العددية من خلال جدول إحصائي. لكن هذا التصور يتطلب أيضاً معرفة معدلات الوفيات على نحو يمكن معه رصد التطور المحتمل على نحو أكثر دقة. ومع ذلك، فإن ما ورد في القرآن حول كثرة الأولين عددياً يؤكد صحة ما ذهب إليه.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

[غافر: ٨٢، ٨٣].

وهنا نلاحظ صفة إضافية هي العلم. وسواء تعلق هذا العلم بالغيبيات أو بأشياء أخرى، فإنه يمثل عنصراً مهماً في فهم أسرار تلك السلالات المنقرضة. وبالطبع فإن كلمة العلم هنا يمكن أن تكون مفتوحة على احتمالات كثيرة بحيث يكون ورودها في القرآن سبباً في أخذ الأفكار التي طرحها نوربيرغن بجدية أكبر.

ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾ [مريم: ٧٤]. أي أنهم أكثر أموالاً ومتاعاً، وأجمل هيئة ومنظراً.

لقد أوردنا هذه الآيات، وبهذا التسلسل، لنؤكد بأن الإجابة على الأسئلة التي طرحها المؤلف حول أسرار السلالات البشرية المفقودة أو بالأحرى [الأوَّلين] – وهي صفة استخدمها (رونه نوربيرغن) أحياناً، أي صفة الأولين – إنما وردت بشكل واضح ومحدد في القرآن الكريم، وإن تضمنت العناوين العامة دون التفاصيل الجزئية المطروحة للبحث مثل مسألة الطيران أو استخدام أسلحة نووية.. وما إلى ذلك من فرضيات تحتاج إلى برهان. ومثل هذا البحث التفصيلي هو من مهام المؤرخين.

إن الملاحظة التي يجدر ذكرها في هذا السياق هي أن القرآن الكريم في تقديمه لقصص الأقوام العائدة للتكوين العربي بدءاً من قوم نوح قدَّم دائماً ما يمكن اعتباره تلخيصاً لنمط الانتاج والتقدم السائد في كل تجربة. ونلاحظ أن هذا النَّمطَ تطور بشكل متدرج من مرحلة إلى أخرى. وهذا يرجح أن الصفات التي أوردناها عن الأولين إنما تنصب على سلالات الأولين. فهم الموصوفون بأنهم أكثر عدداً وأشد قوة وآثاراً في الأرض، ذلك أن منطق الأمور يفترض التطور التدريجي للمجتمعات وليس نكوص المجتمعات إلى الوراء. ومع ذلك علينا أن ننتبه إلى أن القرآن الكريم تحدث عن الأحداث المتعلقة بالأقوام المرتبطة بالتكوين العربي تحديداً.

ما يمكننا التأكيد عليه الآن، أن الإنسان القديم أو الممثل للأولين امتلك من صفات القوة الجسدية وطول العمر ما أدى إلى تكاثره بمعدلات عالية للغاية وانتشاره في مختلف أنحاء الأرض مستغلاً ما فيها من الأرزاق إلى أقصى الحدود. لكن هذا الإنسان مارس الإفساد في الأرض، وكان عدوانياً يسفك الدماء، وهو سلوك ربَّما كان مصدره فرط قوته، ومحدودية تفكيره العقلي بمتطلبات الحياة أو ما يُسمِّيه العلماء بالإدراك ومخاطر سلوكه عليه وعلى ذريته في المستقبل. فجاء خلق الإنسان العاقل آدم ليشكل تطوراً لخصائص الإنسان بحيث يزيد من قدرته العقلية على التفكير والتدبر ويقلص من قدرته البدنية حتى لا يطغى على البيئة من حوله. لكن هذا الخلق لم يكن منفصلاً، بل جاء

تطويراً. وهو ما نفهمه من قول نوح لقومه ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤].

فلقد تعايش الإنسان القديم والإنسان الجديد معاً لفترة طويلة من الزمن، وتمَّ التزاوج بينهما، وأدى ذلك إلى تطوير الصفات السلالية للبشر بشكل عام باتجاه النماذج السائدة الآن. والحقيقة إنَّه حين يتحدث سفر التكوين عن زواج أبناء الله وبنات الناس فإنه ربما يُشير عمليًّا إلى هذا الاختلاط، إذ لا يمكن أن نأخذ أسطورة «الملائكة الساقطين» بجدية، كما أنَّ في حديث كُتب التناخ عن بني عناق وصفاتهم، أو فيما تتضمنه الأساطير العربية من وصف للعماليق من العرب البائدة وما كانوا يمتلكونه من قوة وربط الفراعنة بهم، أو فيما جاء في نصوص أوغاريت عن الرفائيين، ما يشير إلى ذكريات تتصل ببقايا أولئك الناس الذين كانوا أشدَّ منا قوة. وهكذا يمكن القول إنه حتى بالنسبة إلى مرحلة تشكل «التكوين العربي» كان هناك ربط بين [الأولين] و [الآخرين].

فمنذ قصة قوم نوح، نقف أمام قوله عز وجل ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

والواقع إنَّ ما يعنينا هنا ليس التمييز بين البشر والملائكة، وإنما المعيار الذي اعتُمد في وصف من اتبعوا نوحاً بأنهم أراذلهم. فهل المقياس هنا أخلاقي أم خلقي، أي هل هو مرتبط بالسلوك أم مرتبط بالصفات الوراثية من قوة وسواها؟. ولعل السؤال الأهم يتمثل بالتالي: هل كان الملأ من قوم نوح ممثلين للأولين، أي لإنسان ما قبل آدم، أم كانوا ممثلين للآخرين؟ أم أنهم كانوا مزيجاً سلالياً؟.

إن حقيقة كون العملية التطورية في بنية الإنسان كانت لا تزال قائمة تتمثل بعد ذلك في قول هود لقومه عاد ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾. فهذا يعني أن قوم عاد كانوا في غضون ذلك الزمن ينمون بخصائص سلالية جديدة قائمة على التزاوج بين الإنسان العاقل وإنسان نياندرتال. والحقيقة أنه لو بذل المؤرخون المعاصرون جهداً حقيقياً في دراسة الآثار المتعلقة بالقصص القرآني حول

القرون الأولى أو الأقوام الأولى فلعلهم كانوا سيصلون إلى جلاء الكثير من غوامض التاريخ، وإلى وضع أساس زمني موضوعي لتعقب تاريخ تطور الحضارة الإنسانية في مختلف أنحاء العالم على أسس أكثر وضوحاً.

إن رونه نوربيرغن في كتابه هذا قد يكون على حق حين يأخذ على المؤرخين التقليديين تصورهم عن الإنسان القرد أو الإنسان الدحداح النياندرتالي الأشبه في تصويرهم له بالقرد، والذي لا نعرف شيئاً ذا بال عن صفاته الحقيقية مفترضين أنه كان بدائياً، وأنه لم يتجاوز العصر الحجري القديم. ولكن دعونا نقول بأن ما ورد في القرآن الكريم عن القرون الأولى أو الأولين يمكن أن يقودنا إلى استنتاج يستحق البحث والتأمل والتدقيق، وهو أن التزاوج بين الإنسان البدائي القديم القوي البنية والإنسان العاقل الحديث الذي يتميز بالقدرة على الإدراك والتفكير أكثر مما يتميز بالقوة الجسدية أدى في فترة ما وسيطة في حياة الإنسان إلى تشكل جيل يجمع بين صفتي القوة والقدرة على التفكير معاً. ولا ريب أن مثل هذا الإنسان سيشكل في زمنه طفرة كبيرة حتى بالقياس إلى أجيال البشر اللاحقة التي أخذت تتجه بشكل عام نحو تغلب قدرة العقل على القوة البدنية بحيث باتت القوة البدنية استثناء في حياة الناس. ولعل فترة الجمع بين الصفتين كانت هي الطفرة التي تضمنت تلك الألغاز التي تناولها المؤرخ نوربيرغن في كتابه. فالجمع بين القوتين الجسدية والعقلية يمكن أن يؤدي حتماً إلى نتائج يصعب علينا تفسيرها بناء على واقعنا الراهن أو على توقعاتنا التي تستبعد عملية الجمع هذه كمرحلة انتقالية في تطور الإنسان.

دمشق — آب / أغسطس ٢٠١٧

***



كنت أطالع كتاباً حول الظاهرة النفسية الاستثنائية، عندما دخل غرفة المكتب طالب شاب متأبطاً كومة ضخمة من الكتب العلمية المستقبلية. تقدم نحوي متردداً وببطء.

بدا القلق واضحاً على ملامح وجهه، وهو يشير إلى مجموعة كتبه: «هل تصدِّق بأننا كنا عرضة لزوار قادمين من الفضاء الخارجي؟». ثم جلس على الكرسي صامتاً منتظراً الجواب بفارغ الصبر. من الواضح، أنه لم يتوقع جواباً دينياً أو فلسفياً، أو لا يتوقع أي نوع من ردّ فعلٍ يناقض الشيء الذي اعتبره حقيقة ملموسة. أراد تأكيداً لذلك. لم أستطع تلبية الطلب. اعترته الدهشة بصورة واضحة. لقد أتاحت له طبيعته المتسمة بسهولة الانخداع وبشكل قوي، أن يستوعب ويتشرب كل المعلومات المتيسرة المرتبطة بهذا الموضوع، بهذا لم يكن مستعداً إلا للدفاع عن اقتناعه الجديد استناداً إلى برهان محدد. لذلك وجدته عاجزاً عن تحقيق ذلك بعيداً عن هذه البرهنة. ولكن كيف يتسنى له الحصول عليها؟ أين هي؟ وهل يمكن العثور عليها فعلاً؟.

في هذه اللحظات، خطرت ببالي فجأةً، ذكرى مناسبات أخرى، عندما وجدت نفسي إزاء هذا الموقف بالذات، وكان جوابي مماثلاً له.

بالطبع إن تساؤلاته تُجسِّدُ الآراء المترددة التي تخطر في عقول الملايين من الناس، ذلك لأن الكتب تتحدث عن الزوار العائشين بين المجرات في السماء، ومثل هذه الكتب موجودة في معظم لغات العالم.

إن الحماس لهذا الانتاج المشتق من عصر الفضاء لا يعرف حدوداً، غير أن الأسئلة

الرئيسة التي تراود عقولنا، تظل بلا جواب: هل زاروا فعلاً كوكبنا في الأزمنة القديمة؟.

هل تعتبر تقنيتنا (التكنولوجيا) الظل البسيط للتقنية التي لقنونا إياها سابقاً؟.

هل ما زالوا يتصلون بحضارتنا أم تخلُّوا عنا للأبد؟.

هل جاز اعتبار مصنوعات الإنسان القديم التي تفتقر إلى هوية، شهادة على التفوق التكنولوجي الخاص بالمجتمع الذي ينتمي إلى تطورنا التاريخي الشخصي؟.

هل نحن في حالة من التقهقر بدلاً من حالة النشوء والارتقاء؟.

هل فقدنا أكثر مما ربحنا؟.

هل نحن الآن أيضاً، نقترب من مستوى التقدم والمهارة، أي هذا المستوى الذي أدى إلى السقوط التأريخي والنكبة للجنس البشري؟.

إن هذا الكتاب محاولة للتزويد بجواب معقول بالنسبة لهذه الأسئلة استناداً إلى هذه الاكتشافات العديدة التي ظلت ملقاةً ومطروحةً في المتاحف الفخمة والمكتبات العفنة.

إن الاستنتاجات مذهلة وحتى مخيفة، ذلك لأن الاكتشافات التي تبخرت في مطلع التأريخ مفقودة بين أنقاض ماضينا.

هل زارتنا فعلاً هذه المخلوقات، أم يتوجب علينا الاعتماد على المنجزات التي حققها جنسنا البشري بالذات، للحصول على الأجوبة المطلوبة؟.

إني على يقين بأن الوقائع المسجلة سوف تقودنا إلى حل ناتج عن غربال الزمن.

شباط (فبراير) ١٩٧٧

المؤلف

رونه نوربيرغن

***



الفصل الأول

نهاية البداية

جاز أن نتميَّز بالحنكة في أمور الدنيا والتحذلق، بشأن مجهوداتنا ومحاولاتنا لخلق أشياء جديدة، ولنشر معرفة علمية. بهذا، لقد جعلنا من القرن العشرين عصر التطور وعصر التشويش والارتباك على حد سواء.

ولكن كيف تكون النهاية؟. لا أحد يعلم.

لقد فقدنا شيئاً ما، ويمكن أن يكون ذلك الشيء الجزء الفاصل وعليه المعول بالنسبة لميراثنا.

بالفعل لقد أصبح الشر القائم ضمن الدهور الطويلة المتعلقة بالزمن غير المسَّجل عصر المعلومات المنحرفة بمعنى المتحيزة. لقد تضاعفت سرعة المحاولات في هذا المجال وخضعت فرضيات جديدة للتجارب، وتم تعديل نظريات علمية متوالية وتم تشييد صيغ حديثة. ولكن كل هذه المجهودات كانت تعتمد أصلاً على نظريات مقبولة مسبقاً، وظلت كمية من المعلومات المتفككة غير المتساوقة أي المعلومات التي تخترق باستمرار جدران الارتضاء العلمي مجهولة أغلب الأحيان.

إن مرادنا للمعرفة وقوانا الذاكرية اتخذت رؤية واحدة فقط. وهذا هو سبب مشكلتنا تماماً.

لدينا في مجتمعنا المعاصر اسمًا لكل شيء. وكل واقع جديد يتجه مندفعاً نحو مجاله المناسب، وذلك للحصول على التطور الاجتماعي الراكد. يبدو أننا وصلنا إلى النقطة التي تجعلنا نشعر بأننا أصبحنا المتلقين بشكل نهائي جميع المعارف التي تم اكتشافها قبلاً. هكذا نقول لأنفسنا بأن هذا العصر هو عصر الحيوانات والنباتات المائية وذلك العصر هو عصر

التنوّر الفكري. ونميل للاعتقاد بأن الجيل الحاضر إنما يجسد كل المعارف التي تراكمت منذ عهد بعيد، ونميل للاعتقاد بأن المستقبل سوف يبدو بدوننا عاتماً مبهماً بشكل مريع.

ولكن هل هذا الاعتبار حقيقي فعلاً؟.

ما زلنا نتقيد منذ سنوات عديدة بنظرية التطور ونظرية النسبية وسائر المفاهيم العلمية. ولكن بينما تعتمد النظرية النسبية على مبادئ علمية قيمة، ما يزال موضوع التطور المرتبط بالبروتوبلازما (أي قوام الخلية الحيوانية) حتى القرد وصولاً إلى الإنسان، معرضاً لمناقشات لا تطاق. ونتيجة لذلك يحاول الإنسان بعناد الحصول على طرائق جديدة لتفسير ما بدا منذ زمن سحيق غير مُفسَّر. إننا نحتاج إلى رؤية جديدة لهذا العالم الذي يحيط بنا حتى ولو توصَّل العلم إلى نقلنا من زيت الكاز (الكيروسين) إلى الطاقة الذرية. فما زلنا نواجه باستمرار الاكتشافات التي لا تتوافق مع النظريات المقبولة المختصة بتطورنا.

لمدة تجاوز القرن، تعامل المؤرِّخون التقليديون بصورة خاصة مع جسم واحد من الحقائق التأريخية، أي الحقائق التي تلتقي بمتطلبات خاصة بقالبهم الافتراضي المسبق التي تخبرهم بأن إنسان اليوم إنما هو نتيجة النهج التصييري التطوري الخاص بالناحية الفكرية والفيزيقية على حد سواء، انطلاقاً من المرتبة السفلية للموجودات. لقد شملت هذه الرؤية الافتراضية للتاريخ الملايين من السنين. ورغم أن المؤرخين غير قادرين على إزاحة الستار الخاص بالتأريخ المسجل أكثر من ٦٠٠٠ سنة، رغم ذلك ما زالوا يتمسكون بنظريتهم، لأن عقولهم المبرمجة لا تقبل أيَّ تفسير آخر خاص بالتطور التكنولوجي والثقافي للانسان.

يوجد جانب محدد لرؤية خاصة بمشكلة ذات عدة جوانب، وذلك في سبيل إنجاز المفهوم الكامل للتأريخ. بهذا وجب الأخذ بعين الاعتبار وجود جذعين من الوقائع: الجذع الأول يتعلق بمصنوعات الإنسان القديم، والجذع الثاني هو الكتاب المقدس التأريخي.

ما معنى مصنوعات الإنسان القديم؟. سوف تطرح على نفسك مندهشاً مثل هذا

التساؤل. لقد حصل منذ ثلاثين سنة ازديادٌ متواصلٌ لعدد الاكتشافات التأريخية والأثرية التي حصلت في مناطق متعددة في العالم. ونظراً لطبيعتها الملغزة، والتي أثارت حولها الآراء المختلفة بشكل قَويٍّ، فقد صُنِّفت كمصنوعات الإنسان القديم (بعيداً عن مكانها المألوف). ومن هنا جاءت تسمية أوبارتس (ooparts) أي مصنوعات الإنسان القديم. ويرجع سبب هذه التسمية إلى وجود طبقة جيولوجية في مكان غير مألوف، وظهور هذه الطبقات الزمنية القديمة بصورة فجائية شوشت عقول مراقبين علميين كثيرين. لقد برزت من بين بقايا الماضي الحافل بالكنوز بدون أي تفسير لأية مرحلة ثقافية سابقة أو لأية مرحلة خاصة بالنمو التكنولوجي. وفي حالات عديدة تبين بأن الحنكة التِّقَنيةَ لمصنوعات الإنسان القديم (بعيداً عن مكانها المألوف) تتجاوز كثيراً الإمكانيات الإبداعية للشعوب القديمة التي تم اكتشاف بقاياها. كذلك يوجد شك نسبي حول هذه المصنوعات اليدوية البعيدة عن مكانها المألوف من الناحية النظرية، ذلك لأنها لا تتوافق مع الشيء المقبول كجزء من تطور الجنس البشري. بكل بساطة لا يوجد زمن خاص بالشرم لتحقيق هذا التوافق وليلائم بينها أو ليلائم بين الطرفين. هل يمكن القول بأن الصوت الخافت للماضي المجهول يحاول بلوغ مسامعنا عبر هذا الزمن؟. هل من المعقول أن تحمل هذه المصنوعات الخاصة بالإنسان القديم (بعيداً عن المكان المألوف أوبارتس) شهادة على وجود حضارة متفوقة ذات منشأ بشري وشهادة على تطور حصل في مسافة معينة في تأريخ الجنس البشري؟.

يبدو هذا الأمر سحيقاً جداً.. أليس كذلك؟

ولكن من الممكن أن يكون ذلك حقيقياً. هل يتصور العقل بإمكانية وجود مرحلة من التأريخ البشري حيث وجدت حضارة قابلة للمقارنة أو أكثر تطوراً من مجتمعنا الحضاري في القرن العشرين؟.

إن محلات بيع الكتب، مليئة حالياً بأكداس من الكتب التي ألفها أشخاص يحاولون ربط مصنوعات الإنسان القديم (البعيدة عن المكان المألوف) بزيارات كائنات بشرية قادمة من مجرات أخرى galaxies، أي المجرات التي تحيط بهذا الكوكب منذ أكثر من

١٠ آلاف سنة، تاركة وراءها برهاناً على زيارتها خارج المجرات transgalactic. إن الصعوبة الكبرى فيما يتعلق بقبول هذه النظرية هي النقطة التالية: إن مصنوعات «أوبارتس» مكونة من مادة لم تكن معروفة في الأرض، وإن تركيبها التكنولوجي يتوافق مع التطور الخاص بحضارتنا المعاصرة. إن نظرة قريبة من هذه المصنوعات اليدوية الغريبة، توحي لنا بأن مصنوعات «الأوبارتس» صادرة عن صناعة الإنسان الحضاري – المتعلقة بالحضارة التي سبقت هذا التاريخ المعروف – تلك الحضارة التي بلغت درجة عالية من التطور، لكنها لقيت تدميراً واسعاً جداً عن طريق كارثة مريعة وشديدة الانتشار في سحيق الماضي، بحيث بقيت هذه الكارثة البقايا القليلة المتعلقة بعلمها وتقنيتها بين سائر الثقافات الأقل مستوى التي تلتها في التأريخ.

ولكن أين يتسنى العثور على دلالات تؤكد على حدوث مثل هذه الكارثة بهذا المقدار الهائل؟.

يوجد تفسير واحد ممكن لبروز هذه البقايا، لكنه يستوجب التزام قصة سفر التكوين المتعلقة بالطوفان، هذا الطوفان الذي قيل عنه بأنه أزال من الأرض الجنس البشري في كارثة مدمرة جداً، كاملة جداً بحيث يرتعد المرءُ ويرتعش خوفاً كلّما حاول أن يستذكرها.

إنه المظهر الثالث للحكاية التأريخية للإنسان، الذي يحتوي على الوقائع التي تهدف إلى حلِّ لغز «الأوبارتس». إذا اعتبرنا الكتاب المقدس ينبوعاً ثالثاً لمعرفتنا التأريخية يتبين لنا بأن كتاب سفر التكوين كفيل بتقديم الحكاية الكاملة المتعلقة بالإبادة لحضارة بكاملها عن طريق الطوفان الأكثر تدميراً في العالم، أي ذلك الطوفان الذي لم يحدث مثله قط. لقد نمت وازدهرت هذه الحضارة خلال ما يمكن تسميته بعهد قبل الطوفان antediluvian، أي المرحلة القائمة بين التاريخ التوراتي المسجل منذ أقدم العصور والكارثة العالمية.

استناداً إلى حكاية سفر التكوين، كان الشعب الذي يخص عهد قبل الطوفان يتمتع بدرجة عالية من المعرفة والعلم. وكان الأول في تطوير الزراعة وتدجين الحيوان وفي التعمير وهندسة البناء والتنظيم السياسي والعمل المعدني والفنون التجريدية والرياضيات وفي علم ترتيب الحوادث تاريخياً وفي علم الفلك. بالإضافة إلى ذلك يفيدنا سفر التكوين

بوجود عشرة أجيال بشكل إجمالي، أي الأجيال التي كانت تخص عهد قبل الطوفان. ولقد طوّرت الأغلبية، إن لم نقل جميعاً، العناصر القاعدية للحضارة بواسطة الجيل السادس. الآن، إذا كانت عهود قبل الطوفان، انطلاقاً من حالتها الطبيعية، قادرة على التحكم بفنون الحضارة عند بداية الأجيال السادسة الأولى لوجودها، جاز لنا تصور الدرجة الثانية التي توصلت إليها من حيث تطور هذه الفنون قبل حدوث الطوفان.

بالطبع، إن المؤرخين التقليديين غالباً ما يهملون مدلول الكتب التأريخية الخاصة بالعهد القديم وبها فيها قصة الطوفان وحضارة قبل الطوفان. غير أن حكاية سفر التكوين الخاصة بالطوفان جاز اعتبارها الجواب الوحيد لهذا اللغز الخاص بمصنوعات الأوبارتس.

استناداً إلى هذه القصة، إن القوة العظمى في تدمير الحضارة المتقدمة لعهود قبل الطوفان إنها كانت تنسب إلى الطوفان. وفي الفصل السابع من سفر التكوين يوصف الطوفان بشكل كارثة أرضية عنيفة (أي بشكل انقلاب طوفاني جائح).

«في اليوم نفسه تفجرت جميع الينابيع ذات العمق الكبير. والمياه غمرت بإفراط الأرض وجميع التلال العالية أصبحت مطمورة». كانت النتيجة موت جميع الكائنات البشرية إلا الذين كانوا على متن سفينة نوح، وكل كائن مات، كل كائن تحرك فوق الأرض.. كل إنسان. إن ارتجاجات وتقلبات الطبيعة لم تدفن فقط شعب قبل الطوفان، ولكن دمرت أيضاً وبصورة كاملة انجازاتهم التكنولوجية، وذلك بسبب الانتفار (الارتفاع الطارئ في سطح الأرض) الهائل الحجم، الذي كان كافياً لإزالة أيِّ نمط آلي أو تعميري من الوجود.

«هذا ما قالته التوراة»، إنه التعليق المذكور عرضاً أغلب الأحيان. «لكننا نعلم جميعاً بأن شيئاً مثل الطوفان العالمي لم يحدث فعلياً أبداً». منذ سنوات كرست نفسي للبحث عن الطوفان محاولاً اكتشاف تأكيد خارج التوراة خاص بالطوفان العالمي. ولقد وجدت نفسي عدة مرات وجهاً لوجه أمام هذا الحكم ولاحظت بأنه ناتج عن عدم الدراية الكاملة لهذا الأمر البدهي.

لقد تعرفت عام ١٩٤٧ على فريق يستعد للسفر إلى قمة أرارات في شمال تركيا للبحث عن سفينة نوح الأسطورية. ويقال بأن هذه السفينة حملت معها العائلة التي بقيت حية وتخص عهد قبل الطوفان، حملتها عبر مياه الطوفان بالإضافة إلى المصادر الخاصة المتعلقة بحكاية التوراة الخاصة بالكارثة. لقد اندفع الفريق بالأخص بسبب المعلومات العلمانية المعتمدة على مفهوم التدمير الكامل الناتج عن الطوفان. مثل هذا المفهوم دفعهم إلى القيام بهذه المساعي الجدية.

- **تقاليد الطوفان العالمي:**

منذ سنوات عديدة تمّ تأليف ما يوازي ٨٠ ألف كتاباً، جميعاً تخصُّ الطوفان. وقد كتبت بإثنتين وسبعين لغة. وهذه الكتب التي جاز التعرف عليها من خلال الفهارس البطاقية في المكتبات الكبرى في العالم. هناك مؤلفات كثيرة قد كُتبت، ولكنها لم تصنَّف إطلاقاً. ويوجد العدد الأوفر منها الذي يخص المظاهر الأثرية والجيولوجية للطوفان، ولا يتعلق بالأساطير والفولكلور التي يقوم عليها التأريخ القاعدي للحضارات القديمة. غير أن هذه الحكايات هي ذات أهمية عظمى نظراً لارتباطها بوجود قبائل متفرقة بمقياس كبير، واستناداً إلى هذا الأمر، يمكن توقع النقطة التالية: هل كان الطوفان فعلاً كونياً؟. يقول الباحث الألماني الشهير الدكتور جوهانس رايم Johannes Riem في مقدمة لعمل له وقع بالغ في النفس حول أساطير الطوفان «ليس هناك بين التقاليد جميعاً، أكثر عمومية وأكثر انتشاراً على الأرض، وأكثر قابلية لإظهار ما يمكن تطويره من المادة نفسها بمقتضى الطابع الروحي المتنوع لشعب، من تقاليد الطوفان. إن المناقشات الطويلة والمتقنة مع الدكتور كونايك Kunnike قد أقنعتني بالمصداقية البدهية لموقفه الذي يعتبر قصة الطوفان أمراً مسلماً به، وذلك استناداً إلى جميع الأساطير، وبالأخص أساطير الطبيعة، يوجد واقع حقيقي، ولكن خلال المرحلة اللاحقة، اكتست المادة خاصيتها الأسطورية الحاضرة ونمطها».

إن موقفه هذا مما يماثل عدة مواقف لباحثين آخرين. كتب العالم الجيولوجي الإسكتلندي الشهير هوغ ميللر Hugh Miller، في القرن التاسع عشر، والذي يُعتبر

من أهم الباحثين في العالم بخصوص تجميع وتصنيف التقاليد المحصورة بالجن أو الأرواح، يقول: «غير أنه يوجد تقليد خاص بحيث يبدو أكثر تأثيراً وأكثر انتشاراً من أي تقليد آخر. إن تدمير الجنس البشري بكامله تقريباً في عصر مبكر من تأريخ العالم بواسطة طوفان كبير، يبدو بأنه أثَّر في عقول الأحياء (أي الذين ظلوا أحياء بعد الكارثة)، ويبدو بأنهم نقلوا هذا التأثير إلى أولادهم ضمن إطار من الرعب النفسي الهائل بحيث لم يتمكن السلف في الوقت الحاضر تجاهُل مثل هذا الأمر المريع. إنه يظهر تقريبًا في كل حكاية ميثولوجية، ويعيش في أغلب البلاد القصيَّة وبين العشائر الأكثر وحشية».

غير أنه وجد بين الأجناس المنسية المتعلقة بالعائلة البشرية (هنود أورينوكو Orinoco) تقليد خاص بالطوفان ما يزال يانعاً وواضحاً، لا يقتصر على عشيرة واحدة لكنه يشمل دولاً مشتتة لتلك المنطقة الكبيرة وقد تداخلت بصورة مثيرة وغريبة مع الميثولوجية الكلاسيكية للعالم القديم.

ينطوي كتاب الدكتور «رايم» على خاصية هامة أخرى: توجد خريطة عالمية تشير إلى مساحات متعددة حيث تم تحديد أماكن التقاليد الخاصة بالطوفان. إن معظم التقاليد قد وجدت في آسيا وفي شمال القارة الأمريكية، لكن أستراليا وأوروبا وإفريقيا وجزر البحر الجنوبي تملك أيضاً تقاليدها الفردية الخاصة. هل يمكن اعتبار المخارج المشتركة لهذه التقاليد دلالة كافية بحيث يمكن النظر إليها كصيغ مختلفة لحادث مماثل واحد؟.

إن آسيا، وبالأخص بلاد الصين، تنطوي على التقاليد الأكثر مهابة المرتبطة بالطوفان. مثلاً يُحكى بأن طوفاناً هائل الحجم يتمتع بقوة تخريبية اجتياحية هائلة، قد حدث هناك عام ٢٣٠٠ ق.م تقريباً. استناداً إلى قصة الطوفان هذه التي سببها فيضان الأنهار الكبيرة، استطاع البطل الصيني أن ينجو من التدمير مع زوجته وثلاثة صبيان وثلاث بنات. ولكن لم تقتصر القصة على هذا الأمر. تقول الأساطير الإضافية التي عُثر عليها في البر الأكبر من الصين بأن جميع الصينيين هم من نسل مباشر يرتبط بجدهم الأول الذي يُدعى (نو – واه Nu-wah)، الذي اشتهر بعد تغلبه على فيضان كبير.

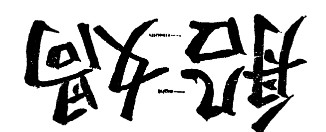
هناك نقطة مثيرة فعلاً بالنسبة لارتباط قصة الفيضان الصيني بالكتابة الصينية

القديمة التي تحتوي على كلمات، مقتصرة فقط على «نو – واه» وكلمة طوفان. مثلاً إن الكلمة الصينية التي تعني «الاستقامة» هي مزيج من الرمز التصويري للنعجة الموضوعة فوق الرمز التصويري الذي يُعَبِّرُ عن كلمة «أنا بالذات». قال لي علماء الثيولوجيا بأن هذا الخط له علاقة برغبة نوح لتبرير عمله تجاه ربه، كما يظهر ذلك بواسطة التقدمة التي أحرقها للإله بعد خروجه من السفينة.

يقول الباحث الدكتور إي. و. ثوينغ E.w. Thwing وقد كرَّس سنوات عديدة في الصين دارساً ومستقصياً حكاية نوح: «يملك الصينيون تدوينات وتقاليد خاصة بالطوفان الكبير. إن الأمر مثير فعلاً عندما نلاحظ استعمال كلمة (سفينة) وهي مطبوعة في الكتب الصينية وفي الجرائد في وقتنا الحاضر بأحرف قديمة جداً، بحيث تشكل من صورة «مركب» و«ثمانية أفواه»، مشيرة إلى أن السفينة الأولى كانت مركباً ينقل ثمانية أشخاص. ويتابع قائلاً: « عندما نُلقي نظرة على الكتب العتيقة الخاصة بالقصص القديمة والتقاليد، عثرت على قصة حول الجدِّ الأول (نو – واه). إنها قصة مثيرة فعلاً. فكلمة «نو» تعني «امرأة» وكلمة «واه» تعني «مزهرة». يبدو بأنَّ الجدَّ القديمَ كان الجدَّ الأول أنثوياً، غير أن الفحص الأكثر عمقاً للرموز، يبيِّن لنا بأن الصورتين الخاصتين بالفمين الصغيرين الموضوعين بجانب الاسم، لا تشيران إلى المعنى بل إلى الحالة المصوّتة للأحرف، أي أنهما يتجهان نحو الجد الأول الذكري والذي يُدعى «نو – واه»وهو الرجل القديم الذي نجا من غضب الإله في المركب.

هناك قصة صينية أولية، تعتمد على فكرة وجود نواشيان Noachian وارتباطه بولادة الصين. تشير القصة إلى أن تدمير العالم بواسطة الطوفان، قد سببه يونغ – كو Jung — ku، ولكن تمَّ تعميره من جديد على يد (نو – واه). ثم توالى على الحكم بعد (نو – واه)* ثلاثة رجال أسطوريين، وقد اعتُبروا أبطالاً، حكاماً أو ملوكاً. لقد أقاموا جسراً بين العالم القديم وبين السلالات الحاكمة الصينية الأولى الثلاث: سلالة هسيا Hsia وسلالة شانغ Shang وسلالة شو Chou. هل يمكن اعتبار (نو – واه) الصين هو نوح الخاص بالكتاب المقدس؟. هل هو الشخص نفسه؟.

لقد ظل اسم نوح حياً لآلاف من السنين عبر عدد وفير من القصص، حتى أن الاسم قد اعتراه تغيير طفيف من حيث التهجئة. وقد حصل ذلك استناداً إلى الرموز اللفظية المستعملة. ذاك هو مثلاً شأن أسطورة بلاد هاواي المتعلقة بـ «نو – أو Nu–u»، أي الإنسان العادل البار (الذي يتحرَّى الحق والعدل). يعتقد شعب الجزيرة بأنه حدث بعد مدة طويلة من خلق العالم، بأن تحوَّلَ الرجل الأول إلى إنسان شرير جداً، بحيث جعل ربَّه كين Kane يتخذ قراراً بتدميره وتدمير الأرض التي يعيش عليها. ولكن الإله الذي سئم من عملية الخلق، قرر بأن يسمح للرجل العادل البار «نو – أو» ولعائلته النجاة من غضبه. فسمح له بتشييد قارب كبير مع بيت فوقه. ثم طلب كين من «نو – أو» نقل زوجته ليلي نو أو Lili Nu–u وأولاده وجميع الحيوانات التي يريدها على المركب ثم ينتظر ويترقب الطوفان الكبير. عندما هطلت الأمطار، وارتفع مستوى المياه واختلطت المحيطات انجرفت وآ – هالو Waa–Halu لأيام متتالية. وخلال ذلك، تم تدمير جميع الجنس البشري. أخيراً ظهر قوس قزح كدليل لتسامح الإله كين الأبدي، إذ جعل بعد ذلك المياه تهدأ وتنخفض، وخاطب «نو – أو» وأولاده الثلاث طالباً منه الإقامة في الأرض لتعميرها وللتناسل.



(عند الجهة اليسرى) إن الكلمة الصينية (سفينة) هي مزيج من الرموز المختصة بالفم والرقم ثمانية، التي توحي بأن سفينة نوح كانت المركب الذي نقل ثمانية أشخاص (عند الجهة اليمنى) يعتبر الصينيون «نو – واه» جدهم الأول وبطلهم

لقد تم في بلاد الشرق اكتشاف أكثر من ثلاثين قصة أسطورية مرتبطة بالطوفان. ويدَّعي أهل أندونيسيا بأنهم يملكون بعض هذه الحكايات الأسطورية الأكثر إثارة وأهمية.

يقول باتاكس Battaks (من أهالي سومطرة) ما يلي: «عندما شاخت الأرض وأصبحت قذرة، أنزل الخالق – الذي يسمونه دِيباتو Debato – بهم طوفاناً لتدمير كل شيء حي. كان الإله دِيباتو غاضباً. استطاع الزوجان البشريان الأخيران اللجوء، ليس داخل سفينة نوح، ولكن على قمة أعلى جبل، بينما مياه الطوفان بلغت ركبهما. عندها ندم الإله دِيباتو – وهو سيد الجميع – على قراره الذي يهدف إلى القضاء على الجنس البشري قاطبة.

هكذا نمت وتطورت أساطير جميلة رائعة بين سكان أنغانو الأصليين، وهي جزيرة في غربي بلاد سومطرة، وبين بحر دياكس في سرواك في بورنيو. يتحدث توراتجس Toradjas: «لقد غمر الطوفان أعلى جبل، تاركاً عارياً فقط قمة تلة وافوم بباتو. هذه المرة لم يستطع أي زوج النجاة من هذه الكارثة. بالأحرى لم يستطع البقاء حياً بعد هذا الطوفان بين المخلوقات الحية السابقة سوى امرأةٍ حُبلى وفأرة حبلى».

كذلك أمريكا الشمالية، تشارك في مسألة الأساطير المتعلقة بالطوفان. إنها تملك ٤٦ أسطورة، جميعها تعالج موضوع الطوفان الكوني. يقول شيرمان كوليج، وهو شخص جليل بالنسبة لقبيلته (أراباهو): «منذ زمن طويل، قبل وجود أية حياة حيوانية على الأرض، كان سطح الكوكب مغموراً بالمياه، ما عدا قمة جبل عالٍ واحد. لقد جلس فوق هذا الجبل أراباهو الوحيد. كان فقيراً، وكان يبكي، وكان مبتئساً جداً. رأته الروح

العظيمة وأشفقت عليه. وبسبب هذه الشفقة، أرسلت من عنيانها، بطاتٍ ثلاثٍ إلى الهندي الفقير. أمر أراباهو البطات الغطس في أعماق المياه لجلب بعض التراب. قامت البطة الأولى بالمحاولة المطلوبة، كذلك فعلت الثانية، وغابتا طويلاً تحت الماء، ثم عادت كل واحدة بدون تراب. ثم جاء دور البطة الثالثة، ففعلت مثلها، ولكنها غابت لمدة طويلة جداً بحيث أصبح سطح الماء حيث توارت هادئاً وساكناً. اعتقد أراباهو بأن بطته قد ماتت، ولكنها عادت فجأة إلى سطح الماء حاملة بمنقارها بعض التراب. وما إن استلم أراباهو هذه الحفنة من التراب حتى بدأت المياه تنخفض تدريجياً. وفي وقت قصير انحسرت المياه عن الشط إلى مسافة بعيدة جداً بحيث لم يعد بالإمكان رؤيتها من أعلى قمم الجبال. لكن أراباهو الذي يتمتع بموهبة الحكمة الغيبية الخارقة، وبالقدرة العظيمة أدرك بأن المياه تُحيط بالأرض. إن أراباهو الذي خلصته البطات الثلاث، أصبح المالك الأوحد لليابسة. جعل الأنهار تجري وجعل الأشجار تنمو، كذلك جعل الثيران البرية والغزلان والأبقار الوحشية وجميع الأشجار والشجيرات وسائر الأشياء الأخرى القادرة على النمو بواسطة زرع الحبوب في الأرض.. جعلها جميعاً تحيا وتنمو .

في الجزء الغربي من الولايات المتحدة يملك «هود أتاباسكان» التقليد الذي يتحدث عن الآلهة التي استدركت وعدَّلت السموات التي أوشكت أن تهبط أرضاً. نتيجة لذلك هطلت أمطار منهمرة جارفة وابتلعت الأرض. أخذت الأمطار تهطل كل نهار وكل مساء. نام جميع الناس. سقطت السماء ولم تفعل ذلك الأرض. ذلك لأن الأرض لم يعد لها وجود. فاضت مياه المحيطات دفعةً واحدةً. غرقت جميع أنواع الحيوانات. وكل مكان تبلغه المياه تختفي الأشجار. لم يعد هناك وجود لليابسة. إن المياه تصل إلينا، يقولون. أصبحت المياه تبلغ كل مكان تماماً. اختفت الأشجار والأعشاب. واختفت الأسماك أو الحيوانات البرية أو الطيور. كذلك الكائنات البشرية وسائر الحيوانات، قد أُزيلت من الوجود. لم تنطلق الريح عبر بوابات الكون، ولم يوجد ثلج أو صقيع ولا مطر. لم يحدث رعدٌ ولا برق، إذ عندما تختفي الآشجار، لن توجد هناك أشجار معرضة للزوبعة. فبالتالي لن يحدث الرعد. ولقد اختفت الغيوم والضباب، والشمس أيضاً. لقد ساد الكون ظلامًا دامسًا جداً.بعد ذلك استيقظت الأرض بقرونها الطويلة العظيمة، واتجهت بعيداً نزولاً

نحو هذا الدرب، من جهة الشمال. وفي سيرها عبر الأماكن العميقة، ارتفع الماء حتى كتفيها. وعندما صعدت إلى أماكن أقل عمقاً، رفعت نظرها. توجد سلسلة من الجبال عند الجهة الشمالية حيث ترتمي تحت أقدامها الأمواج. وعندما بلغت وسط الكون، عند الجهة الشرقية تحت شروق الشمس، رفعت نظرها مرة أخرى. عندئذ وقع نظرها على قطعة أرض شاسعة قريبة من الشاطئ. استمرت في سيرها لمسافة بعيدة متجهة نحو الجنوب، ثم رفعت بصرها. كانت تسير تحت التربة. لقد جاءت من الشمال، واتجهت بسفرها نحو الجنوب لمسافة بعيدة، وانبطحت هناك. ناغايتشي Nagaitsche، الواقف على رأس الأرض. وجد نفسه منقولاً إلى الجنوب. وضع ناغايتشي رأسه حيث انبطحت الأرض، في المكان المطلوب. ثم أخذ ينثر الطين الرمادي بين عينيها، على كل قرن. ثم وضع على الطين طبقة من قصيبات القمح، ثم وضع طبقة أخرى من الصلصال. هكذا نصب عالياً العشب الأزرق والهشيم والأشجار. ثم قال: لقد انتهيت. لينبت الجبل هناك على رأسها، ويجب أن تعلو أمواج البحر لتلاطم اليابسة».

هكذا تمت ولادة الأرض من جديد.

يمكن العثور على عدد وافر لا يُحصى من الأساطير المتعلقة بالطوفان الكوني، تقريباً في كل زاوية من الكرة الأرضية، ولكن الجدير بالذكر أنها جميعاً تصف أصلاً الحدث نفسه.

«جميع هذه التقاليد تلقت تعديلاً خلال العصور». هذا ما قاله «الفريد رهونكل» في كتابه الطوفان، الذي يعتبر كتاباً نموذجياً من حيث معالجة الطوفان في عهد نوح. «لقد تأثرت هذه التقاليد بعادات شعوب مختلفة وبالبيئة التي عايشتها واتخذت من هذه البيئة اللون المحلي والأبعاد المتطرفة والغريبة بعض الأحيان، بحيث أصبحت نواة الحقيقة في عدة حالات محجوبة بجدية. غير أننا نستطيع تمييز الوقائع الجوهرية الخاصة بالكارثة الكبرى، التي تناقلها عبر الأجيال الابن من الأب. فهي وقائع قابلة للإدراك والتمييز. ويمكن تحديدها بصورة شاملة، استناداً إلى ثلاث مميزات رئيسة:

١ - يوجد تدمير كوني للجنس البشري ولجميع الأشياء الحية الأخرى بواسطة الماء.

٢- لقد استخدمت سفينة نوح أو استُخدم مركب كوسيلة للنجاة.

٣- لقد احتفظ ببذرة الجنس البشري لاستمرارية السلالة البشرية.

وجاز إضافة إلى هذه الملامح المذكورة أعلاه الخاصية التالية: جاز اعتبار شراسة الإنسان السبب الواضح لحدوث هذا الطوفان، رغم أن هذا السبب غير مذكور في جميع هذه التقاليد بصورة مألوفة.

- **شيوخ القبيلة والآلهة والملوك:**

هناك معلومات أخرى توازي أهمية المعلومات التي تخص أساطير الطوفان والتقاليد. فهي متوارية ضمن سلسلة النسب (جينالوجياً) المرتبطة بشيوخ القبيلة الذين ينتمون إلى عهد قبل الطوفان، كما تم تصنيف ذلك في كتاب سفر التكوين. هناك نقاد سخروا من هذه القائمة التي تخص العمالقة الذين عاشوا قبل عهد الطوفان، لأن الكتاب المقدس نسب إلى هؤلاء الرجال صفات وأبعاداً وهمية. ويفترض بأن «متوشالح» أحد الآباء، الأكبر سناً، قد عاش ٩٦٩ عاماً. كذلك كانت حيوات الآباء الآخرين قد تميزت بإطالة العمر وبالفرق الشاسع بالنسبة لجيلنا.

يميل النقاد إلى تكذيب هذا المقطع الخاص بسفر التكوين بصورة مطلقة إذ يقولون بأن مثل هذه الأبعاد وهذا الامتداد لا ينتمي إلى مجال الإمكانية أو المعقولية. لكننا نميل إلى الاهتمام إلى الأسماء وإلى عدد الآباء أكثر من اهتمامنا بطول العمر أو التعمير. ويبدو الأمر معقولاً لو كانت قصة الكتاب المقدس صحيحة ودقيقة. هذا يعني بأن نوح وأولاده استطاعوا أن يجلبوا معهم المعرفة الأساسية المرتبطة بالتأريخ وبالتكنولوجيا، أي تلك المعرفة التي وجدت قبل عهد الطوفان. هكذا سوف يشمل هذا التأريخ بلا شك عدد الملوك الذين عاشوا قبل عهد الطوفان، أي أولئك القادة الذين حكموا منذ بداية عهدهم حتى فترة التدمير. كذلك يبدو الأمر بَدَهياً فيما يتعلق بهذه الأسماء، إذ سوف تتلقى حتماً تعديلات لغوية، إن جاز أن تكون قد اجتازت لغات مختلفة. تلك اللغات التي نمت وتطورت في أماكن متعددة من العالم. هناك نقطة أخرى جاز اعتبارها، وهي التالية: إنها تعتمد على قيمة الأمم المتطورة من حيث الديانة والسياسة والمكانة الاجتماعية، وجاز أن

يكون الآباء الأولون قد بلغوا مرتبة الملك أو الإله. إذا اعتبرنا ذلك فرضية مقبولة، هذا ظلَّ يعني بأن التاريخ قد تقيَّد لزاماً بقوائم أخرى تخص الآباء العشرة، وربما ذكرت أسماؤهم استناداً إلى علامات وإشارات مختلفة.

والمعلوم أن المصريين وأهل بابل يملكون مثل هذه القائمة التي تنطوي على عشرة ملوك يخصون عهد قبل الطوفان:

	شيوخ التوراة	آلهة مصر	ملوك أرض كنعان
١	أدم	بتال	ألوروس
٢	شيث	رع	ألوياروس
٣	أنوش	سو	ألمولون
٤	قينان	سيّ	آمنون
٥	مهللئيل	أوزيريس	أمغالاروس
٦	يارد	ست	داؤونوس
٧	أخنوخ	حور	أيدوراكوس
٨	متوشالح	توت	أمبسينوس
٩	لامك	ما	أوتيارتيس
١٠	نوح	حور	كزيستوتروس

والحال أن نوحًا هو بطل قصة الطوفان المذكورة في التوراة. ويعتبر «كزيسوتروس» أحد الأحياء المشهورين بعد الكارثة المذكور في الحكاية الكلدانية المماثلة. وإذا ما قارنا بين القائمة التي تخص الملوك الكلدانيين الذين ينتمون إلى عهد قبل الطوفان مع الآباء الذين يخصون العهد نفسه يتبين لنا وجود تماثل مدهش بين القائمتين. ومثل هذا التماثل يؤيد فرضيتنا القاعدية. إن اسم الملك الثالث «ألمولون» يعني الإنسان، وإنَّ اسم شيخ القبيلة الثالث هو أنوش ويعني الأخلاق، أي الجنس البشري الضعيف. ويعني الاسم الرابع في

القائمة الكلدانية امنّون صاحب حرفة أو صانعاً فنّياً. أما الاسم الرابع قينان فهو اسم شيخ القبيلة الرابع، ويعني في اللغة السينتية أيضاً صاحب حرفة. ويعني اسم إيدو راخوس، وهو اسم الملك السابع البابلي حسب التصنيف المذكور أعلاه «حامل كشفة الغيب الإلهي الذي تتجلى له أسرار السماء والأرض». ويعني اسم أخنوخ المذكور في قائمة التوراة تقريباً المدلول نفسه. وقد ذكر اسم الملك الثامن أميسينوس في القائمة السومرية الأصلية تحت اسم سوكارلام، وهذا الاسم يشبه من حيث المدلول اسم لامك، وهو شيخ القبيلة التاسع.

وأخيراً يُعتبر الاسم العاشر «كزيسوتروس» استناداً إلى «بيروزوس» (برشوحا) الكاهن الأعلى للهيكل البابلي «بِل – مردوخ»، فإن اسم البطل الذي خلّص الجنس البشري من تدمير رهيب، استناداً إلى القائمة الملكية السومرية، يُعرف باسم أوتنابشتيم، وقد كُتبت العبارة التالية جانب اسمه: «بعد ذلك غمر الطوفان اليابسة». إن ملحمة جلجامش الشهيرة، تسرد القصة نفسها بصورة جوهرية.

وبما أنها كتبت على ألواح من الصلصال قبل آلاف السنين بالنسبة لما كتبه موسى حول حكاية نوح المذكورة في كتاب سفر التكوين، أثار المتشككون السؤال التالي: هل اقتبس موسى الوقائع الحسية من أهل بابل بحيث وضع قصته ضمن صيغة جديدة ومرتبطة بالمأساة نفسها؟.

وبعد أن يُقدِّمَ الكاتب ميرل أنْجِرْ Merrle Unger مقارنة بين القصة البابلية والقصة المذكورة في سفر التكوين (وهذا الكاتب هو مؤلف كتاب علم الآثار والعهد القديم) يشير إلى النقاط التالية:

١ - كلتاهما تؤكدان على أن الطوفان تم تخطيطه بصورة إلهية.

٢- كلتاهما متفقتان على أن الكارثة الوشيكة الحدوث تمَّ إفشاء سرِّها إلهَياً إلى بطل الطوفان.

٣- كلتاهما تنسبان الطوفان إلى شراسة الجنس البشري.

٤- كلتاهما تؤكدان على أن بطل الطوفان طلب منه إلهياً، تشييد مركب عملاق لصيانة الحياة.

٥- كلتاهما تتحدثان عن تحرير البطل وعائلته والخلاص من الكارثة.

٦- كلتاهما تشيران إلى الأسباب الفيزيقية للطوفان.

٧- كلتاهما تحددان مدة الطوفان، رغم وجود اختلاف من حيث تحديد الزمن.

٨- كلتاهما تذكران اسم مكان اليابسة للمركب.

٩- كلتاهما تتحدثان عن إرسال الطيور بعيداً، وفي فترات معينة للتحقق من انخفاض المياه.

١٠- كلتاهما تصفان أعمال الصلاة والعبادة التي قام بها البطل بعد خلاصه.

١١- كلتاهما تشيران إلى النعيم الذي أنعمه الله على البطل بعد الكارثة.

ذكر «رهونيكل» في كتاب الطوفان «استناداً إلى هاتين الحكايتين، لقد حدث الطوفان بسبب انتشار العنف على الأرض. وكلتاهما ذكرتا قياسات السفينة (الطول والعرض)، مع أن كل حكاية تختلف عن الأخرى من حيث التفاصيل. وكلتاهما تذكران جميع الحيوانات التي نُقلت إلى داخل سفينة نوح. تقول الحكاية البابلية بأن الطوفان دام سبعة أيام، وتقول حكاية الكتاب المقدس بأن ركوب السفينة دام سبعة أيام. وتذكر الحكايتان الغراب واليمامة، وقد أرسلا بعيداً عن سفينة نوح. وتضيف الحكاية البابلية إلى ذلك السنونو.. ويتمثل قوس القزح المذكور في سفر التكوين بواسطة الجواهر العظيمة لعشتروت. ويوجد في الحكايتين التعهد التالي: لن يحدث طوفان كوني أبداً على الأرض مرة أخرى ولن يدمرها».

إن الأساطير والتقاليد المتراكمة المرتبطة بالطوفان، إنما تسرد الحكاية المتعلقة بالكارثة المخيفة التي ابتدأت بأمطار اجتياحية فجائية وباجتياح مجاري المياه. وقد تعالت صرخات الغرقى من بشر وحيوانات و صرخات حادة تخترق الفضاء، عند النزع الأخير تتحدث القصة عن العواصف المفزعة والزلازل الأرضية الكارثية والضربة القاضية



المخيفة والمجهودات اليائسة والمأساوية التي قام بها الإنسان والحيوان لبلوغ سفينة نوح. فكم حاولوا التعلق بالسفينة كي ينجذبوا فوق قوة المياه المتدفقة التي لا تلين ولا ترحم.

لقد توقف الإنسان عن الحياة. الإنسان الذي أصبح خارج السفينة الكبيرة، كذلك الزواحف الطيّارة والديناصورات الشامخة والجمال الذي لم يسبق له مثيل الذي يخص عهد قبل الطوفان.. جميعها انقرضت عن وجه البسيطة. كان التدمير شاملاً وفجائياً. في يومنا الحاضر ما زال العلماء المختصون بعلم معايش الإنسان في الأزمان القديمة مندهشين أمام هذا الواقع الكارثي، حيث دفنت في جوف التكوينات الصخرية بقايا لحياة أولية تناهز الآلاف المؤلفة من السنين. هذه البقايا التي تخص الكوكب الأرضي، ما قبل عهد الطوفان، ولا يمكن بكل بساطة التحدث عنها إلا استناداً إلى قصة الطوفان.

إن مثل هذا الاختفاء الذي لم يسبق له مثيل لحضارات بكاملها، ولنباتات وحيوانات متنوعة جداً، وجب أن يترك آثاراً، وهذه الآثار تنتظر العقل الباحث الخلاق لاكتشافها. ولكن أين هي موجودة هذه الاثار؟.

بالتوافق مع الحقائق المناسبة، نستنتج بأن الطوفان كان حتماً مرفقاً برياح عنيفة، أي تلك الرياح التي قذفت بالمياه الهائجة إلى مستويات منخفضة بالنسبة لمستويات اليابسة ثم تابع دورانه المائج نحو الأعلى، وصولاً حتى قمم أعلى الجبال. هكذا غمرها الطوفان جميعاً وبصورة كاملة. لقد جعلت الكارثة الأرض ترتعد وتهتز. ولم يسبق لهذا الحدث مثيل من حيث فداحة الأضرار بمثل هذا المقدار الهائل، الذي أصاب الكوكب الأرضي الذي نعيش عليه. لقد كان الارتفاع مريعاً جداً إلى درجة أصبحت الجبال الكبرى المنتصبة على الأرض مثل جبال روكي والآندز والهيملايا والألب محتفظة حتى الآن بآثار الكارثة كأصداف البحر وأشياء أخرى تخص حياة المحيط التي وُجدت منذ آلاف السنين. إن صوتها الصامت سبق تسجيلات المصريين والبابليين بسنوات عديدة. ولكن هل يمكن تحديد المدة الزمنية لهذه المناقشة العلمية بصورة دقيقة؟. يعتقد علماء التطور بوجود حقبة تتجاوز الملايين من السنين. ويذهب علماء الجيولوجيا المختصون بالطوفان إلى القول بأن الأمر مقتصر على آلاف من السنين.

على أيِّ حال إن مثل هذا الطوفان الكوني وبمثل هذا المقدار الهائل، خلَّف وراءه كميات رسوبية ضخمة في قاع الكتل المائية المكونة حديثاً. وبما أن الطوفان يعتبر عالمياً، بات من الممكن اكتشاف بقايا مثل هذه الرواسب في أماكن متنوعة. وهذا ما حدث تماماً !. لقد قدّر علمياً بأن مساحة أرضية توازي ٧٥٪ هي رسوبية في الطبيعة، مع بعض المساحات التي تحتوي على مواد رسوبية أخرى وأقل شأناً.

هذا مما يفسِّر سبب وجود الطبقات الرسوبية الهائلة في الولايات المتحدة، وبالأخص في كاليفورنيا وسهل كولورادو، بينما تمتلك الهند أعمق راسب معدني. إذ يبلغ ٦٠٠٠٠ قدماً عمقاً.

إن نظرية النشوء والتطور (أو النشوء والتكامل) تذهب إلى القول بأن هناك تآكلاً بطيئاً مع انجراف أعقبه تراكم تدريجي، يناهز الملايين من السنين. ومثل هذه النظرية تبدو في هذا المجال معقولة بصعوبة. كتب العالم الجيولوجي الدكتور هـ.ج. كوفن من معهد أبحاث علم الأرض في بورين سبرينس في ميتشيغان في كتابه «الخلق creation» إن مثل هذه المناهج الصيبرية شأن الانغماس التدرجي والتراكم البطيء للطبقات الرسوبية بواسطة التآكل والانجراف، إنما تبدو غير ملائمة بالنسبة لحدوث الكميات الكبيرة من المياه وبالنسبة للمواد المترسبة بواسطة الريح.

هناك مساحات مجاورة لا تحتوي على مواد كافية للقيام بالتحلل والتفسخ بمثل هذا المقياس، لكن الطوفان الذي يتمتع بانتشار كاف لتغطية اليابسة جميعاً، والعاصفة التي تتميز بالعنف الهائل بحيث تُحرّك وتُهيِّج المياه العكرة والأتربة الكافية لإحداث مثل هذا الانتقال، هذه الكميات الضخمة من المواد الرسوبية، نحو مسافات كبيرة، ومع التوصل إلى تغطية الوهاد بصرف النظر عن العلو أو اتساع الأراضي الطبيعية المجاورة.

إزاء مثل هذا الانتقاد، يميل العلماء إلى الاعتقاد ولو بتحبس وبطء، بوجود حالات استثنائية بالنسبة «للنظرية الرسوبية التدرجية». مثل أن جبال روكيز لا توافق بالتأكيد نظرية العلماء التي تبدو خلاف المعقول. هناك توجد آثار لتموجة المياه المترسبة والعدد الذي لا يُحصى من الحيوانات البحرية المنقرضة بالإضافة إلى المستحاثات التي لا تحمل أية

علامة تبضع أو انحلال. إنها جميعاً تجسد الملامح المدهشة التي تؤكد أنها لم تترسب ببطء وبطريقة هادئة، بل بالأحرى بخشونة وبصورة فجائية وبعنف، كما لو أنها تلقت كارثة أرضية مريعة.

من الخطأ القول بأن الصمت لا يملك صوتاً. إنه يملك صوتاً بالفعل. إن العظام القديمة تتكلم بأصوات واضحة، وحيوانات ما قبل التاريخ تحكي قصصها من خلال الأقفاص الزجاجية الموجودة في المتاحف حتى أصوات مستحاثة الأصداف الصغيرة والحيوانات الفقرية الصغيرة التي تم اكتشافها مترسبة في الصخور.

إن الباحث إيمانويل فيليكوفسكي الذي يُعتبر خلافياً نظراً لآرائه غير التقليدية، قد فحص وجود السمك في الصخرة الرسوبية. فكانت نتائجه مؤيدة تماماً لنظرية الكارثة: «عندما تموت السمكة يعوم جسمها على السطح أو يغوص في الأعماق، ويتم التهامه بسرعة، عادة بفترة ساعات بواسطة سمكة أخرى. غير أن مستحاثات السمكة التي اكتشفت في الصخرة الرسوبية، تبدو وقد احتفظت بجميع عظامها بحالة سليمة، أسراب كبيرة من السمك تغطي مساحات واسعة وتناهز البلايين من النماذج، قد تم اكتشافها في حالة نزاع ولكن دون أن يظهر عليها أيُّ أثر لعدوان الحيوان المفترس المعروف باسم جلاّل (ويعيش على بقايا الموائد المطروحة والجيف كالنسور والضباع).

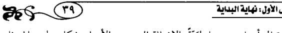
هناك عدة اكتشافات تشبه مثل هذه الاكتشافات. يُقدِّر العلماء بوجود ٨٠٠٠٠٠ مليون هيكل سمكي. لقد تم اكتشاف هذه الكمية الهائلة في التكوين الأرضي المعروف باسم كارو في إفريقيا الجنوبية.

كتب العالم الجيولوجي هوغ ميللر حول صخور ديفونين التي تُغطي معظم جزر بريطانيا، ما يلي: «في هذه المرحلة من تاريخنا، لقد سببت كارثة مريعة تدميراً فجائياً لجميع الأسماك في المنطقة التي تبلغ على أقل تعديل مائة ميل، وربما أكثر. وهناك أيضاً مصطبة مشابهة في أوركني، وكذلك في كرومارتي. وتحتوي على بقايا سمكية مبعثرة تبرز بصورة أكيدة علامات الموت العنيف. تبدو الأشكال متشنجة وفيها تعوّج ويبدو الذنب في أحوال عديدة ملتفاً حول الرأس بحيث يبرز العمود الفقري بشكل واضح، بينما تتجه

الزعانف نحو الأسفل كما لو أن السمكة لاقت حتفها بعد إصابتها بحالات من التشنج».

إن المساحة التي وصفها ميللر ليست صغيرة. إنَّها تُغطي عشرة آلاف ميلاً مربعاً من اليابسة، وهي تقدم برهاناً واضحاً عن بدهية القوة التدميرية الكبرى. ويصف العالم الجيولوجي هاري س. لاد عضو الدراسة الاستطلاعية الجيولوجية في الولايات المتحدة: «يوجد أكثر من مليون سمكة بمعدل ٦ – ٨ إنشات طولاً وقد ماتت ضمن مساحة أربعة أميال مربعة في قاع الخليج». يقول إدوين هـ. كولبرت في حديثه عن اختفاء الديناصورات: «إن الانقراض الكبير الذي أزال من الوجود جميع الديناصورات، الصغير والكبير معاً في جميع أجزاء العالم، وفي الوقت نفسه، سبب نهاية سلالات متنوعة خاصة بتطور الزواحف، يعتبر الحدث الأكثر بروزاً وأهمية في تاريخ الحياة وفي تاريخ الأرض.. إنه الحدث الذي تحدَّى جميع المحاولات بشأن التفسير الشافي المُرضي». حصل ذلك كما لو أن ستاراً قد أُسدل فجأة على خشبة المسرح بينما كانت جميع الأدوار الرئيسة تقوم بها الزواحف. هذا ما قاله جورج غيرولد سمبسون، وهو أحد العلماء الأكثر اعتباراً المختص بعلم معايش الإنسان في الأزمان القديمة: «بالأخص الديناصورات، بعدد كبير وبتنوّع محيّر ومثير للدهشة، تُبيّن لنا الظهور المكرر الفجائي لمجموعة مماثلة ولكنها تتميز بنوع جديد حيث لا يوجد أثر للديناصورات وحيث يوجد عدد آخر من الزواحف بحيث لا يُحصى عددها، وأجزاء رئيسة سكنتها حيوانات لبونة».

لقد كرستُ سنوات عديدة في البحث عن قصة الطوفان. ولقد جمَّعت المعلومات المختصة بهذا الموضوع وكانت ممتلئة بالمعلومات المرتبطة بهذا الحدث غير القابل للتفسير. مثلاً لقد تم اكتشاف أثر مثير في ألمانيا بين رواسب الفحم الحجري الأسمر، حيث يوجد مزيجٌ من النباتات والحشرات وغيرها من الحيوانات التي تخص جميع المناطق المناخية في العالم. لقد عثر عليها جميعاً مجتمعة في قبر واحد مشترك، وعثر كذلك على بعض الأوراق المترسبة التي ما زالت تحتفظ بطراوتها، وما زالت طبقة الكلوروفيل خضراء. هكذا استُخدمت الطبقة الخضراء كعلامة أثناء القيام بعمليات الحفر والتنقيب عن الآثار القديمة. وقد عثر كذلك على حشرات ملوَّنةٍ بشكل جميل وتنتمي إلى المناطق



الحارة وما تزال أجزاء جسمها طرِيَّةً بالإضافة إلى وجود الأمعاء بشكل سليم. إن مثل هذه البقايا سوف تتلقى فساداً وانحلالاً أو تبدلاً في اللون بفترة تناهز بضع ساعات بعد الموت، ويتم ذلك لو ماتت في ظروف عادية. إن احتفاظها بهذه الحالة الطبيعية في مكان بعيد عن الهواء وفي وسط معقم، هذا يعني بأنها وجدت في هذا المكان بصورة فجائية وبشكل متكامل.

إن الحدث المريع نفسه الذي دمَّر أنماط الحياة غير المؤذية، قد دمَّر أيضاً قريبات العظايا plesiosauas وسواها من الزواحف البحرية الكبيرة. كانت البحار الهائجة متوحشة جداً وعدوانية جداً بحيث لم تسمح لها بالبقاء. كانت غير قادرة على النجاة فلقيت المصير نفسه. بالنسبة للكائنات الأرضية كذلك وقع في مصيدة هذا «الموتالزواحف» المجنحة العملاقة المعروفة بالزواحف الطيارة، حيث كانت تبلغ بسطة الجناحين عشرين قدماً. كذلك ساهمت السماء في هذه التضحية. بكل بساطة لا توجد أية طريقة أخرى لتفسير موت هذه النماذج الفردية. لقد قضى عليها الموت جميعاً ودفنها داخل تجويفات عميقة في كل قارة من الأرض تقريباً. لقد كانت النهاية التي شملت كل كائن حيّ. وحاول العلماء حديثاً القيام بتجارب محاولين افتعال النهج الدفني السريع الذي يعتقد بأنه سبب الاحتفاظ بالبقايا بشكل سليم. وإذا كانت هذه التجربة غير ممكنة، فسوف يحاولون في نهاية الأمر اكتشاف الطريقة الطبيعية التي كانت مسؤولة عن حدوث مثل هذا الإبقاء والصيانة.

لقد وصف الدكتور كوفن بعض التأثيرات في تجارب أشرف عليها العالمان «زانغل وريتشاردسون». قال موضحاً: «لقد حاول العالمان تقييم معدل التحجر المتعلق بالصخور الغضارية السوداء الموجودة في بنسلفانيا في ولاية إنديانا، إذ وضعا أسماكاً ميتة في أقفاص وقائية مصنوعة من أسلاك معدنية ثم وضعت هذه الأقفاص داخل طبقات ترابية سوداء في أعماق المستنقعات في جنوب الولايات المتحدة، في لويزيانا. ذلك لأن هذه الطبقات الترابية السوداء تشبه المواد الرسوبية التي اشْتُقَّت منها الصخور الغضارية الداكنة. لقد أُصيب العالمان بالدهشة عندما لاحظا الأمر التالي. إن الأسماك التي يتراوح

وزنها بين نصف وثلاثة أرباع رطل انكليزي قد تناقص حجمها، وقد تخلعت جميع المفاصل تماماً بمدة لا تتجاوز ستة أيام ونصف اليوم!. عادة إن الانحلال لمثل هذه الحالة من تخلع المفاصل في هذه المدة السريعة لم يكن يتوقعها أحد. وإذا كانت هذه التجربة ذات قيمة علمية فهذا يعني بأن الأسماك التي دفنت قديماً كانت تحتوي على الأوكسجين والبكتيريا أصلاً».

هذا يعني بأن البقايا المتحجرة التي عثرنا عليها حالياً، لا يمكن أن تكون إلا نتيجة عملية دفن، وقد حصلت بواسطة طوفان تشنّجي ارتجاجي وقاهر.

ولكن توجد هناك أشياء أخرى بالإضافة إلى عالم المستحاثات، أي عالم عظام الكائنات العملاقة والكائنات الصغيرة الصفيفة من السمك. لقد حصلت اكتشافات مثيرة فعلاً مرتبطة بالبقايا الفحمية التي تمتد بشكل مرئي تحت سطح الكرة الأرضية. لقد حاول العالم «كوفن» تقييم العوامل المتنوعة التي أدت إلى تكوين الطبقات الأرضية الخاصة بالفحم الحجري، فتوصل إلى اكتشاف بعض الوقائع الشيقة. قال هذا العالم في تعليقه حول عرق الفحم الحجري ما يلي: «إن سماكة المواد النباتية المتفحمة القادرة على إنتاج قدم واحد من الفحم إنما ترتبط نسبة هذه الحاجة الإنتاجية إلى عدد العوامل شأن نموذج المواد النباتية المتفحمة وكمية الماء في المجال النباتي ونمط الفحم. جاز القول بأن المعدل لهذا المقدار هو عشرة أقدام استنادًا إلى هذه القاعدة يتطلب عرق الفحم الحجري الذي يبلغ ثلاثين قدماً سماكة ضغطاً يساوي ٣٠٠ قدماً للمواد النباتية المتفحمة. هكذا تكون كمية عرق الفحم الحجري التي تبلغ ٤٠٠ قدماً وليدة ٤٠٠٠ قدماً من المواد النباتية المتفحمة..

وهذا شيء مثير حقاً. يوجد في أي مكان من العالم العدد القليل من المستنقعات الصغيرة الخاصة بالمواد النباتية المتفحمة والتي تبلغ ١٠٠ قدماً ولكن الأغلبية منها تبلغ أقل من ٥٠ قدماً. هناك نظرية معقولة بديلة تقول: لقد تمَّ تركيز المادة النباتية وتجميعها داخل مساحة معينة بواسطة قوة ما، وبلا شك إن هذه القوة هي المياه. إن المفهوم المتعلق بالطوفان الكوني الذي سحل وبرى الغابات والغطاء النباتي ما قبل عالم الطوفان، وقد

جمعها بشكل حصائر كبيرة من الأنقاض المتناثرة المنجرفة والتي أُلقيت في أعماق البحار أو تحت الأراضي المغمورة، يعتبر مثل هذا المفهوم الأكثر عقلانية بالنسبة لهذه المشكلة الخاصة بالانتشار الواسع وذي السماكة الموحدة الخاصة بطبقات الفحم الحجري».

إن السؤال الأكبر هو التالي: متى حدث ذلك؟.

إن نظرية العصر الجيولوجي المعتمدة على التراكم البطيء لا تنطوي على الجواب. هذا أمر بيّنٌ ومفهومٌ بالبديهة. ولكن إذا كنا غير قادرين على تفسير الظاهرات الخارقة المتعددة كجزء من نظرية العصر الجيولوجي، التي يمتد تاريخها إلى الملايين من السنين، هذا يعني بأنه لزم وجود علامات طريق أخرى بحيث توجهنا إلى شرم زمني أكثر منطقية وواقعية. جاز أن ينطوي علم الآثار (الأركيولوجيا) على الجواب، أو على الأقل جاز أن يتضمن دلالات يمكن الوثوق بها بحيث تؤدي إلى جواب مقبول.

بات من المؤكد بأنه لا يمكن تحديد تاريخ التدمير الكبير بشكل صحيح ودقيق، ذلك لعدم وجود تدوينات متوافقة مع هذا البعد الزمني لإثبات حقيقة وجود الوقت التاريخي الذي يرجع إلى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد. هناك من يعتبر بأن بقايا الحضارات إنما هي موجودة مركزياً حول بلدة أريحا في فلسطين، ويرجع ذلك إلى ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد تقريباً، بينما تعتبر جميع التواريخ الأخرى مبهمة في نظر الانتقاد العلمي، ذلك لأنه لا يوجد علم موثوق به للقيام بنهج خاص بتحديد التاريخ. ربما استطعنا التيقن من الأزمنة التأريخية التي تخص بزوغ الثقافات العالمية القديمة. لقد أعطانا السومريون أقدم نصوص تأريخية معروفة. ورغم أن هذه التسجيلات تنقلنا إلى الوراء إلى ٣٠٠٠-٣٥٠٠ ق.م، رغم ذلك يظل منشأ المؤلفين لغزاً. هذه التدوينات، صدرت من مكان ما، ولكن هذا كل ما يوافق عليه علماء الآثار. ولا أكثر من ذلك. يقول الدكتور صموئيل نوح كرامر، وهو باحث وبروفيسور في دراسة المدنية الآشورية في جامعة بنسلفانيا: «لقد كانت الأزمنة المحددة بالنسبة للتاريخ الأوّلي للسومريين محاطة دائماً بعدم التيقن، ولم تكن مؤيَّدةً بتجارب كافية وبروائز مستندة إلى نهج جديد في الإشعاع الكربوني الهادف إلى تحديد الزمن التأريخي لحدوث الشيء. وجاز الاعتقاد بأن الشعب الذي كان يُدعى السومري لم

يصل إلى المنطقة إلا حوالي ٣٠٠٠ ق.م.

إن التاريخ المصري لا يملك الجواب كذلك

نعتقد أن بداية السلالة الحاكمة لم تحدث إلا بعد ٣٤٠٠ ق.م ولم تتجاوز ٣٢٠٠ ق.م. هذا ما قاله العالم بالآثار المصرية القديمة الشهير «هـ. ر. هول»، غير أن «أ. سكارف» ذهب إلى تحديد التاريخ بـ ٣٠٠٠ ق.م. ويمكن اعتبار براهينه القياسية صالحة، وهي أكثر احتمالاً من التاريخ الخاص بالسلالة الحاكمة الأولى الذي يقع بعد ٣٤٠٠ ق.م وليس قبلاً.

أما أهل الصين فقد حددوا التاريخ بـ ٢٢٥٠ ق.م. وهو زمن البداية بالنسبة لتاريخهم، بينما يقدر علم ترتيب الحوادث التاريخية الخاص بالتقليد التوراتي الزمن بـ ٢٤٤٨ ق.م، أي في السنة التي حدث فيها الطوفان. جميع هذه التواريخ تقريبية. هذا ما استنتجه علماء الآثار، بالإضافة إلى الخلفيات المختلفة. صحيح أن استعمال مناهج الإشعاع الكربوني الحديثة لتحديد زمن حدوث الأشياء كانت فعالة جداً، ولكن كل هذه الأزمنة التاريخية النهائية ما هي إلا نتيجة افتراضات وادّعاءات (أي افتراضات مع إصرار). بالأخص عندما نقترب من علامة ٣٥٠٠-٣٠٠٠ ق.م.

إن الحضارات التي أحاطت بهذه السنوات، إنما تجسِّد لغزاً فيما يتعلق بمصدرها. وإني أعتبر حتى مصدر المؤلف المصري المعروف باسم «كتاب الأموات» غامضاً، وذلك استناداً إلى أيام دراساتي المختصة بعلم الآثار القديمة المصرية.

يقول «واليس بدج» في كتاب الأموات: نبات البردي لآني Ani: «إن البداهة المشتقة من الكتلة الضخمة من المواد الجديدة التي تنسب إلى جميع الاكتشافات الهامة الخاصة بمدافن المصطبة والأهرام التي ذكرها «م. مسبيرو»، والتي تُنسب أيضاً إلى النصوص الدينية الأولية، مثل هذه البداهة تثبت بأن جميع النصوص الأساسية المذكورة في «كتاب الأموات» إنما تُعتبر أقدم من المرحلة التي تخص مينيس (مينا)، وهو ملك مصر الأول. بالفعل هناك بعض الأقسام تخص مرحلة قبل الحكم بالوراثة.

إن النصوص الأولية تشير إلى أنه قد تم تأليفها ومراجعتها أيضاً أو نشرها في زمن يسبق بكثير النسخ التي تعرفنا عليها لاحقاً. واستناداً إلى فقرات عديدة واردة في النصوص المدوَّنة باللغة الهيروغليفية، والتي تتحدث عن أهرام إينوس (وهو الملك الأخير للسلالة الحاكمة الخامسة حوالي٣٣٣٣ ق.م، ثم «تيتي وبيبي الأول» «وميتهي يمسات وبيبي الثاني» ملوك السلالة السادسة، حوالي ٣٣٠٠-٣١٦٦ ق.م).

استناداً إلى كل هذا، يبدو أن ذلك التاريخ الموغل في القدم حيث كان الكتاب أو النساخ مضطرين وغير قادرين على تفهم النصوص بسهولة، أي النصوص التي كانت أمام أعينهم، بهذا لا يمكن الوصول إلى تحديد خاص بترتيب الحوادث تاريخياً فيما يخص الفنون وحضارة مصر. ويقول مستنتجاً في النهاية: «إنه أمر مستحيل على الإطلاق».

هل بإمكانك تصوُّر الكتَّاب أو النساخ عام ٣٣٠٠ ق.م الذين ينسخون النصوص الجنائزية دون أن يفهموا معناها أو مصدرها؟ لقد كانت الأشياء التي ينقلونها مجرد استذكار مبهم بالنسبة لهم.

لقد تلقى البروفسور «آرثور بوندنبرجيه»، وهو بروفسور في مسح التصوير الفوتوغرافي في جامعة ولاية أوهايو خلال عودته إلى الولايات المتحدة، رسالة مثيرة من جورج «ف. دودوّل»، وهو عالم فلكي حكومي متقاعد ومدير مرصد أدوليد في أستراليا الجنوبية. لقد سحرته الرحلة التي قام بها إلى شرقي تركيا، إذ اكتشف هناك بقايا سفينة نوح الأسطورية على قمة أرارات. لقد قدَّم لنا المعلومات الباعثة على الاستغراب. لقد كتب ما يلي: «إني مهتم بصورة خاصة بهذه النتيجة المثيرة. ذلك لأنني كنت أهتم خلال ستة وعشرين سنة خلت بالبحث الاستقصائي الشامل المتعلق بعلم الفلك، بخصوص الانقلاب القطاعي للحالة الخسوفية، استناداً إلى قصّةٍ قديمةٍ تتعلق بملاحظات مرتبطة بمركز الشمس استناداً إلى الانقلاب الصيفي والانقلاب الشتوي خلال الثلاثة آلاف عاماً الأخيرة. لقد اكتشفت قوساً، وهذا القوس بالذات يشير إلى طبيعة قوس أسيٍّ ينتمي إلى محور الأرض بعد حدوث تبدُّلٍ فجائي انطلاقاً من المركز العامودي الأولي وصولاً إلى انحناء يساوي ٥، ٢٦ درجة. ثم عاد إلى حالة التوازن ملتزماً الانحناء الحالي وهو ٥، ٢٣

درجة، خلال مرحلة التعاقب ٣١٩٤ سنة وصولاً إلى ١٨٥٠ سنة بعد الميلاد».

ثم تابع قائلاً: «في تاريخ تبدِّل محور الأرض ٢٣٤٥ ق.م، سوى التاريخ الذي يخص الطوفان المدوّن في الكتاب المقدَّس، ونتوصل بالاستنتاج إلى اعتبار حكاية الكتاب المقدس المتعلقة بالطوفان كحادث كوني بالإضافة إلى قصة سفينة نوح، يشكلان الحقيقة التاريخية».

ولكن جاز طرح السؤال التالي: هل الكائنات البشرية القليلة التي ظلت حيّة بعد الطوفان وهل قائدها الذي يدعى نوح أو نو- أوه أو نو - اه (استناداً إلى المفهوم التقليدي) كانت فعلاً بدائية جداً؟. وهل كانت تحمل معها المعرفة الكافية التي كانت تخص عهد ما قبل الطوفان بحيث تمكنها من القيام بمبادرة سريعة لتحقيق حضارات جديدة، أي تلك الحضارات التي انبثقت فجأة من مكان مجهول، وبصورة فورية، بعد حدوث الطوفان.

لقد انتشرت مناقشات عديدة حديثاً لتحديد حجم السكان الذين عاشوا قبل الطوفان وكانت النتائج ترجيحية. غير أنه وجب أن تظهر لنا الوقائع الحسية بحيث تفسح لنا المجال كي ندرك كثافة الجنس البشري الذي عاش قبل الطوفان. بصرف النظر عن وفرة الدلالات التاريخية والأسطورية الخاصة بالطوفان الكوني هناك عدد وفير من العلماء الذين يعتقدون برسوخ أن حكاية الكتاب المقدس وحكاية الكلدانيين والقصص الأخرى المتعلقة بالطوفان إنما تصف فقط فيضانات محلية. في اعتقادهم أن البشرية كانت ما تزال في مرحلة الطفولة ومرتبطة انفعالياً بالشرق الأوسط بموضع الولادة، وبرأي العلماء، إن هؤلاء البدائيين يتصوَّرون في الواقع بأن الفيضان المحلي قد ابتلع فعلاً العالم بأسره. لقد كانت اتصالاتهم بدائية جداً، وكانت مداركهم محدودة جداً، بحيث يعتبرون الوجود مقتصراً فقط على العراق أو بلاد ما بين النهرين. إنها نظرية بسيطة ولا تتضمن تفسيراً للانتشار الكوني بتقاليد الطوفان.

في كل مكان، يستمر كوكبنا في استخراج مقاطع ونتف من المعلومات بحيث تشير إلى الكارثة الشاملة. لكن الحضارات التي أُزيلت من الوجود كلياً بواسطة الأمواج

الاجتياحية غير قادرة على سرد الحكاية، سوى الحكاية الصامتة. وحتى البلايين من الآثار المتحجرة والمصنوعات اليدوية التي يتم اكتشافها يومياً لا تسرد سوى الجزء اليسير من القصة الكاملة.

إن التكوين الجديد للأحداث التي حدثت قبل الطوفان الذي دمَّر الجنس البشري بكامله، لا يمكن تحقيقه دون الإسهام المشترك لعلم الآثار والجيولوجيا والتاريخ التقليدي والتاريخ التوراتي ومزجها جميعاً في رواية واحدة. هناك فقط التمعن بالقصة التوراتية الخاصة بالطوفان، المقرونة بالاكتشافات المرتبطة بعلماء البيولوجيا والخبراء المختصين بالنمو السكاني في القرن العشرين، مثل هذا التمعُّن فقط قادر على إرشادنا وإفادتنا في أمر تشييد فرضيتنا. إننا نجد في الإصحاح الخامس من سفر التكوين إحصائيات لها علاقة بعصر ما قبل الطوفان الخاص بفترة الآباء. استناداً إلى هذه الرواية يعتبر آدم الرجل الأول الذي عاش ٩٣٠ سنة، ويعتبر شيث شيخ القبيلة الثاني ٩١٢ سنة، ويعقبه أنوش عاش ٩٠٥ سنين، وأخنوخ ٣٦٥ ومتوشالح ٩٦٩ ولامك شيخ القبيلة التاسع عاش ٧٧٧ سنة، بينما نوح البطل الذي نجا عبر مياه الطوفان الغدَّارة، بلغ عمراً يناهز ٩٥٠ سنة.

أليس هذا شيئاً مدهشاً ووهمياً؟. أجل إذا ما قورن هذا الأمر إلى امتداد العمر الحالي، غير أنه هناك علماء مستعدون ليتقبلوا هذا الأمر كحقيقة.

يقول الدكتور هانز سيلييه مدير معهد الجراحة الاختبارية في جامعة مونتريال: لقد جمع الطب ذخيرة من المعرفة التي ستساعدنا حسب اعتقادي كنقطة انطلاق لدراسة أسباب العصر القديم. إذا استطعنا اكتشاف أسباب تقدم العمر، هذا يعني بأنه لا يوجد سبب طبي يُقنعنا بأن العلم غير قادر على اكتشاف طريقة عملية لإبطاء المنهجية التصييرية أو حتى جعل العمر راكداً (أو معطلاً عن الحركة).

توجد عدة عوامل قادرة على الإسهام في تحقيق طول العمر بالنسبة للسكان الأولين لهذا الكوكب. بلا شك كان الإنسان يتمتع بحيوية أكبر بالنسبة لحيويتنا الحالية، وإلا ما استطاع أن ينتصر ويتغلب في نزاعه لأجل البقاء، وإن الاكتشافات العلمية تقودنا إلى

الاعتقاد بأن عالم قبل الطوفان كان يتمتع بمناخ جيد وبمساحات مزدهرة والتي تبدو الآن صحراوية. وكانت جميع نباتات المناطق الاستوائية تنمو في المناطق القطبية، وكانت النباتات تنمو وتزهر على تربة غنية عذراء. لكن المياه الهائجة للطوفان عطلت الطبقة العليا من قشرة الأرض وجعلتها راكدة. وعندما وصل الطوفان إلى نهايته تحولت المياه إلى أحواض عملاقة وتعرف الآن بالمحيطات. لقد مزَّقت الطبقة الخصبة من اليابسة واقتلعتها من سطحها وقذفتها نحو المحيط تاركة الأفراد من البشر الذين ظلوا أحياءً بعيداً عن هذا الفناء ومزوَّدين ببقية من الأغذية التي كانت متيسرة ومتاحة للاستعمال قبل الطوفان، ذلك لأن البقية القليلة، لم تدم طويلاً على الكوكب الأرضي. لقد تغيَّر كل شيء بما فيه المصدر القاعدي للأغذية التي يحتاج إليها الجنس البشري لأجل البقاء.

في يومنا الحاضر، تبدو أحوالنا أسوأ مما كانت في الماضي. إن جيشنا البشري الفاسد والمنحط يعيش الآن معتمداً حبات الفيتامين بينما الأغلبية من سكان الكوكب تخلد إلى النوم مساءً والمعدة فارغة، وما زال المعدل المقول هو خمسة أولاد للعائلة الواحدة استناداً إلى القاعدة الكونية، على اعتبار أن الإمكانية التناسلية للمرأة لا تتعدى الثلاثين والخامسة والثلاثين من عمرها. ولم تكن المدة طويلة جداً عندما كان المعدل المقبول هو ثمانية أو عشرة أو اثنا عشر ولداً، في بلدان عديدة. وإذا اعتبرنا النقطة التناسلية لدى الأم التي كانت تعيش في عهد قبل الطوفان تساوي نصف عمرها كما هو شأن المرأة الحالية نصل إلى الاستنتاج الرصين التالي: تكون مدة حمل الأولاد ٤٠٠ سنة لكل امرأة، وهذا أمر عادي.

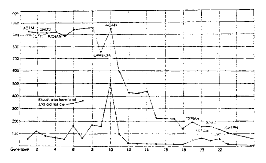
نظراً للمعدل الذي يتعلق بالأم التي تعيش زمان نوح والمرتبط بالقدرة التناسلية نستنتج ما يلي: عندما نقول إنَّ العائلة الواحدة تملك ثمانية عشر أو عشرين ولداً، هذا يعني أن مثل هذا الافتراض معقول. قياساً إلى علم الأنساب المذكور في سفر التكوين واستناداً إلى القول بأن عشرة أجيال قد وجدت منذ آدم حتى نوح، يمكن عندئذ تصور نمو وتطور الحالة السكانية قبل الطوفان بالشكل التالي:

الجيل الأول	٢
الجيل الثاني	١٨
الجيل الثالث	١٦٢
الجيل الرابع	١٤٥٨
الجيل الخامس	١٣١٢٢
الجيل السادس	١١٨٠٩٨
الجيل السابع	١٠٦٢٨٨٢
الجيل الثامن	٩٥٦٥٩٣٨
الجيل التاسع	٨٦٠٩٣٤٤٢
الجيل العاشر	٧٧٤٨٤٠٩٧٨

استناداً إلى هذا المعدل يمكن القول بأن الازدياد السكاني السريع بات أمراً طبيعياًبمقتضى التقرير الذي نشر عام ١٩٥٩ الذي يقر بصورة غير مباشرة بالفرضية المرتبطة بالعدد السكاني المكثف الذي ينسب إلى ما قبل الطوفان.

يقول التقرير: خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، بلغ عدد السكان بليون واحد. وفي عام ١٩٣٦ بلغ بليونين، وفي عام ١٩٥٧ و١٩٥٨ حصل تزايد بمقدار تسعين مليون أي بمعدل مرتين بالنسبة لسكان فرنسا. ومن المتوقع أن يصبح العدد ٣ بليون نسمة عام ١٩٦٢. إن تزايد النمو السكاني في البلاد غير النامية هو مثير للدهشة. هناك ازدياد سنوي بمعدل ٢٪ أو أكثر. ويحصل ذلك في معظم هذه البلدان، وفي بعضها تكون نسبة النمو ٣٪.

إنها إحصائيات شيقة ومثيرة للاهتمام، ولكنها قديمة إذ يبلغ عدد السكان حالياً ٤ بليون، ولقد حصلت زيادة ٢ بليون منذ عام ١٩٣٠. هكذا يتبين لنا وجود معدلات



مرتفعة من الولادة ومعدلات منخفضة من الوفاة (أي أن نسبة الولادة أعلى من نسبة الوفيات). وهذه المسألة مرتبطة بمرحلة قبل الطوفان، مما يجعلنا نعتقد بأن العالم المنسوب إلى قبل الطوفان كان مأهولاً بالجنس البشري الذي غمر عملياً الكوكب بأسره.

قدّم «وليم ر. فيس» في مجلة «العلم الطبي والكتاب المقدس» تخطيطاً بيانياً، بحيث يشير إلى التناقض القائم بين عهود شيوخ القبيلة قبل وبعد الطوفان، ويقول أيضاً إن دراسة هذا الرسم البياني تبين لنا بشكل مذهل بأنه قد حدث شيء ما، هامٌ للغاية، ومثير فعلاً بالنسبة للأرض وبالنسبة للإنسان في زمن الطوفان. ويبدو بأن هذا الأمر قد عدَّل المخرج المشترك لطول عمر شيوخ القبيلة.. هل جاز القول بأن الحالة المناخية أو حالة أخرى منسوبة إلى عهد ما قبل الطوفان قد أهلت لطولة العمر لدى الإنسان؟. ربما استطاع البحث العلمي المستقبلي إلقاء الضوء على هذا التساؤل.

يقول جون س. ويتكومب معلقاً، بعد فحص كل الزوايا الممكنة المختصة بازدياد العدد السكاني الحاصل قبل الكارثة الكبرى: نحن واثقون بأن التقدير الخاص بالعدد السكاني الذي يساوي بليون نسمة على اليابسة في زمن الطوفان إنما هو أمر يخضع للتحفظ. جاز أن يكون هذا العدد أكبر بكثير. إن العدد السكاني الذي يبلغ هذا المقدار من الوفرة لزم أن يكون منتشراً ومتجاوزاً حدود سهول بلاد ما بين النهرين (أي بلاد العراق القديم).



لقد ظلت حيَّة ذكرى تدمير الكرة الأرضية لمدة خمسة آلاف سنة وولدت عدة أساطير وتقاليد، نعايشها في وقتنا الحاضر، بلا شك أن نوح وعائلته هم المسؤولون عن تكاثر الأساطير الموجودة حالياً. إن الذكريات الخاصة بأحداث قبل الطوفان إنما هي ملونة بتجاربهم الفردية الخاصة وبتأويلاتهم وباستذكارهم الشخصي المرتبط بتجربتهم الراعبة. إن كل دقيقة تتغير في كل قصة مع مرور السنين ثم تظهر الاختلافات بشكل أقوى، بينما تظل الصيغ المتعددة حيَّة عبر أجيال متعاقبة بحيث تُحكى هذه الذكريات ويتم سردها من جديد فينقلها الأب إلى الابن، وعندما ترك أخيراً نسل نوح منطقة أرارات مسافراً نحو الأراضي أو المقاطعات الداخلية الموجودة خلف الساحل.. فبرحيلهم هذا أخذوا معهم قصتهم المتطورة.

هناك أشياء عديدة احتفظ بها الأحياء بعد الطوفان داخل سفينة نوح الوحيدة، ولكن لزم طرح السؤال التالي: هل احتفظ هؤلاء الأحياء بجميع المحتويات خلال هجرتهم على متن السفينة؟. هل احتفظوا بممتلكاتهم اليومية التي تخص المهاجر؟ ألم يضطروا إلى التخلص منها والاحتفاظ ببعضها لأجل السفر إلى أراضي جديدة فيختارون بعضها ويتركون بعضها الآخر منها في السفينة؟. إن أي شيء لا يتوافق مع السفر في المحيط جاز أن يترك جانباً. وهناك عدة أشياء أراد المهاجر أن يجمعها، لكنه لم يستطع إرجاعها إلى شكلها الأول إطلاقاً. هذا ما يقوله أرنولد توينبي في كتابه «دراسة التاريخ». هناك عدة أساطير تشير إلى عدد الأشخاص الذين ظلوا أحياءً بعد الطوفان، ويذكرون العدد ثمانية. وإذا كان هذا الأمر صحيحاً، فهذا يعني بأنه أمر غير ممكن. ذلك لأن هذه الفئة الصغيرة من الأحياء المتميزين المضطربين غير قادرة على توليد مرة أخرى جميع مظاهر المحيط التكنولوجي الذي كان منسوباً لحضارة ما قبل الطوفان. يتعلق المجتمع التكنولوجي بالطبع، بعدد وفير من السكان وذلك للمحافظة عليه. والمعلوم أن درجة الحضارة التي جاز أن تؤسسها من جديد العائلة البشرية التي ظلت حية بعد الطوفان كانت منخفضة جداً، وكانت مقتصرة فقط على هذه العناصر التكنولوجية التي تساعدها ضمن مواردها

المحدودة على اليابسة الجديدة. بالتأكيد لم تكن توجد معرفة ضعيفة في عالم ما قبل الطوفان، وذلك نظراً إلى التقاليد العديدة التي تحدثنا عن وجود عصر كان يتمتع بمعرفة رفيعة وعالية قبل حدوث الكارثة الكونية. إن الإغريق الذين ورثوا المعلومات المأثورة من حضارات الشرق الأوسط، كانوا واعين لهذه الإمكانية المتعلقة بالحضارات الأولية التي تم تدميرها عبر أسباب طبيعية. كتب فيلو الاسكندري (٣٠ ق.م - ٤٠م) «بسبب التدميرات المتواصلة والمتكررة بواسطة المياه والنار، لم تتلق الأجيال اللاحقة من الأجيال السابقة ذكرى النظام وتعاقب الأحداث».

يقول أفلاطون تيماوس، وهو يدوّن ما قاله الكهنة المصريون لجدِّهم الأول سولون: «لقد حدثت وسوف تحدث مرة أخرى عدة تدميرات للجنس البشري. وعندما يتم تدمير الحضارة عليكم البداية في كل شيء مرة أخرى، كالأطفال». كذلك السومريون الذين يعتقدون أنهم أسسوا الحضارة الأولى بعد الطوفان يقرون بوجود حضارة قبل الطوفان، وقد سبقت زمن حضارتهم. في ١٩٢٢ اكتشفت بعثة ولد بلاندل في لارسا من أور ويدعى حالياً هذا الاكتشاف باسم الموشور ولد، المعروض حالياً بمتحف أشمولين في أوكسفورد، يحتوي الشكل الموشوري على تاريخ مكتوب بيد كاتبه يعرف باسم نور - نينسوبور تقريباً عام ٢١٠٠ ق.م. في هذه الرواية، يدون قائمة الملوك العشرة الذين يخصّون عهد قبل الطوفان وينهي كتابته بكلمات حزينة: «واكتسح الطوفان اليابسة ونكبها».

لقد أقرَّ السومريون، ولاحقاً البابليون ثم الأشوريون، بعهد قبل الطوفان، معتبرين إياه مصدر الأدب الأعلى. لقد سجل ملك بابلي مطالعة الكتابات التي تخص ما قبل الطوفان. أما أشور بانيبال الذي أنشأ المكتبة الكبرى في نينوى، فإنه كذلك يعتمد في مراجعه على التسجيلات الكبرى التي تخص زمن ما قبل الطوفان. وجب التذكير هنا بأن سبب تقدِّم الحضارات ما قبل وما بعد الطوفان بنسبة أسرع من نسبتنا الحالية، هو التالي: كان أهل هذه الحضارات يستعملون قدرة أدمغتهم كلياً بينما نحن نستعمل استناداً إلى علماء الفيزيولوجيا سُدْسَ إمكانيتنا الدماغية.

في غواتيمالا دوَّن شعبُ مايا القديم في كتابه المقدَّس بوبول فوه Popol Vuh: كان الرجال الأولون يملكون معرفة هائلة بالغة الأهمية. «كان باستطاعتهم معرفة كل شيء، وفحصوا الزوايا الأربعة والنقاط الأربعة للقوس وللسماء وللوجه الدائري للأرض». كذلك أهل الصين الأقدمون كانوا يقرّون بهؤلاء ويعتبرونهم عمالقة، فيقولون: هم رجالٌ أطول منا مرَّتين، وكانوا يسكنون عالم الغبطة. لكنهم فقدوه لأنهم لم يتقيدوا في حياتهم بقوانين الفضيلة.

هناك عدة عناصر تكنولوجية تتميز بالحذاقة التقنية والدراية في العمل ذات منشأ مجهول ظهرت ودامت عبر سنوات عديدة، وكانت دائماً مجهولة من قبل العلم الحديث، نظراً لصفتها الملغزة. ولكن يجب ألا تكون مجهولة، ويجب أن يتم اكتشاف حقيقتها مع تطور الاكتشافات الحديثة في صدد تكوين حضارتنا الحضرية ندرك أصلاً بأن العلم تقدم دائماً عن طريق النهج العلمي. وعبر هذا النهج، هناك المراقبة الحسيّة الطويلة والتفكير المتواصل والوافر المتعلق بالمناهج المكررة، والتي أدت أخيراً إلى الاكتشاف العلمي. وفي الوقت نفسه أخذت التكنولوجيا ما اكتشفه العلم ثم طبقته أو حوَّلته إلى نمط صالح للاستخدام. إن العلم هو اكتشاف المناهج التعبيرية الطبيعية، إن التكنولوجيا هي تطبيق الاكتشاف لأغراض عملية.

كلاهما العلم والتكنولوجيا قد أحرزا تقدُّمًا ليس عبر المصادفة، ولكن بالأحرى عبر درجات متزايدة من التحذلق والحنكة في أمور الدنيا. في العلم، كل اكتشاف أصبح قاعدة للبحث المؤدي إلى اكتشافات حديثة، بالطريقة نفسها، اتخذت التكنولوجيا مبادئ علمية حديثة وطبقتها تجاه تطورات جديدة، والتي أضيفت إلى تطورات أخرى التي أدت إلى تطورات أكثر مهارة وتحذلقاً. بكلمات أخرى، كل مستوى من المهارة والحنكة، كان مرتبطاً نسبياً بالمستويات السابقة. إن هذا التقدم الناتج عن المزج بين العناصر الأساسية لخلق تأثير كلي أكبر من التأثيرات المنفصلة الخاصة بالأجزاء الأصلية، يعرف بعبارة تآزر الفعل أو السينر جيسم (أي توافق العناصر في العمل لإحداث أثر أعظم من هذه العناصر إذا عمل كل واحد بمفرده).

في عهد التطور التكنولوجي الذي نألف له أكثر من سواه، وهو عهدنا، يُعتبرُ تآزر الفعل أو السينر جيسم هو العامل المسيطر السائد وليست المصادفة العمياء. لم يحاول التقنيون الأولون في الحضارة الغربية القيام بالتجربة، ولم يعثروا على التنمية والتطور عن طريق الصدفة. بالأحرى كان يوجد ارتباط بين الأفكار وحالات الشبه التي يجسدها الاكتشاف العلمي.

كما أن التطور التكنولوجي الناتج عن تأثير تآزر الفعل أو السينر جيسم، وهو الصفة المميزة لحضارتنا. كذلك كان التطور التكنولوجي للحضارة الأولية المتقدمة. فهنا استنتاج ممكن وتصور معقول. إننا نجد في رواية لسفر التكوين، وفي تدوين تاريخي ما يلي: كانت الحضارات ما قبل الطوفان تملك الإمكانية الكامنة الضرورية بحيث استطاعت تحقيق التقدم عن طريق تآزر الفعل أو سينر جيسم لتحقيق التطور التكنولوجي على أقل تعديل بمستوى تحذلق وحنكة التكنولوجيا التي تخصنا.

لا يقول لنا علماء الآثار شيئاً عن عهد ما قبل الطوفان. ذلك لأن معظم علماء الآثار يغفلون ويستهينون بالحقبة التاريخية التي سبقت زمن الطوفان، كذلك يعتمدون في نظريتهم على الفكرة التالية: كان الطوفان حدثاً محلياً ولا يستحق كل هذا الاهتمام بالنسبة للتاريخ العالمي. هكذا إننا نحاول من جديد تشييد هذه المرحلة الهامة من التاريخ عن طريق التدوينات التأريخية والمستندة إلى التسلسل النسبي جينايولوجي المذكورة في المنهل الثالث من المعرفة التاريخية في التوراة.

بصرف النظر عن الانتقاد الذي انهال على التوراة، يوجد اتجاه حدِّي بين علماء الآثار للنظر إلى الكتب التاريخية كمراجع موثوق بها. حتى القرن الثامن عشر كان يوجد عدد قليل من العلماء الذين يشكون باثتمانية التوراة، بوصفه الكتاب التأريخي الذي يخص العصور القديمة. إن الخلق وقصة الطوفان وإقامة الإسرائيليين لمدة قصيرة في الصحراء إنما هي جميعاً حقائق معتبرة. ولكن الأشياء قد تغيَّرت فيما بعد. لقد نقب عصر العقل السيئ السمعة جدران الإيمان وفتح فيها الثغرة. ومع بزوغ نظريات القرن التاسع عشر الخاصة بالتطور والمادية، أصبحت رواية التوراة التاريخية مقتصرة على الميثولوجيا فقط

(أي علم الأساطير)، واعتبر عصر التنوير كتاب التوراة مجموعة من الحكايات الأسطورية المؤلفة بصورة جيدة وشيقة ومستنبطة بشكل أخاذ.

يقول «هاري م. أورلنسكي» في كتابه «إسرائيل القديمة»: «إن الأعمال البطولية للآباء أمثال إبراهيم وإسحق ويعقوب قد تم وصفها في كتاب سفر التكوين باستخفاف، واعتبرت أسطورة بكل بساطة. وكان وجود موسى مشكوكاً في أمره، وساد الاعتقاد بأن يوشع لم تكن له علاقة بالغزو الاسرائيلي لأرض كنعان. أما بالنسبة لداود وسليمان فقد كانت هناك مغالاة في القيمة... ».

إن مثل هذا الموقف السلبي تجاه التوراة قد انعكس في الأزمنة الحديثة مثلاً في مؤلفات الفيلسوف المشهور برتراند رسل، وفي مؤلفات المؤلف ر.ج. كولينغوود. ويتابع أورلينسكي قائلاً: أما بالنسبة ليومنا الحاضر، وبدرجة ملحوظة، ترجح البندول نحو اتجاه آخر. من المؤكد بأن المؤرخين المعاصرين لا يقبلون كل جزء من التوراة. ولا يعتبرون كل جزء منه واقعاً حسياً لا بدّ منه. غير أنهم قبلوا أغلبية المعلومات التوراتية الاستدلالية التي تشكل وثائق تاريخية مرتبطة بالأزمنة القديمة. هذه الوثائق التي تتخذ معنى جديداً وصلة وثيقة بالموضوع عندما يتم تحليلها على ضوء مصادر خارجة عن التوراة، وقد تم اكتشافها حديثاً. بالفعل حتى الأجزاء الأسطورية من التوراة، تعتبر الآن بوجه عام، انعكاساً موثوقاً به للواقع الحسي، كذلك من الناحية التجريبية والمنطقية. ورويداً رويداً يميل الاعتقاد إلى الاعتماد على الحكايات التوراتية واعتبارها صحيحة بدلاً من أن تكون خاطئة كما حدث ذلك بالنسبة للرؤية القديمة المتعلقة بالمعلومات الاستدلالية التوراتية، وأصبح الأمر مؤكداً فعلاً وبصورة أوضح عندما ظهرت بدهية قاطعة صادرة عن مناهل خارج التوراة بحيث تبين وتبرهن نقيض الاعتقاد السائد.

يقول البروفسور «وليم ف. ألبرايت» عالم الآثار ذو الشهرة العالمية في جامعة جونز هوكينز في بالتيمور: «يشكل الكتاب المقدس الآن على أساس بشري، جزءاً من كل أكبر، بالنسبة للأجزاء الخارجية التي جاز أن يرتبط بها. إن لغات وحياة وعادات شعوبه وتأريخها وأفكارها الأخلاقية والدينية، قد برزت بطرائق لا تحصى بواسطة الاكتشافات الأركيولوجية».

استناداً إلى هذه الموافقات الخاصة بالكتاب المقدَّس، بوصفه الوثيقة التاريخية، نسمح لأنفسنا بالاقتراب من الفصول الأولى من كتاب سفر التكوين، وذلك لتحديد مسار ونمو وتطور الجنس البشري والإنجازات التقنية التي توافقت معها. لا يوجد شيء آخر قادر على اختراق تاريخ مرحلة ما قبل الطوفان سوى ذلك حتى المناهج الاستدلالية الحديثة لا تُفيدنا في هذا المجال، ذلك لأنها قابلة للتطبيق فقط في ميدان المصنوعات اليدوية، وليس في مجال الحكايات. ومثل هذه التقنيات الاستدلالية غير قادرة على نقلنا إلى الوراء أكثر من ٥٠٠٠ سنة. إن من أشهر الخبراء العالميين في مجال المناهج الاستدلالية الحديثة هو الدكتور «ي. ف. ليبّي» الذي نال جائزة نوبل حول أبحاثه المتعلقة بمادة الكربون ١٤ وبالنهج التاريخي الاستدلالي المرتبط بهذا الاكتشاف، قد أصابته الدهشة عندما تبيَّن له أن الأمر لا يختلف عمّا ذكرناه. لقد وجد نفسه محاصراً أمام محدوديات العلم.«إنك تقرأ تصريحات في كتب بحيث تقول بأن هذا المجتمع أو هذا المنظر الأثري إنما يرجع تاريخه إلى ٢٠٠٠٠سنة خلت، ويتبين لنا بالأحرى أن هذه الأرقام وهذه العهود القديمة غير معروفة بدقة. بالفعل لقد تم ترسيخ التاريخ الاستدلالي الأول بتيقن للمرة الأولى عندما أصبح الأمر متعلقاً بزمن السلالة المالكة الأولى بمصر.

يحدثنا كتاب سفر التكوين بأن قايين وشيث قد ولدا عام ٤٩٦٩ ق.م و ٤٩٢٤ ق.م. وهكذا بعد هذا التعاقب الزمني، حصل الحدّ الأعلى لجنسين متميّزين. كان كل جنس منعزلاً عن الآخر، علماً بأن الجنس الخاص بقايين (أي الابن الأكبر لآدم وحواء) والجنس الخاص بشيث، قد تطورا بشكل مختلف كلياً من حيث أنماط المعيشة. إن التفحص الدقيق للأسماء وللهويات المنسوبة إلى القادة العشائريين المتعددين أو إلى شيوخ القبيلة الذين حكموا الجنسين، يجعلنا نتفهم بصورة أفضل إمكانات الجنسين، وتؤدِّي بنا هذه المعرفة إلى النتيجة التالية: يوجد تنافر شديد مع الرؤية التي تعتبر رجال الكهف ذوي السلوك الفظ، أشخاصاً متوحشين يسحبون زوجاتهم من شعرهن على قارعة الطريق وصولاً إلى النعيم الزوجي.

وبمقتضى المعلومات المسجلة، نعلم بأن قايين عاش في **أرض تُدعى نود** (أي مكان

المنفى). يشير سفر التكوين بأن الأرض التي أقام فيها لم تخضع له. ولا توجد هناك معلومات إضافية متعلقة بالسنوات الأولية، ما عدا الزمان المتعلق بولادة الابن أخنوخ عام ٤٧٨٤ ق.م. لقد جمع قايين نسله وشيد مدينة تدعى مدينة أخنوخ. وذلك بين هذا التاريخ المذكور وتاريخ موت قايين عام ٤٠٥٩ ق.م، وقد عُرفت هذه المدينة بهذا الاسم بعد ولادة ابنه الأول. هناك عدة ملاحظات تعتمد على التعمير الخاص بالمدينة الأولى، الذي يستوجب تطوراً رفيع المستوى من ناحية الرياضيات ومن حيث ضبط واستعمال وتحريك مواد البناء كالأحجار والخشب والمعرفة الكافية في هندسة العمار، كذلك المدينة تفترض البداية الخاصة بنمط معين من التنظيم السياسي والاجتماعي، وليس فقط بشأن المرحلة البنائية المعمارية، ولكن أيضاً بشأن التعهد اللاحق والانتشار. بعد أن جمع قايين نسله في مكان الإقامة الواحد، نصب نفسه حاكماً أول على رجاله، وعندما لقب المدينة باسم ابنه الأكبر أسس السلالة الحاكمة المتعلقة بالحكام الذين سوف يخلدون اسمه على مرّ الزمن.

كان أخنوخ القاييني الثاني، ويفترض مولده في عام ٤٧٤٨ ق.م. ولا نعرف إلا القليل عن أمور الأشخاص الذين ينتمون إلى نسب قايين فيما عدا الأسماء والجزء المتعلق بالنسب كما تم تسجيله في سفر التكوين الإصحاح الرابع، غير أن هذه العادة قديمة إذ كانت تُعطى أسماء للأشخاص وذلك لتكريم الذكرى ولتحديد الصفة الاعتبارية أو الاحتفاء بذكرى معينة أو أحداث كبرى وقعت في حياتهم. من خلال أسمائهم نستطيع إدراك بعض الشيء حول كل واحد ينسب إلى نسل قايين، إذ اسم أخنوخ يعني الشخص الذي يكرس نفسه أو (المخلص الوفي، المنتسب إلى التعليم السري، الأستاذ)، وتعني الكناية بأن أخنوخ هو رجل المعرفة، وبالأخص المعرفة الصوفية. بالفعل، لقد أعطى قايين اسماً لمدينة بعد أن اقترح أخنوخ الفكرة التالية: يجب أن لا تكون المدينة مركزاً سياسياً فقط بل وجب أن تكون أيضاً مركزاً دينياً، ويكون اسم المدينة أخنوخ، ويكون أخنوخ الكاهن الأعلى بحيث يملك حرمه الخاص ونظامه القرباني.

لقد ولد عيراد بن أخنوخ حوالي عام ٤٥٩٩ ق.م ومات حوالي ٣٦٨٩ ق.م، ويعني

اسمه «رجل البلد أو من الحضر، وأمير المدينة». بالطبع كانت المدينة التي حكمها عيراد هي مدينة أخنوخ. وقد كان عرشه وراثياً من جده الذي مات خلال حياة عيراد. هذا يعني بأن سلالة الحكم الخاصة بقايين ظلت على حالتها سليمة على الأقل حتى الجيل الثالث.

ظهر على خشبة المسرح محويائيل ابن عيراد عام ٤٤١٥ ق.م، ويعني اسمه «المبتلى من الله». وإننا نجهل الطريقة التي أُصيب بها هذا القاييني، هل انتابته المصيبة بواسطة المرض أو الانحراف البنيوي أو بكارثة طبيعية. لكن سجل السيرة يشير إلى أن حالته كانت نتيجة لعقاب.

ويعتبر متوشائيل الشخص التالي الذي ولد عام ٤٣٦٧ق.م وتوفي حوالي ٣٣٩٨ق.م ويعني اسمه «الرجل العظيم أمام الله». ولامك ابن متوشائيل حوالي عام ٤١٨٠ق.م وتوفي حوالي ٣٤٠٣ ق.م بينما تشير القصة التي نسجت خيوطها حول والده بأنه كان مزيجاً من الجنسين. ولكن هذا الأمر لم يؤثر على حالة نمو وتطور الجنس القاييني والجنس الشيثي كجنسين منفصلين. غير أنه بعد حصول اختلاط بين الجنسين حصلت فوراً استباحة القانون (أي عدم الاعتراف بحلال أو حرام)، وأصبحت الاستباحة مشتركة ضمن نمو وتطور المجتمع، وبصورة مباشرة. ويعني اسم لامك «الشاب القوي، البطل».

وتشير السيرة بأنه لم يكن بطلاً فقط بل مجرماً كذلك والرجل المتعدد الزوجات الأول. إن إعلانه عن الجريمة، يتخذ نمطاً شعرياً غنائياً. وفي زمانه انبثقت وازدهرت الفنون. كانت زوجته الأولى تدعى عادة وكانت فنانة ويعني اسمها «الزخرف، التزيين، الأناقة» ويعني اسم زوجته الثانية صِلة الوجه الظلي، صانع الصوت أو صانعة الصوت، اللاعبة»، وربما كانت الممثلة الأولى. وقد تم وصف الأفراد الآخرين من العائلة كما لو أنهم يقيمون داخل الخيام مثلاً «عنده قطيع، مشرد، مغامر». لا شك بأن القينيين أصبحوا يتنقلون كثيراً ويتجولون في الأرياف باحثين عن أرض لأجل قطعانهم وباحثين عن أنماط عديدة متعلقة بالفنون. لقد استوحى الرعاة من الوحشة في الحقول، محاولين إيجاد طرائق

جديدة في الغناء. لكننا لا نستطيع تأكيد ذلك، غير أن يوبال وهو الابن الثاني لعادة كان الأب الأول لكل من يجيد استعمال الجنك والأرغن، مشيراً بذلك إلى بدايات الفن الرفيع للأداة الموسيقية مثل الوتر والهواء معاً (الجنك هو معزف كبير يعزف عليه بالأنامل).

مع وصول توبال قايين ٣٨٦٠ ق.م ابن صلة دخلت التكنولوجيا عالم ما قبل الطوفان يسميه سفر التكوين ٤: ٢٢ مدرب في كل صناعة تخص النحاس الأصفر والحديد. بالطبع إن إنتاج المعادن خطوة هامة في نمو وتطور الحضارة، لأنه يفسح المجال لبلوغ أنماط أعلى من التكنولوجيا، ولصناعة أدوات أكثر حذقاً ومهارة وصناعة معدات آلية كذلك. يفترض الحديد معرفة تقنيات استخراج المعدن الخام وتنقيته (أي تقنية استخراج الصخر أو التراب الذي يحتوي على جواهر معدنية التي تستخلص بالتعدين) ويستوجب النحاس الأصفر المعرفة في النحاس الأصفر وفي مادة الزنك أو التوتياء وفي عملية الاختلاط التي تؤدي إلى إنتاج خليطة معدنية.

إن المحترف الماهر في المعادن أو الصانع المحترف هو الشخص الذي يستخدم المطرقة ويقطع ويصقل المعادن. هكذا يتم تشكيل الأدوات المعدنية. وإن اسم توبال قايين يشير إلى هذه الأدوات المختلفة. إنه يعني النحاس الأصفر لقايين، الأسلحة النحاسية الصفراء، معالجة الأسلحة المعدنية في الصنعة، علماً أن توبال قايين كان أول من احترف صناعة الأسلحة المعدنية في التاريخ وإنتاج الأسلحة يفترض الحرب طبعاً أو على أقل تعديل، يفترض التهديد بالحرب.

في عام ١٩٦٨ استخرج الدكتور كوريوت ميغورشيان K. Megurchian من الأرض ما يعتبر أقدم مصنع معدني في العالم في مدزامور في أرمينيا. هنا منذ ٤٥٠٠ سنة كان يعمل شعب مجهول ينتمي إلى عهد ما قبل التاريخ. كان يستخدم ٢٠٠ مصهراً وينتج تشكيلة من الأواني والسكاكين وسنان الحراب والخواتم والأساور..الخ. كان العمال المحترفون في مدزامور يستخدمون رشاحة الفم والقفازات عندما كانوا يتعاملون مع الأسلاك النحاسية والتوتياء والحديد والذهب والمنغنيز، ومع أربعين نوعاً من البرونز، وكان ينتج صهّار المعادن مجموعة من الدهانات المعدنية والسيراميك والزجاج . وكانت

أغلب الاكتشافات التي عثر عليها في غير محلها المناسب متعلقة بالملاقط المصنوعة من الفولاذ ويرجع تاريخها إلى ألف سنة الأولى قبل الميلاد. وقد تم اكتشاف الفولاذ مؤخراً وتبين بأنه يتميز بدرجة عالية من الصنعة، وقد تم التحقق من ذلك بواسطة المنظمات العلمية في الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا.

يعتبر جان فيدال Jan Vidal، وهو صحفي فرنسي في مجلة العلم والحياة في شهر تموز ١٩٦٩ عن اعتقاده بأن هذه الموجودات إنما تشير إلى مرحلة مجهولة من التطور التكنولوجي. كتب يقول: «لقد تم تأسيس مدزامور بفضل رجال عقلاء ينتمون إلى حضارات أولية كانوا يملكون المعرفة التي اكتسبوها خلال عصر سحيق مجهول بالنسبة لنا، ويستحق أن يُدعى هذا العصر بالعصر العلمي والصناعي».

ومما يجعل هذا المصنع الخاص بصناعة استخلاص المعادن من فلزاتها وإعداداها والذي يُدعى مدزامور مثيراً للاهتمام بالنسبة لنا كونه يقع على بعد ١٥ ميلاً من قمة أرارات، أي موقع اليابسة الذي التجأ إليه الأشخاص الذين ظلوا أحياء بعد تدمير الحضارة التي تُنسب إلى زمن قبل الطوفان. بلا شك كان تطور الشيثيين وراء تطور القينيين. لقد ولد شيث حوالي عام ٤٩٢٤ق.م، ولا يعرف إذا كان مقيماً في المدينة أو كان بناءً حضارياً ولكنه يبدو أنه عاش بهدوء على تربة خصبة مزودة بأربعة أنهار، فهذه الأشياء مذكورة في أحوال السيرة الأولية، غير أنه حدث شيء ما، فقوَّض أساس الحالة الفيزيقية الجيدة للشعب الشيثي، ذلك لأن ابنه المولود عام ٤١١٩ق.م كان يحمل اسم أنوش الذي يعني «المميت، الجنس البشري الضعيف»، وربما يُشير هذا الاسم إلى حدوث مرض مرتقب. ولقد ذكر ذلك العبراني أكادا قائلاً: خلال حياة أنوش أصبحت وجوه الناس أكثر شبهاً بوجوه القردة. ولكن يوجد هناك عدد أوفر من الأشخاص الكبار الذين ذكر اسمهم في القائمة القصيرة التي تخص عهد ما قبل الطوفان. كان قايين (٤٧٢٩ق.م) رجلاً كدوداً، صاحب حرفة، صانعاً فنياً كما يشير إلى ذلك اسمه. وربما كان الرجل الأول الذي عمل في تطوير الأدوات الدقيقة المعقدة والتي تستوجب الحذق والمهارة. وقبل ذلك بسنوات عديدة باشر توبال قايين بإنتاج أسلحته. لقد استبدلت الأدوات البسيطة

بأدوات أكثر تعقيداً أي الأدوات التي استُخدمت في النجارة وصناعة الفخار والبناء والحياكة الخ. ومنذ ذلك الحين أصبح عدد الشيثيين بما فيه الكفاية بحيث أصبحت قوته العاملة متنوعة وكان الصانع الفني قايين رمزاً لنمو العمل المتخصص أي هذا العمل الذي رافق ثقافة مترامية الأطراف.

هناك أشخاص آخرون عديدون يمكن ذكر أسمائهم في هذا المجال، ولكن مهنهم كانت أكثر روحانية. وكما أننا نهتم بالمظاهر التكنولوجية التي تخص حياة ما قبل الطوفان، سوف نختار فقط ثلاثة أشخاص من أهل شيث: متوشالح ٤٣٦٧ ق.م – لامك ٤١٨٠ق.م وهو ابن متوشائيل – ثم نوح ٣٩٩٨ ق.م وهو ابن لامك.

مع متوشائيل ندخل عصر العمليات الحربية المفتوحة. إنه يحمل الاسم الذي يعني «رجل المرشاق الطائر، رجل السهم، رجل الحرب». لقد كان بلا شك رجلاً عسكرياً، وكان ناجحاً، لأنه عاش أكثر من ٩٦٩ سنة بالنسبة لأي شيخ آخر من القبيلة. وقد تم ذكر أسماء أعدائه عندما ناقشنا الأشخاص الذين ينتمون إلى نسب قايين. كان متوشالح يعيش في الحقبة نفسها التي عاشها توبال قايين الصانع الماهر للأسلحة، وكان سيداً في أسلحة عديدة بما فيها السهم والمرشاق الطيار (أي السهم الصغير الذي يرشق باليد). هل كان مثل هذا السلاح صاروخاً؟. وهل كان بمثابة الإشارة الأولى للنزاع المسلح الكبير بين حضارتين: حضارة شعب قايين وحضارة شعب شيث؟. إننا نعلم من خلال الروايات التاريخية أن يوبال وهو شقيق توبال قايين كان الأول الذي نشر سيادته باحتلال أراضي جديدة ربما هدد رجاله بغزو أراض كان شعب شيث يسكنها سابقاً.

وربما امتهن لامك مهنة والده متوشالح، ولكنه توفي وهو في ٧٧٧ الذي يعتبر شاباً بالمقارنة إلى معدل طولة العمر وهي ٩١٢ سنة بالنسبة لشيوخ قبيلة ما قبل الطوفان. هل كان سبب موته ناتجاً عن جروح أصابته أثناء المعركة؟.

إن نوح التوراتي الذي ولد عام ٣٩٩٨ق.م وتوفي عام ٣٠٤٨ ق.م كان آخر العمالقة الذين يخصون عهد ما قبل الطوفان. لقد ذكر اسمه في علم الأساطير بأسماء متنوعة أمثال «نو– أوه، نواه» وغير هذه الأسماء. لقد جابه أمواج الطوفان مع زوجته وأولاده الثلاث

وزوجاتهم بالإضافة إلى مملكة الحيوانات في سفينتهم. هكذا، انتهت مملكة شيوخ القبيلة العشرة. لقد عاش أولاده سام وحام ويافث والجيل الثالث بعد الطوفان. لذلك ينسبون إلى عهد شيوخ القبيلة في عهد بعد الطوفان. لن نعرف أبداً الانتشار الصحيح للمعرفة الذي انقرض.

كان نوح وعائلته قادرين على إنتاج ما كانوا يملكون من معرفة شخصية فقط. وكان هذا الانتاج محدوداً لأنهم هم وحدهم قد بلغوا المستوى الرفيع من التطور. وكانت التكنولوجيا التي ظلت حية بعد الطوفان وليدة الأجيال العشرة الخاصة بالتطور السينرجي (أي المختص بالتوافق بالعمل المتضافر التعاوني)، وكانت وليدة الخطوات المتوسطة التي تم تدميرها كلياً. كان نوح وعائلته يملكان ذاكرة البيئة التكنولوجية التي انقرضت، لكن أبناء أولاد نوح لم يملكوا مثل هذه الذاكرة. كل ما عرفوه وأدركوه مرتبط بالحضارة المنقوصة لأهلهم وهي الحضارة المنسوبة إلى عهد ما بعد الطوفان التي لا تملك في بنيتها التطور التدرجي وراء العناصر التكنولوجية التي احتفظ بها أهلهم. لقد فقد هؤلاء الأبناء المعرفة الخاصة بالمبادئ الأساسية، وعندما انقطعت عنهم العناصر التكنولوجية وتلاشت نهائياً وأصبح أمر استبدالها غير ممكن، أصبحوا منبوذين.

لقد ظهرت فرصة واحدة لتجميع نسلهم ضمن تنظيم اجتماعي منسق، وحصلت هذه الفرصة في بابل وهي المدينة التي ذكرت في سفر التكوين. حدثت في برج بابل وهو ناطحة السحاب الأولى في التاريخ محاولة لإخضاع النمو السكاني السريع لسلطة مركزية واحدة. لكن هذا المخطط أصابه الفشل إذ أُصيبت لغتهم بالتشوش والاضطراب، والاتصال الضروري لخلق حضارة متفوقة من جديد، أي هذا الاتصال الذي كان موجوداً قبل الطوفان قد دمَّر تدميراً كاملاً. نجد في الإصحاح ١٠-١١ من سفر التكوين عاملين آخرين كلاهما أعاقا تجديد التكنولوجيا التي تخص عهد ما قبل الطوفان. لقد انقسم نسل نوح إلى أمم وأجناس. هذا يعني أن الخلفية المشتركة قد انقرضت، ولكن هناك بعض الأشخاص احتفظوا بالمعرفة وغيرهم فقدها تماماً.

أما الذين احتفظوا ببعض المعرفة التي تخص عهد ما قبل الطوفان بالأخص

الأشخاص الذين كانوا يملكون العناصر المتقدمة في التكنولوجيا وينتمون إلى أقسام بشرية قومية وجنسية معينة، هؤلاء سببوا اتجاهاً سفلياً.

تتحدث التدوينات الهندوسية حالياً عن تدمير عظيم ناتج عن حرب مدمرة حيث استُخدمت الأسلحة الذرية. وهناك عدة براهين تؤكد على أن هذه التصادمات حدثت نسبياً بعد الطوفان بوقت قصير. هذا يعني أنه لم يبق حيًّا إلا عدد قليل بعد هذه الحرب الذرية الكاملة، وجاز الاعتقاد بأن عدة مراكز متقدمة حضارياً قد اختفت فجأة. ويفيدنا سفر التكوين في الإصحاح ١١ بعنصر آخر. يشير إلى الجيل الذي أعقب جيل نوح فجأة إلى انخفاض حاسم في معدل طولة العمر، أي حصل انخفاض من ٩٠٠ سنة إلى ١٠٠ سنة تقريباً. هذا بالطبع مما حدد فرص إمكانية الفرد لاكتساب المعرفة والتجربة، ومع هذه الحيوات القصيرة أصبحت الأجيال تنقضي بسرعة أكبر.

ربما اعتبرنا عنصر الكتابة حيوياً جداً بالنسبة لمجتمعنا وجاز أن يكون هذا العنصر مجهولاً تماماً بالنسبة للأقدمين. ليس لأنهم لم يكونوا بحاجة إليه، ربما بدا هذا الأمر مثيراً للدهشة، ولكن هذا الأمر ممكن لأن الكتابة كانت تعتبر خطوة للوراء بالنسبة للحضارة بدلاً أن تعتبر خطوة للأمام؟.

كتب الفيلسوف اليوناني أفلاطون كيف يدرس في مؤلفه حول أسطورة توت، وهو إله مصري، اكتشف استعمال الأحرف في سبيل التفاخر والتباهي باختراعه، بيَّن الإله كيفية استخدامها للملك تاموس ومعلناً بأن هذا النمط الجديد في الاتصال سوف يكون مساعداً للحكمة، لكن الملك استنكر الأمر وحكم بعدم صلاحه وأخبر توت بأن العكس هو الصحيح، قال إن الكتابة تشجع فقدان الذاكرة في العقول للأشياء التي نتعلمها لأنها لا تستكمل ولا تربي الذاكرة. سوف يتعلم الطلاب المظهر عوضاً من تعلم حقيقة الحكمة، وذلك بسبب قراءة وتكرار الكلمات بدون إدراك معانيها. وأعلن قائلاً بأن الكتابة سوف تضع حداً للمعرفة ولا تنشرها. وحدث كما تنبأ وكما رأينا ذلك سابقاً بأن النصوص الجنائزية المصرية الأولية كانت تنسخ على أيدي الكتاب دون أن يفقهوا معناها. هناك عدد وفير من المؤرخين ذهبوا إلى القول بأن علمنة الكلمة المكتوبة في

الماضي لم تكن دلالة على بعث حضارة بل كانت أحياناً دلالة على نذير انحطاطها. ولكن بصرف النظر عن اعتراضات الملك تاموس أصبحت الكتابة حقيقة حسية، ونشرت تأثيرها على المجتمعات النامية، فكانت عنصراً مساعداً لبعضهم، ولكن تطلب المعرفة في الكتابة جلب معه محدوديات جدية. لم تعد الذاكرة العامل الذي يعتمد عليه. الآن أصبحت مخازن الكلمات العناصر الأولية في نشر وإشاعة المعرفة، بينما كانت قبل الطوفان الوقائع التكنولوجية تنقل من والد إلى ابن. من عالم إلى عالم، بينما الآن أصبحت المستودعات الخاصة بالمعرفة المكتوبة هي البديلة للتقليد الشفهي. عندما كانت الجيوش الهائجة التي تخص الأمم النازية تحتل الأراضي، كانت المكتبات الكبرى في العالم تتحول إلى ضحايا بريئة لهذا التدمير التعسفي. هناك عدة صفحات تأريخية مفقودة قد تم تمزيقها في تلك السنوات المفجعة. (المجموعة الشهيرة لبيزاستراتوس في أثينا في القرن السادس قبل الميلاد قد انقرضت). لحسن الحظ لقد نجت قصائد هوميروس بطريقة ما.

إن أوراق البردي الموجودة في مكتبة هيكل بتاح في ممفيس قد دمرت كلياً. كذلك ٢٠٠ ألف مجلد في مكتبة برغاموس في آسيا الوسطى قد لاقت المصير نفسه. كذلك مدينة قرطاجة التي أحرقها الرومان، ودام الحريق ١٧ يوماً عام ٦٤٨ق.م، ويقال إن هذه المدينة كانت تملك مكتبة فيها نصف مليون مجلد. ولكن أقوى صفعة تلقاها التاريخ هي حريق مكتبة الإسكندرية في الحملة المصرية التي قام بها يوليوس قيصر حيث فقدت لفافات من الورق المكتوب عليها والتي لا تُقدَّرُ بثمن، بلغت ٧٠٠ ألف لفافة (أو مدرجة) ولا يمكن استردادها إطلاقاً. كان يوجد فهرس كامل للمؤلفين ويبلغ حجمه ١٢ مجلداً بالإضافة إلى سيرة مختصرة لكل مؤلف. غير أن مكتبة الاسكندرية ظلت حية بعد هذا التدمير وأصبحت مرة أخرى مركز التعليم وأعظم مستودع للكتاب في العالم المتوسطي إلى أن احترقت عقب الفتح الإسلامي لمصر.

يقول توماس مؤلف كتاب «نحن لسنا الأولين» لم يكن قدر المكتبات في آسيا هو الأفضل، ذلك لأن إمبراطور الصين «شن شه هوانغ تيه» أحرق جميع الكتب التاريخية في عام ٢١٢ق.م. لقد أرسل ليو إيزوروس ٣٠٠ ألف كتاباً إلى المحرقة في القسطنطينية في

القرن الثامن. وإن عدد المخطوطات التي أُعدمت بواسطة محاكم التفتيش الدينية في القرون الوسطى لا يمكن تقديرها بثمن. بسبب هذه المآسي نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتماد على أجزاء منفصلة ومقاطع هامشية وحكايات هزيلة ضئيلة.

ولكن لم يختفِ كل شيء. بعد الحرب العالمية الثانية خلق اكتشاف لفافات البحر الميت دهشة عارمة بين علماء الكتاب المقدس. وذلك نظراً للوثائق التي يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد التي توافق بصورة مدهشة المخطوطة التوراتية المعروفة كنص ماسوري الذي ينتمي إلى عهد الميلاد ED10. لقد ظلت هذه النصوص باقية بحالة سليمة بطريقة ما. وحديثًا تم عام ١٩٧٥ اكتشاف الألواح الحجرية المكتوب عليها تاريخ إيبلا في تل مرديخ في سوريا، وقد أحدثت موجة من الدهشة في العالم أجمع. والواقع إنَّ لفافات البحر الميت يرجع تاريخها أيضاً إلى ٢٠٠ ق.م. وهذا أمر مذهل حقاً. ولكن العثور على ألواح من الصلصال التي تم النقش عليها في عام ٢٣٠٠ ق.م هو أمر في غاية من العجب ويكشف عن الحقيقة بصورة قاطعة. توجد نصوص مكتوبة باللغة الكنعانية وبلغات أخرى وتبلغ ١٥٠٠٠ لوحة وتكشف عن وجود ثروة في المراسلة بما فيها المعاهدات السياسية والتدوينات والقوانين والنصوص الدينية والمعلومات التأريخية. قال لي أحد الاختصاصيين في هذا المجال حديثاً: «إنها تغطي جزءاً هاماً من عهد ما قبل الطوفان الخاص بمرحلة شيوخ القبيلة سوف تزودنا بالتفاصيل التي سوف تلقي نوراً جديداً على الحضارة التي عاشت في هذا العهد». وما يهمنا في هذا الأمر هو حقبة شيوخ القبيلة في ما بعد الطوفان !!.

بلا شك هناك مستودع كبير للمعرفة القديمة فُقِدَ خلال سنوات عديدة لكنه لم يدمر وهي تخص مرحلة ما قبل الطوفان واستطاعت أن تتغلب على الأمواج الغاضبة، فما زالت تحتفظ بأجزاء من المعرفة المختارة احتفظت بها بعناية ذاكرة العائلة الناجية من الكارثة.

ومما لا ريب فيه أن سكان ما قبل الطوفان كانوا يملكون مهارات عقلية مدهشة، لأنهم اجتازوا مراحل عديدة متلاحقة من التطور. في الجيل الثاني، لقد مارسوا الزراعة والتدبير الحيواني واستخدموا النار والأدوات البسيطة وعرفوا الرياضيات وعلم الفلك

وهندسة البناء ونظموا أنفسهم ضمن نظام اجتماعي حضاري، ويعتبر النظام الاجتماعي الأول. وفي الجيل الرابع تطورت الأدوات البسيطة عن طريق الحركات التعاونية القائمة بين هذه الصناعات اليدوية كالحياكة والنجارة والبناء. أخيرًا في الجيل الثامن نشهد انفجارًا في الأعمال الإبداعية مع بداية بزوغ التعدين وفن الحرب وتطور الفنون. وإن رواية سفر التكوين الخاصة بعناصر الحضارة تبدو غير مثيرة ولكن وجب أن نتذكر أن هذه الاكتشافات كانت مبدأ حدوث كل الأشياء للمرة الأولى بحيث صدرت عنها التكنولوجيا المتطورة، كذلك لزم التذكر بأن الكتاب المقدس رغم أنه يتضمن معلومات تأريخية بوفرة إلا أنه بالأصل كتاب ديني، وقد كتب المؤلفون التوراتيون فقط تلك الأحداث التاريخية التي تخص تطور أو غروب ديانتهم. يجب ألا نتوقع من كتاب سفر التكوين البحث عن المظاهر التكنولوجية الخاصة بالحضارات الناضجة المكتملة. غالباً ما نعجز عن إدراك الأمر التالي: إن التطور هو نضج العلاقة القائمة بين العلة والأثر، لكن علاقة العلة والأثر هي الانطلاق المميز من نمط معين من الوجود إلى نمط آخر. إنه التحول غير المسبق التام. مثلاً إن الخطوة المتقدمة التي قام بها توبال قاين انطلاقاً من الانتاج غير المعدني إلى الانتاج المعدني وجب اعتبارها إنجازاً أكبر بكثير من أي تطور حصل في ميدان التعدين. إن الرجال الأوائل الذين اجتازوا وجه الأرض في الأجيال الثمانية الأولى التي تخص عهد قبل الطوفان قد أحرزوا تقدماً انطلاقاً من لا ثقافة إلى ثقافة، وذلك بفضل مجهوداتهم الخاصة دون أي أحوال مسبقة فكانوا المحدثين والمبتكرين والمكتشفين والمخترعين ليس فقط فيما يتعلق بحضاراتهم الخاصة ولكن عبر الأشخاص الباقين على قيد الحياة الذين ينتمون إلى عهد الطوفان، وصولاً إلى جميع الحضارات التي أعقبتهم في العهد الذي أعقب الطوفان. لسبب مذكور سابقاً، يزودنا سفر التكوين عبر الحكاية بأشياء قليلة يستدل بها لحل مشكلة التطور الخاص بحضارة عهد ما قبل الطوفان أي بعد زمن توبال قاين. غير أنه إذا ألقينا نظرة على الأشياء التي كان يملكها أهل ذلك الزمان، تبين لنا أن الحضارة التكنولوجية ذات المستوى الرفيع كانت موجودة فعلاً إذ كانت الطاقة الكامنة لتحقيق الارتقاء المتواصل قادرة على تحقيق مثل هذا الانجاز الحضاري. أولاً، كانوا يملكون الأساس الضروري للمعرفة. لقد

تفوقوا في مجال الرياضيات والتعدين والفنون الجميلة وكانوا يتمتعون بإمكانيات تحليلية إبداعية وخيالية. وكان الحقلان الأولان الرياضيات والمعادن ضروريين لاجتياز عتبة المعدات الآلية وهي الخطوة التالية الخاصة بتآزر الفعل في ميدان تطور الأدوات المستخدمة. ثانياً، كانوا يملكون ثروات بشرية. والتكنولوجيا تعتمد على قوة العمل أي العمل الواسع والمنظم والمتنوع. يخبرنا سفر التكوين ٦ ما يلي «أخذ الناس يتكاثرون فوق وجه البسيطة». ويفيدنا علم الأنساب في الفصل الخامس من التدوين التاريخي بأن الناس كانوا يملكون عائلات كبيرة وكانوا يتمتعون بمراحل إنسانية طويلة الأمد قبل عهد الطوفان مع أنه في معظم الحالات يجدد ولد واحد في كل عائلة لتحديد خط النسل وُيعيَّن بشكل واضح لهذا الغرض، وكذلك كان كل شيخ قبيلة يورث البنين والبنات، وكان كل شخص ينتج بالتناسل على الأقل أربعة أولاد. لاحقاً كان عمر شيوخ القبيلة الذين كان هم الأبناء المذكورون يتراوح بين ٦٥ سنة بالنسبة «لمهلئيل وأنوش» و ٥٠٠ سنة بالنسبة «لنوح»: أي مدى ٤٣٥ سنة. هكذا عبر هذه التأثيرات المختلطة الخاصة بطولة العمر والعيش الطويل والعائلات الكبيرة، استطاع عهد ما قبل الطوفان أن يملأ الأرض بسرعة، ونعلم أيضاً بأن القسم الأكبر من سكان عهد قبل الطوفان كان منظماً.

وفي زمن قايين تجمع نسله الأول في مجتمع حضري وكان هذا المجتمع خاضعاً لقائد سياسي وديني واحد، وكان سكان عهد قبل الطوفان متنوعين أيضاً. انطلاقاً من زمن قايين في الجيل الرابع تكاثر الجنس البشري إلى درجة أصبح معها قادراً على تحمل ومساعدة الحرفيين والصنائع الأخرى المتعددة.

بالإضافة إلى ذلك كان يوجد الوقت الكافي كي تنمو الحضارة وترتقي ابتداءً من اكتشاف توبال قايين الخاص بتصنيع المعادن. عام ٤٠٠٠ ق.م حتى زمن الطوفان عام ٣٣٩٨ق.م، سادت حقبة تساوي ٦٠٠ سنة حيث حدثت تطورات في هذا الزمن بالذات. إنها نقطة حيوية، ذلك لأن حضارتنا استوجبت ٦٠٠ سنة كي تنمو وترتقي حتى تبلغ المستوى الحالي – ابتداء من البارود والطباعة حتى الفيزياء النووية والحاسوب. لقد بلغنا الآن هذه المرتبة من الحضارة بعد ٦٠٠ سنة. هذا يعني بأن شعب ما قبل الطوفان

استطاع أن يتقدم بالفترة الزمنية نفسها سريعاً، أي هذا الشعب الذي كان مصدر الحضارة. كان الأشخاص السابقون العائشون في زمن قبل الطوفان قد توصلوا إلى مستوى تكنولوجي متطور، وكان شبيهاً في عدة جوانب بتكنولوجيا عصرنا. وهناك بعض الفوارق الهامة جداً التي وقف أمامها المؤرخون وعلماء الآثار عاجزين غير قادرين على تحديد هوية هذه البقايا النموذجية.

إن أغلب العلماء الذين يملكون تفكيراً غير ميكانيكي لا يقرون بالأمر التالي: توجد منتوجات تكنولوجية بحيث لا تشبه ما نسمّيه الآلات أي بلا قضبان محورية (لنقل القوة في الآلة) وبلا أجزاء متناسقة الحركة في الآلة. مثلاً، هناك شبكة من الخطوط التي تم تنفيذها بواسطة حبر معدني خاص على ورقة مصنوعة خصيصًا بحيث تقوم بدور جهاز الاستقبال بخصوص الموجات المغنطيسية الكهربائية وجاز أن يستعمل الأنبوب النحاسي كجهاز مخصص لزيادة الطنين وتشديده، ويستعمل هذا الجهاز لتوليد الموجات الشديدة الذبذبة. وكانت تصنع مساحة الألماس بحيث تحتوي على صورة لصفحات تعادل ١٠٠ ألف كتاب. غير أن المشكلة شأن أية تقنية متطورة هي التالية: إن مناهجها وأنماطها غالباً ما تكون مختصرة ومبسطة بالأخص إذا كانت حضارة الطرف الآخر ذات معرفة أقل درجة. هناك عدة مصنوعات يدوية (أوبارتس) وقد تم اكتشافها في أماكن غير مألوفة، إنها تجسد طبيعة التكنولوجيا التي تفوق تقنيتها تقنيتنا الحالية ولا تنافسها فقط. هناك بعض اكتشافات (الأوبارتز) تبدو غريبة فعلًا، ويكاد أمرها لا يصدّق، وذلك بكل بساطة لأننا لم نتوصل إلى فهم مدلولها. إن باستطاعتنا التعرف عليها لو أدركنا المرحلة نفسها من التقدم والارتقاء. هكذا لا بدَّ من طرح هذا السؤال الذي يثير القلق والاضطراب: ما هي كمية المصنوعات اليدوية الموجودة في مكان غيرمألوف وقد ضاعت أو بقيت غير معروفة ومنبوذة في الطبقات السفلى من المتاحف الحديثة، ذلك لأنه لا أحد يعرف حقيقتها. أليس كذلك؟.

***



الفصل الثاني

مصنوعات الإنسان القديم (الأوبارتز)

● الأوبارتز: هل يعتبر هذا العلم على حالته الطبيعية؟

إن اكتشافات الأوبارتز التي تُعتبر شهادة لأقدم عصر بشري هي عرضية. إنها بقايا الماضي الذي لم نتعرف عليه كلياً أو لم نؤمن به. لأننا لم نفهم كل الفهم مجال الحضارة الملغزة التي تخص قبل الطوفان. إننا نقف مشدوهين عندما نجد أنفسنا أمام بقايا ممكنة، تخص مثل هذه الحضارة.

ولكن هل مثل هذه الحضارة تلائم رجال الكهف. غالباً ما كان مثل هذا السؤال يراود المرء وهو يناقش قضية أجدادنا الأقدمين وطاقاتهم المختلفة. ويقول آخرون: ما زلنا نتسلق سلم التطور الاجتماعي، بكل بساطة لأنه لا يوجد مكان للحضارة المتفوقة في الماضي، ويعتبر هؤلاء النقاد بأن مثل هذا الاعتقاد هو ضرب من السذاجة. وبتفكيرهم هذا يشعرون بالاغتباط النفسي. غير أنهم لا يعرفون كيف يتصرفون مع مصنوعات الأوبارتز. ما العمل؟.

هناك أشياء كثيرة ما زالوا يجهلونها بالنسبة لهذه الاكتشافات القديمة.

سنلقي نظرة على الاكتشافات المدونة. هناك مقال مثير ظهر في جريدة الدولة في ١٠ نيسان ١٩٦٧ ويتحدث عن اكتشاف مصنوعة قديمة وبقايا بشرية في منجم روكي بونت في غولمان (كولورادو). تقول مجلة هيرالد أوف أيوا سيتي: لقد تم على عمق ٤٠٠ قدم تحت سطح الأرض بواسطة الآلات الجوابة (التي تحفر الأرض وتنقل التراب) اكتشاف عظام بشرية مرصوصة داخل راسب معدني فضي. واستناداً إلى النماذج الجيولوجيةُ قدَّر عمر هذا الاكتشاف بعدة ملايين من السنين، ولكن بالإضافة إلى هذه العظام تم التنقيب

عن رأس سهم نحاسي صلب ويبلغ طوله أربعة إنشات. فالعظام ورأس السهم كذلك لا يخصان ذلك المكان. مع ذلك فهما هنا وبصورة غريبة وغير متوقعة ولا يوجد أي تفسير لذلك. ولا يستطيع المؤرخون ولا علماء الجيولوجيا إدخال هذه البقايا ضمن القالب النظري الخاص بالنشوء والتطور. ربما كان جزءًا من الاكتشاف منسياً، ولكن هذا الاكتشاف الغريب ليس منعزلاً.

في شهر حزيران عام ١٨٥١ ورد تقرير في مجلة الأمريكي العلمي متعلق بالوعاء المعدني الذي استخرج بواسطة تفجير الديناميت في صخرة صلبة في دورشيستر، ماساشوستس. وتم طبعه من جديد عن نسخة منقولة وهي نسخة بوسطن. تقول القصة: إذا وضع الجزءان معاً يشكلان وعاءً جرسيَّ الشكل ارتفاعه ٤,٥ إنشاً وقاعدته تساوي ٦,٥ إنشاً ومقياسه عند القمة٢,٥ إنشاً وسماكته ثمن إنش. ويشبه جسم هذا الوعاء مادة التوتياء من حيث اللون أو يشبه تركيباً معدنياً حيث تكون كمية الفضة هي الغالبة. على جوانبه توجد ستة أشكال من الزهر وباقة الورد ومطعَّمة بالفضة الصافية ويوجد حول الجزء السفلي من الوعاء دالية أو طوق من الأزهار والأوراق المرصعة أيضاً بالفضة. ومن الواضح أن أعمال الحفر بهذا المعدن والنحت والتطعيم، إنما هي ناتجة عن فن رفيع نفذه فنان محترف بارع. تم اكتشاف هذا الوعاء المثير والغريب على عمق ١٥ قدماً تحت سطح الأرض.

من أين جاء هذا الوعاء؟

لا يستطيع علماء الجيولوجيا ولا علماء الآثار معرفة ذلك، لكن الصخرة التي وجد فيها هذا الغرض الفني تعود إلى عدة ملايين من السنين بلا شك. وشأن معظم الاكتشافات المذهلة ظل هذا الوعاء يتنقل من متحف إلى متحف حتى اختفى. بلا ريب إنَّ هذا الإناء موجود في طابق سفلي لمتحف ما حيث يتراكم عليه غبار القرن العشرين. وهذا ما حصل بالضبط منذ أربعين سنة في ٩ حزيران ١٨٩١ مع السيدة س.ي. كولب من موريسون فيل في إلينوا بينما كانت تجرف الفحم وتنقله إلى فرن المطبخ، لفتت انتباهها كتلة من فحم، إذ كسرت إلى قطعتين. عندئذ ظهرت سلسلة من الذهب وقد صنعها

صانع ماهر فعلاً. كتبت مجلة موريسون فيل تايمز في ١١ حزيران ما يلي: اعتقدت مسز كولب أن هذه السلسلة قد سقطت بالصدفة في كتلة الفحم، ولكن عندما حاولت رفع السلسلة عالياً لاحظت بعد أن انشطرت الكتلة إلى جزءين بأن فكرة سقوط هذه السلسلة حديثاً في الفحم باطلة ومضللة، وذلك عندما تصدَّعت الكتلة حيث اتضح بأن وسط السلسلة مفقود بينما كل طرف منها ظل معلقاً بجانب من كتلة الفحم..

يعتبر هذا الأمر درساً لطلاب علم الآثار الذين يحاولون حل اللغز أو كشفه بعد إعمال الفكر من خلال دراسة التعمير الجيولوجي للأرض وفيما يتعلق بأعماقها وبالأشياء الغريبة التي يتم اكتشافها في هذه المواضع.

لقد أصيب ناشر الجريدة بالدهشة إزاء هذا الاكتشاف، كذلك علماء الجيولوجيا إذ مال الاعتقاد بأن هذا النموذج الفحمي إنما يعود إلى العصر الجيولوجي الفحمي أي إلى عدة ملايين من السنين. ولم تكن سلسلة موريسون فيل وحيدة، إذ قد تم اكتشاف مصنوعة يدوية ذهبية ولم يُعرَف مصدرها، وقد تم ذلك عام ١٨٤٨م في مقلع أحجار قرب روتر فورد نيلز في إنكلترا. في ٢٢ حزيران من تلك السنة كان العمال ينسفون الغرانيت في المنجم. فجأة ظهر سلك ذهبي طوله ثمانية أقدام وكان مدفوناً تحت الأرض داخل صخرة. ويعتقد علماء الجيولوجيا أن عمره يناهز ٦٠ مليون سنة. قال الباحثون الذين أرسلتهم مجلة التايمز في لندن: في اعتقادنا أن هذا السلك الذهبي مصنوع صناعياً.

لم تكن المصنوعات اليدوية المكونة من معدن ثمين المصنوعات الوحيدة التي تم اكتشافها وهي مدفونة في صخر صلب. تقول مجلة سبرينغفيلد ريبوبلكن: عام ١٨٥١، عندما رجع رجل أعمال من رحلته ويدعى حيرام دوويت جلب معه من كاليفورنيا قطعة من الكوارتز حاوية على الذهب تساوي قبضة يد الإنسان (والكوارتز هو حجر البللور). وبينما كان دوويت يعرض هذه القطعة الصخرية على صديقه انزلقت من يده وارتطمت بالأرض وتصدعت. لقد اكتشف في وسط الكوارتز قطاعة حديد طولها إنشان، وقد أصيبت بالتآكل الخفيف، لكنها كانت مستقيمة تماماً وكان الرأس في حالة سليمة. وهل تعلم ما هو عمر هذه القطعة من الكوارتز؟. يعتقد العلماء بأنها تناهز المليون سنة !.

ولكن لم يكن هذا هو المسمار الأول الذي تم اكتشافه (أي قطاعة الحديد)، فقبل ست سنوات من تاريخ هذا الاكتشاف قدم سير دافيد بريوستر D. Brewster تقريراً إلى الجمعية البريطانية للتقدم العلمي، وأحدث هذا التقرير جلبة قوية وقتذاك. لقد تم اكتشاف مسمار وهو من صنع بشري كان مدفوناً داخل كتلة صخرية من الغرانيت، وقد تم استخراجه في مقلع أحجار كانغكودي في شمالي بريطانيا. لقد كان مصاباً بتآكل شديد، ولكن كان من الممكن التعرف عليه. مرة أخرى تم تحديد الغرانيت ويعود عمره إلى ٦٠ مليون سنة. وهناك مصنوعة قديمة (أوبارتز) وهي عبارة عن مسمار لولبي مقياسه إنشان، تم اكتشافه داخل حجر معدني متبلور عام ١٨٦٥م في منجم الدير في سيتي تريجور في نيفادا. لقد تأكسد البرغي منذ زمن طويل، ولكن شكله مميز بسهولة داخل الحجر المعدني المتبلور. وهنا أيضاً أصيب المكتشفون بالدهشة، وسببت تشويشاً واضطراباً بالنسبة للنظريات العلمية المقبولة، إذ كيف يمكن العثور على مسمار لولبي معدني بقياس إنشين داخل غرض يناهز عمره عدة ملايين من السنين؟. لقد حيَّر هذا الأمر الفاحصين وأثار الدهشة والاستغراب.

● **مكعب سالزبورغ:**

إن الأغراض التي اكتشفت في أماكنها غير المألوفة، داخل طبقات صخرية متعددة، لا تبين لنا فقط وجود نتاج معدني بسيط، ولكنها تشير أيضاً إلى أن سكان أيام الطوفان كانوا يتمتعون بمهارة في فن التشكيل المعدني بواسطة الآلات، وكانوا يستخدمون المعدن في بناء المعدات الآلية المعقدة.

في عام ١٨٨٥م، في مسبك إيزادور براون النمساوي في فوكلابروك، تحطمت كتلة فحمية يرجع تاريخها إلى العصر الثالث الجيولوجي. تم اكتشاف مكعب معدني صغير في داخلها. أصيب براون بالدهشة عند هذا الاكتشاف المفاجئ. أخذ المكعب الملغز إلى متحف سالزبورغ، فحصه العالم الفيزيائي النمساوي كارل غورلز Karl Gurls فحصاً دقيقاً.

أشارت الفحوصات بأن المكعب مكون من خليطة معدنية مركبة من النيكل

والفولاذ. ويبلغ حجمها ٢,٦٤ × ٢,٦٤ × ١,٨٥ إنشاً ويبلغ وزنها ١,٧٣ باونداً، ويبلغ الثقل النوعي ٧,٧٥ وكانت حروف هذا المكعب الغريب مستقيمة وحادة بشكل تام، وكانت الجوانب الأربعة مسطحة بينما كان الجانبان الآخران المتقابلان محدبين، وقد حفرت أخدودة مستطيلة حول المكعب. بلا شك إن هذا المكعب هو من صنع آلي ويبدو أنه جزء من آلية أكبر.

للأسف اختفى المكعب من متحف سالزبورغ عام ١٩١٠. وعندما حدث هجوم بالقنابل بالحرب العالمية الثانية، دمرت تماماً جميع الملفات الخاصة بالاختراعات الموجودة في هذا المتحف. يومها كان المكعب معروضاً، أي بين عام ١٨٨٦ وعام ١٩١٠، غير أنه ما زال يعتقد بأن هذا المكعب هو ذاته الذي أعلن عن اكتشافه في جريدة علمية اسمها الطبيعة (في لندن ١٨٨٦) وفي جريدة علم الفلك (باريس ١٨٨٧). مثل هذا الإعلان هو برهان بدهي على أصالة هذا المكعب.

- **المصنوعة اليدوية القديمة كوزو:**

لقد حصل حديثاً اكتشاف خلافي آخر في عام ١٩٦١. ففي ١٣ شباط بينما كان صيادو الصخور الثلاثة: مايكل ميكسل، والاس لين، فرجينيا ماكسي يجمعون أحجار النسر عن بعد ستة أميال شمال شرق أولانشا في كاليفورنيا. في هذا اليوم بالذات بينما كانوا يبحثون في جبال كوزو، عثروا على حجرة موجودة قرب رأس قمة تناهز ٤٣٠٠ قدمًا فوق مستوى البحر و ٣٤ قدماً فوق مستوى بحيرة أوينس. اعتقد الصيادون خطأً بأنها من نوع حجر النسر أو البهت (وهو حجر فيه فجوة مبطنة بالبلورات)، رغم أنها تحتوي على آثارٍ لأصدافٍ متحجرة. وفي اليوم التالي عندما قطع مايكسل الحجرة إلى نصفين، وقع بصره على قطع ليست من الكريستال ولكن على شيء آخر يختلف تماماً، وكان يبدو غير مألوف كلياً. لقد وجد في الداخل بقايا لنمط معين من أداة آلية بالإضافة إلى الطبقة الخارجية المصنوعة من الطين المتصلب والحصى الصغيرة والجسيمات المتحجرة. هناك طبقة مسدسة الزوايا ذات مادة أكثر ليونة وغير معروفة، أي أكثر ليونة من الحجر اليماني أو الجاسبر. وتحيط هذه الطبقة بشكل أسطواني يبلغ ٣/٤ الإنش عرضاً.

وهذا الشكل مصنوع من البورسلين الصلب أو السيراميك. واكتشف مايكسل في وسط الشكل الأسطواني معدناً برّاقاً وهو عبارة عن سهم يبلغ ٢ مم. ومما أثار دهشتهم هؤلاء كون هذا السهم مغناطيسياً، ولم تظهر عليه أية علامات من التأكسد، وكانت تحيط بالشكل الأسطواني المحيط بالبورسلين خواتم نحاسية. وهذه الخواتم أيضاً لم يصبها أي تآكل.

لقد أصابتهم الحيرة إزاء هذا الاكتشاف غير المألوف فأرسلوه إلى جمعية تشارلز فورد Ch. Ford society وهي منظمة مختصة بفحص الأشياء غير العادية. لقد أظهرت أشعة × بعد فحص القطعة المتحجرة داخل الصخرة بأن محتوى حجر النسر **كان فعلاً نمطاً من جهاز ميكانيكي.** وأشارت الصور الفوتوغرافية إلى وجود سهم معدني وقد أصيب بالتآكل عند طرف واحد ولكنه أُلصق عند الطرف الآخر بلولب معدني. إن المصنوعة اليدوية القديمة المعروفة بمصنوعة كوزو هي أكثر من قطعة آلة. إن شكل السيراميك المصنوع بدقة والسهم المعدني والأجزاء النحاسية جميعاً مرتبطة بنمط خاص بجهاز كهربائي. ويشبه الجهاز المؤرية (وهي اداة تسلك في أسطوانة الوقود السائل في الآلة للإحراق بإحداث شرارة). ولكن توجد بعض الخاصيات وبالأخص الطرف اللولبي، لا تتوافق مع أية مؤرية معروفة في وقتنا الحاضر. ومما زاد الأمر تعقيداً تصريح علماء الجيولوجيا القائل بأن الصخرة التي وُجد فيها الجهاز الصغير الغريب إنما يعود تاريخها إلى نصف مليون سنة.

لقد حدث خلاف في الرأي بقوة حول تحديد تاريخ هذه الاكتشافات، بسبب الطبقات الأرضية التي رافقت الاكتشافات. لا شك ان السيدة كولب وجدت السلسلة الذهبية في الصخر الكربوني، ولا داعي للشك بخصوص اكتشاف السلك الذهبي في المحجر قرب روتر فور ميلز كذلك الأمر فيما يتعلق بالمسمار الحديدي الذي اكتشفه حيرام دوويت وتقرير سير دافيد برستور واكتشاف البرغي المعدني في منجم الدير. ولكن يوجد هناك عامل حيوي بحيث يتوجب علينا أخذه بعين الاعتبار وهو التالي: لا يمكن افتراض تاريخ هذه الاكتشافات دقيقاً كل الدقة. لا يجرؤ أي عالم جيولوجي على حسم هذه النقطة

من حيث تحديد تاريخ الاكتشافات بالنسبة للطبقات المختلفة الخاصة بقشرة الأرض. فهذا أمر وجداني يتعلق بالعالم الجيولوجي. من الأعقل النظر إلى المصنوعات اليدوية القديمة على ضوء علم الجيولوجيا المختص بالطوفان الذي يعتبر الصخر المتركب من الطبقات المتطارقة إنما هو نتيجة التربة المنطرحة بواسطة الماء. هذا يعني بأن الأغراض المعدنية المغلفة بالصخور قد دفنت خلال الطوفان. وهكذا جاز القول بأن تاريخ صناعتها يعود إلى قبل عهد الطوفان. بالتأكيد أن المصنوعات القديمة (الأوبارتز) تجعل من نظريات علماء الجيولوجيا مناقضة لنظريات المؤرخين لأن بعضهم يعتبرون بإصرار عمر هذه الحقبة مليون سنة بينما لا يوافق المؤرخون التقليديون (الأرثوذكسيون) على أصالة المكعب المصنوع آلياً والذي عثر عليه في كتلة فحمية ويرجع تاريخها إلى الحقب الثالث الجيولوجي. بالنسبة لهم، إن وجود حضارة متقدمة جداً يعود تاريخها إلى ١٠٠ مليون سنة، هذا أمر يفوق حد التصديق ولا يقبله عقل. إن مثل هذا العنصر الزمني المبالغ به وجب رفضه علماً بأن الفحم هو وليد العملية النباتية المدمّرة والمعرض للضغط والمدفون بوسط الماء وعلماً بأن مكعب سالزبورغ قد وجد داخل كتلة فحمية تعود إلى الحقب الثالث الجيولوجي. هذا يعني أن تاريخ هذا الاكتشاف مرتبط بزمن قبل الطوفان، والمعلوم أن المصنوعة اليدوية كوزو قد اكتشفت داخل صخرة رسوبية، لذلك وجب الاستنتاج بأن هذه المصنوعة قد ترسبت خلال الطوفان الكبير. تعود أهمية هذه المصنوعات اليدوية القديمة إلى النقطة التالية: إنها تبين لنا بأن سكان قبل الطوفان قد أحرزوا تقدماً وتجاوزوا حدود الانتاج المعدني البسيط وتعلموا كيف يستخدمون بعض أنماط الطاقة – في هذه الحالة الكهرباء– منذ عدة آلاف من السنين قبل إدخال هذه المعرفة في حضارتنا.

لقد بدأ منذ سنوات بحث بطيء لكنه منهجي، يستهدف اكتشاف سفينة نوح التي يصعب إدراكها بالفكر. هذه السفينة التي أقامت جسراً فوق الثغرة الموجودة بين حضارة قبل الطوفان وحضارة بعد الطوفان. لقد خطر ببالنا على الدوام بأنها سفينة خشبية بسيطة حيث نستطيع التعرف على أبعادها القياسية بصورة تقريبية. لقد ساهمت في مناقشات عديدة حول المحتويات الممكنة الخاصة بالسفينة. ورغم أن هذه المناقشات كانت طويلة

وكانت مثاراً للفكر لم يخطر ببال أحد بأن نوح وأفراد عائلته كانوا ينتمون إلى جنس بشري متمدن حتى درجة رفيعة. إن مسائل تصريف النفايات والتهوية وجهاز التكييف والإضاءة والصيانة.. كلها قد اعتبرت موجة عرضية في هذا المجال.

لقد كان إجماع الرأي المألوف هو التالي: «لم تكن حضارتهم متقدمة كفاية، لتحقيق التكنولوجيا التي تتميز بالحذق والمهارة.. لا جدوى في البحث عن المستحيل».

هل جاز القول بأننا أخطأنا في كل ما ذهبنا إليه؟

بهذا المعنى وجب إلقاء نظرة على وصف الطوفان في سفر التكوين وفي وصف أداة النجاة ولزم أن نركز انتباهنا على مرجعين. في هذه الرواية نجد دلالتين بحيث تؤديان بنا إلى الاعتقاد بأن الكهرباء لعبت دوراً حيوياً في عملية صناعة سفينة نوح. لقد وجد مرجع في سفر التكوين ٨: ٦، حيث استخدمت الكلمة العبرية شالون أي الفُتحة، وتنسب هذه الكلمة إلى النافذة التي استعملها نوح لإطلاق سراح الطيور. وهناك مرجع آخر، وقد استعمل كلمة مختلفة وهي سوحار، وتعني النافذة لكنها لا تشير من حيث المعنى إلى النافذة أو إلى الفتحة اطلاقاً !. لقد استخدمت اثنتي عشرة مرة في العهد القديم، وكان معناها «اللمعان، التوهج، نور شمس الظهيرة». وتنسب مصادرها إلى شيء مثل اللمعان أو التألق.

هناك عدد وافر من المختصين اليهود بهذا المجال والذين ينتمون إلى المدرسة التقليدية حددوا كلمة سوحار بالعبارة التالية: «إنه النور الذي يستمد مصادره من مادة الكريستال البراقة». وظل التقليد العبراني لعدة قرون يصف سوحار كجوهرة ضخمة، أي تلك الجوهرة التي علقها نوح على روافد السفينة (والرافدة هي خشبة مائلة على جانب السطح)، والتي تحتوي على طاقة ذاتية وتنير السفينة بكاملها طيلة مدة السفر أثناء الطوفان.

يبدو مصدر نور نوح وقد احتفظ على حالته في التاريخ لمئات من السنين إذ نجد دلالات حول ذلك، إذ استعمل الملك سليمان هذه الطاقة حوالي عام ١٠٠٠ق.م. توجد مخطوطة يهودية قديمة بعنوان «ملكة سبأ وابنها الوحيد منيليك» التي ترجمها السير أ.أ. واليس بودج،

وتحتوي على هذا التصريح: «الآن إن دار سليمان الملك قد أصبح منوّراً كما لو أنه في النهار ذلك لأنه صنع بحكمته جواهر برّاقة تشبه الشمس والقمر والنجوم المعلقة في سقف داره».

بالمقابل لا عجب إن كتب سليمان بذاته هذه الكلمات ذات يوم: «لا يوجد شيء جديد تحت الشمس، هل يوجد أي شيء يمكن القول عنه بأنه جديد؟ لقد كان هذا الشيء دائماً يخص الزمن القديم الذي جاء قبلنا» (الإصحاح ١: ٩-١٠).

لقد ظهرت الكهرباء بهذا الشكل أو بذاك خلال قرون عديدة. استناداً إلى المؤرخ جوزيفوس غوريوندس Josephus Goriondes كتب الإسكندر إلى أستاذه خلال غزوه بلاد الفرس قائلاً بأن الجزيرة الموجودة على شاطئ بلاد الهند يسكنها أناس يأكلون السمك النيء وينطقون بلغة شبيهة باللغة اليونانية ويعتقدون بأن قايين وهو الابن الأكبر لآدم العظيم قد دفن في جزيرتهم. وتشير الرواية التقليدية التي تخص عهد قبل الطوفان إلى وجود برج عال، وكان هذا البرج قائماً على ضريح حجري، وذلك لحمايته بطريقة واضحة للعيان. وإذا ما حاول أي شخص الدنو من القبر، لقي حتفه بواسطة ومضة خاطفة من النور الصادرة من قمة هذا البرج. بالتأكيد لقد دمر كل شيء بواسطة الطوفان، ولكن قصة البرج والضريح ظلت حية وتنتقل من جيل إلى جيل في هذه الجزيرة منذ حدوث الكارثة الكبرى.

تُعتبر هذه الرواية التقليدية مثيرة للاهتمام، لأن قايين كان صاحب حرفة وصانعاً فنياً، وكان مخترعاً في عدة مهن يدوية. استناداً إلى علم الترتيب التاريخي التوراتي لقد توفي حوالي عام ٣٨١٩ ق.م. هذا يعني بأنه عايش تقريباً العصر الذي أعقب اكتشاف توبال قايين الخاص بفن التعدين. مع الاحتفاظ بمهارته المهنية استطاع قايين خلال السنوات التهامية المكملة بالنجاح المزج بين معرفة توبال قايين المتعلقة بخاصيات المعادن وبين معرفته الخاصة النابعة من مهارته الإبداعية، وهكذا أصبح الرجل الأول في اكتشاف واستخدام طاقات الكهرباء.

طبعاً إن مثل هذا الرأي لا يعتبر افتراضاً غير منطقي عندما يتبين لنا بأن طاقة

الكهرباء قد استخدمت بعد الطوفان بواسطة أشخاص محترفين وبواسطة صناع الذهب وصناع الفضة في مدينة بابل وفي بلاد فارس.

هناك نبذة إخبارية أخرى تتعلق بطاقة الكهرباء في عهد ما قبل الطوفان، وتنسب إلى نص سومري. وقد ذكره عالم الآثار الشهير «س. ن. كريمر» في كتابه «التاريخ يبدأ في سومر». يحدثنا هذا النص عن زيوسودرا (الملك وحافظ ذرية الجنس البشري) وعن كيفية تشييد المركب العملاق الذي استخدم خلال الطوفان الذي غمر اليابسة إن «زيوسودرا هو إكسوثروس برشوحا» نفسه والعجوز البابلي «أوتنابشتيم». ويحدثنا النص السومري أيضاً عن تحضير «زيوسودرا» للمركب العملاق وعن البطل «أوتو» وهو يحمل أشعة الشمس إلى المركب وذلك لجلب النور. إن أوتو يتوافق مع أوبورات – أوتو وفقاً لقائمة وولد بلندل السومرية الذي كان الملك الثامن بين الحكام العشرة في زمن قبل الطوفان، وهو المثيل التام لمتوشالح التوراتي. ويقول الأزمانيون التوراتيون (المختصون بترتيب الحوادث التاريخية) بأن قايين مكتشف الكهرباء توفي عام ٣٨١٩ ق.م، وبأن نوح مستخدم طاقة سوحار الكهربائية في السفينة قد ولد عام ٣٩٩٨ ق.م، وهذا يعني أنه لم يعاصر أحدهما الآخر، وأن قايين لم يكن هذا الشخص الذي ساهم في عملية صنع السفينة، غير أن متوشالح الذي كان يناهز ٥٤٨ عاماً عندما مات قايين والذي استمر في البقاء ٤٢١ سنة إضافة إلى السنوات المذكورة سابقاً كان بالتأكيد حاضراً خلال المرحلة التي تم فيها تشييد سفينة نوح.

لقد عاصر الاثنان معاً قايين ونوح، وجاز أن يكون الشخص الفردي الذي أوصل أسرار الطاقة الكهربائية إلى نوح. ويبدو أن طاقة الكهرباء لم تكن الطاقة الوحيدة التي تعرَّفَ عليها سكان زمن ما قبل الطوفان، نظراً لعدد وافر من الموجودات (الأوبارتز) والتدوينات التاريخية التي توحي بوجود مجالات واسعة من الإمكانيات الطاقية الكامنة التي استخدمت وقتذاك. يقول سفر التكوين ٦:١٤ «لقد طلب من نوح صنع سفينة مانعة لنفوذ الماء بطريقة مخصوصة.. يجب أن تطليها في الداخل والخارج بمادة القار». وكلمة القار المستعملة هنا هي كلمة عبرية وتعني كوفِر، ويعتقد بأنها تنسب إلى كلمة

كوبور الأشورية والتي تعني القار المعدني أو الزفت الرطب. الآن كما نعرف إن القار هو نتاج بترولي. لقد تكون هذا البترول الطبيعي بواسطة الرواسب النباتية والحيوانية التي كانت معرضة لحرارة هائلة ولضغط هائل. يعتقد علماء الجيولوجيا بأن هذه الحالة البترولية الطبيعية قد حدثت عندما دفنت أنماط الحياة التي تخص زمن قبل الطوفان أي دفنت بواسطة الطوفان.

غير أن رواية سفر التكوين تصرح بوضوح بأن نوح كان مضطراً إلى طلاء السفينة بطبقة من القار لجعلها مانعة لنفوذ الماء. مثل هذا التصريح أثار السؤال التالي: هل كان المنتوج البترولي شأن القار موجوداً قبل الطوفان؟. أجل ! لزم أن يكون موجوداً، وحتى لو لم يكن موجوداً بشكل طبيعي وجب أن نفترض بأنه قد أنتج صناعياً !!. ومثل هذا الافتراض يستوجب معرفة متطورة إلى درجة عالية في مجال الكيمياء، وبالأخص ميدان الهيدروجينات الفحمية.

إذا كان سكان زمن قبل الطوفان قادرين على معرفة كيمياء الهيدروجين الفحمي وإنتاجه، هذا يعني بأن سلسلة المنتوجات البترولية أصبحت معروفة لديهم انطلاقاً من المواد القارية المستعملة كمواد مانعة لنفوذ الماء (القار الخاص بسفينة نوح) وصولاً إلى المواد البلاستيكية وسواها من المواد الصناعية !!. والأهم من ذلك هو الأمر التالي: كانوا قادرين لزاماً على إنتاج زيوت التزليق الخاصة بالآلات ومحروقات المحركات!!!.

ومن باب الصدف تُنسب كلمة كيمياء إلى كلمة خيم Khem وهو الاسم القديم لأرض مصر أو أرض خام المشتقة من الكلمة التوراتية «حام» وهو أحد الأبناء الثلاثة لنوح.

ألا يعتبر هذا الأمر ضرباً من المصادفة؟

إننا لا نعرف من هو ابن نوح الذي نقل معرفة الكهرباء إلى الأجيال المتعاقبة، لكن الواقع يشير إلى أن هذه المعرفة ظلت باقية حية بعد حدوث الطوفان استناداً إلى البحث الحديث المتعلق بأسرار القدماء. وهذا البحث يؤكد على هذا الواقع ويعتبره أمراً بدهياً.

في عام ١٩٣٨ بدأ عالم الآثار الألماني دكتور وهلم كوينغ Wilhelm Koing

المكلف من قبل متحف الدولة في بغداد بالتفتيش والتنبيش دون هدف معين في الطابق الأرضي للمتحف إلى أن وقع بين يديه فجأة اكتشاف مذهب بحيث انقلبت رأساً على عقب جميع المفاهيم المتعلقة بالعصر القديم. لقد عثر على صندوق خزّان يحتوي على عدد من الأواني الفخارية التي يرجع تاريخها إلى ألفي سنة والتي تم استخراجها من رابية كوجيت وهي قرية جنوبي شرقي بغداد. تبدو الأواني عند إلقاء النظرة الأولى غريبة وغير مألوفة، وكان ارتفاع كل وعاء ستة إنشات، وقد وضعت داخل كل إناء قطعة نحاسية أسطوانية الشكل ويبلغ ارتفاعها خمسة إنشات وقطرها ١,٥ إنش، وتبدو أطراف الأشكال الأسطوانية ملحومة بخليطة معدنية من القصدير والرصاص بمقدار ٦٠/٤٠ والتي تطابق اللحام المستعمل في أيامنا الحاضرة. وكل قاع لهذا الشكل الأسطواني الملغز مغطى بأسطوانة نحاسية وقد طُلي بالقار أو الإسفلت، وهناك طبقة قارية أخرى تكسو رأس الإناء وكانت تُستخدم أيضاً لتثبيت القضيب الحديدي في مكانه والمعلق في وسط الشكل الأسطواني النحاسي. ويبدو أن القضبان الحديدية أصيبت بالتآكل بسبب المحلول الأسيدي الذي تبخر منذ مدة طويلة.

لقد استنتج د. كوينغ فوراً استناداً إلى علمه الميكانيكي بأن هذا الشكل العام المصنوع من النحاس والحديد والأسيد لم يتم تركيبه بالصدفة، وأدرك بأن هذه الأواني الفخارية ما هي إلا خلايا كهربائية قديمة. وبعد الحرب العالمية الثانية ازداد هذا التحقق صلابة، عندما صنع المؤرخ العلمي ويلي لي Willy Ley نسخة مطابقة لخلايا الإناء الفخاري القديم (وقد تعاون مع هذا العالم عالم آخر ويدعى ويلارد غراي Willard Gray وينتسب إلى مختبر جنرال إلكتريك في بليتسفيلد – ماساشوستس) عندما جمع العالمان كبريتة النحاس الأحمر والحامض الحمضي (وهذه العناصر كانت معروفة جيداً منذ ٢٠٠٠ سنة) اكتشفا الأمر التالي: لقد أنتجت الخلايا ما بين ١,٥ و ٢ فولت من الكهرباء (والفولط هي وحدة القوة الحركية الكهربائية). هذا التيار الكهربائي الناتج عن هذه الوسائل نفسها لم يكن ممكناً في حضارتنا الحديثة قبل عام ١٨٠٠م. لقد تم اكتشاف العدد الوافر من الخلايا الكهربائية المماثلة. لقد عثر على أربع أواني فخارية مماثلة تحتوي على أشكال أسطوانية نحاسية وكانت مدفونة تحت التراب، وقد اكتشفت في كوخ يخص

ساحراً قرب تلة عمر، أيضاً قرب بغداد. ولقد عثر أيضاً على قضبان نحاسية وحديدية، وهذا يعني أنها كانت تستخدم لإيصال الخلايا بشكل مجموعات وتشكيل البطارية وذلك لإنتاج القوة الفولطية بشكل أقوى. كذلك تم اكتشاف عشر خلايا في كتيسفون أيضاً بجوار مدينة بغداد على أيدي البروفيسور أ. كهنول من متحف ستاليخس في برلين. لقد عثر على هذه الخلايا محطمة داخل أجزائها الأصلية. هذا يعني بأنها كانت مصنوعة ضمن كتلة واحدة. وقد اضطر صانعها للتوقف عن العمل قبل تجميع الأجزاء وتحويلها إلى بطاريات شغالة.

إن البطاريات القديمة التي اكتشفت في متحف بغداد وفي مكان آخر بالعراق يرجع تاريخها إلى زمن الاحتلال الفارسي اي بين ٢٥٠ ق.م – ٦٥٠م، غير أن الأغراض المطلية بالفضة بطريقة التحليل الكيماوي الكهربائي التي تستوجب استعمال نمط معين من البطارية تم اكتشافها في العراق بين الأطلال البابلية التي يرجع تاريخها إلى ألفي سنة قبل الميلاد. يبدو بأن الفرس وفيما بعد الحرفيين في بغداد قد ورثوا هذه البطاريات ونقلوها من أقدم الحضارات في الشرق الأوسط إلى سائر الحضارات في العالم.

وتم العثور أيضاً على مثل هذه الأغراض المطلية بالفضة بطريقة التحليل الكيميائي في مصر بواسطة عالم الآثار الفرنسي المشهور في القرن الـ ١٩ أوغست ماريت August Mariette. حصل ذلك عندما جرى التنقيب في فسحة خاصة بأبي الهول في الجيزة. لقد عثر العالم ماريت على عدد من المصنوعات اليدوية القديمة على عمق ٦٠ قدماً. وفي القاموس العالمي الكبير الخاص بالقرن التاسع عشر وصف هذه المصنوعات اليدوية القديمة بالشكل التالي: «إنها قطع من الجواهر الذهبية والتي استناداً إلى شكلها الرقيق ووزنها الخفيف تجعل الإنسان يعتقد بأنها مصنوعة بواسطة الطلاء بالفضة بطريقة التحليل الكهربائي الكيميائي وهي تقنية صناعية توصلنا إلى استخدامها منذ سنتين أو ثلاث فقط».

وهناك أصقاع عديدة من العالم قد ورثت الحكايات الوفيرة المتعلقة بهذه الأمور الغريبة والتي لا يمكن تفسيرها علمياً. ومعظم هذه الحكايات يرجع جذورها إلى الطاقة

الكهربائية في إيران الغربية وحديثاً غينيا الجديدة حيث توجد قرية قرب جبل ولهلمنيا فيها تخطيط لإنارة صناعية وتضاهي من حيث اللمعان أي نظام نملكه في عالمنا الغربي. تقول رسالة مستعجلة من يونايتدبرس عام ١٩٦٣ «استناداً إلى كلام الزوار الذين قصدوا القرية: لقد أصيبوا بالدهشة والذهول عندما رأوا عدة أقمار معلقة في الفضاء وتبث لمعاناً شديداً. ووصف زوار آخرون هذه الأقمار قائلين بأنها طابات صخرية أخذت تلمع لمعاناً شديداً وبصورة سحرية عندما توارت الشمس وراء الأشجار والنباتات المتداخلة المتشابكة في الأدغال. لقد كانت مرفوعة على أعمدة طويلة وكانت تعكس بريقاً ضوئياً على القرية بأسرها. وفي عام ١٦٠١ وصف باركو سنتيرا هذه الظاهرة المذهلة بالطريقة نفسها، عندما تحدث في كتابه عن اكتشاف الغزاة في مدينة غرانموكسو قرب ينبوع نهر برغواي في بلنالتو دو ماتو غروسّو، فقد كتب ما يلي: «على قمة عامود يبلغ ٧,٧٥ متراً كان يوجد قمر كبير وكان ينير البحيرة بكاملها مبدداً الظلام».

إننا نعلم بفضل التدوين التاريخي بأن مثل هذا السر الخاص بالمجتمعات العبرانية (الأصح القول اليهودية) مثل الكابالاه، إنما يحتفظ لنفسه بالمعرفة الخاصة بالكهرباء لمدة طويلة تماثل الحقبة المتعلقة بالقرون الوسطى.

يسجل إليفاس ليفي في كتابه «تاريخ السحر» قصة كاهن يهودي فرنسي ملغز (تكتنفه الأسرار الغامضة) ويدعى جيكييل، وكان مرشداً في بلاط الملك لويس التاسع في القرن الثالث عشر، يقول معاصروه بأنه كان يدهش الملك بمصاحبه المبهر الذي يستنير من تلقاء ذاته. لا يحتوي المصباح على زيت أو فتيلة، وكان جيكييل يضعه أمام داره كي يراه الجميع أما ما هو سر مصدر طاقة هذا المصباح.. لم يفصح عنه أبداً الكاهن اليهودي.

واستعمل جيكييل أداة آلية أخرى لحماية نفسه، وكانت عبارة عن مقرعة باب، وكانت هذه الأداة تسبب خوفاً شديداً لأعدائه. يقول المؤرخون في القرن الثالث عشر وهم يصفون هذه الطريقة: كان يلمس مسماراً مثبتاً على جدار غرفة الدراسة، وفجأة كانت تنطلق شرارة ضاربة إلى الزرقة مع فرقعة، متجهة إلى مسافة بعيدة. والويل للشخص الذي يلمس المقرعة الحديدية في تلك اللحظة. سوف ينحني من شدة الألم،

وسوف يصرخ كأنه احترق، وسوف يركض بعيداً بأقصى سرعة ممكنة. يبدو بأن جيكييل كان يستعمل زراً بحيث يرسل تياراً كهربائياً إلى داخل المقرعة الحديدية المثبتة على بابه.

يبدو بأن القدماء كانوا يملكون مصادر كثيرة للنور أكثر مما نتصوَّر. وهناك عدة دلائل تشير إلى حقيقة هذا الأمر. عندما فتح ضريح بالاس قرب روما في بداية عام ١٤٠٠م تبيَّن بأنه كان منوراً بواسطة مصباح. وقد جعل المصباح داخل الضريح مضاءاً لمدة ٢٠٠٠سنة. كتب بوزانيوس الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد ما يلي: «كان يملك هيكل منيرفا ضوءاً بحيث يستمر شعاعه لمدة سنة على أقل تعديل. ويقول سانت أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م) بأن الهيكل المصري أهدى إلى إيزيس مصباحاً مضيئاً بحيث لا يستطيع إطفاءه لا ريحٌ ولا ماء.

كنا نملك فقط الشموع والمشاعل ومصابيح الزيت والمصادر الضوئية التي تسبب الدخان وتترك سناج السراج أو السخام معلقاً على السقوف. قبل اكتشاف النور الكهربائي عام ١٨٩٠ م. غير أنه لا يوجد أي أثر للدخان داخل أهرام مصر أو داخل القبور الموجودة تحت الأرض والتي تخص الفراعنة في وادي الملوك. لقد خطر في بال العلماء بأن المصريين استعملوا نظاماً معقداً من العدسات البللورية والمرايا، وذلك لجلب نور الشمس إلى داخل حجرات الدفن، ولكن لم يتم اكتشاف مثل هذه البقايا التي تخص مثل هذا النظام. بالفعل هناك عدد من القبور القديمة التي تملك السراديب والممرات الضيقة بحيث تبدو معقدة جداً بالنسبة لنظام المرآة لكي يجلب النور الكافي داخل الحجرة. إن البديل الوحيد في هذا المجال هو التالي: كان المصريون يملكون مصدراً ضوئياً بدون دخان. ما دام المصريون يمتلكون وصولاً إلى الطلي بالذهب بطريقة التحليل الكيماوي الكهربائي (أي ذهب الجواهر) كما اكتشف ذلك العالم الفرنسي ماريبت. هذا يعني بأنهم كانوا قادرين أيضاً على استخدام هذا النظام الكهربائي في إنارة قبورهم.

ما هو مقدار مهارة وحذق المصريين في مجال معرفة واستخدام الكهرباء؟

في الغرفة ١٧، في الهيكل المصري دندرة الذي تم تشييده خلال عصر بطليموس، وقد شيّد خصيصاً للإلهة معبودة الجمال هاتور، وقد حفرت على الجدار صورة ملغزة

جداً، لم يتوصل المختصون بالآثار المصرية إلى تفسير معنى هذه الصورة باصطلاحات دينية أو ميثولوجية. غير أن عدداً وفيراً من المهندسين المختصين بالإلكترون يعتقدون بأنها تحتوي على معلومات ذات طبيعة مختلفة جداً.

أولاً – يظهر عند طرف الجهة اليمنى صندوق حيث تجلس على قمته صورة الإله المصري حورس. ويوجد على رأسه رمزه وهو أيضاً رمز الطاقة الإلهية وهو قرص الشمس. وهذا يرمز إلى أن الصندوق هو مصدر الطاقة.

وقد علق بالصندوق حبل غليظ مجدول، واعتبره البروفسور جون هاريس J. Harris وهو مهندس مختص بالمغناطيسية الكهربائية النسخة الفعلية الصحيحة للاستخدام الهندسي الذي يستعمل حالياً في تمثل حزمة الأسلاك الكهربائية التوصيلية. ينطلق هذا الحبل الغليظ من الصندوق مجتازاً أرضية الصورة بكاملها وينتهي عند أطراف غرضين. وهذان الغرضان يلتزمان شكلاً خاصاً ومميزاً كل التمييز. وكل واحد منهما مثبت على عامود، واعتبره البروفسور هاريس الجهاز العازل للفولطية العالية. ويبدو كل واحد من الغرضين خاضعاً للكاهن المصري الذي يهتم بتشغيله.

يبدو الغرضان الموجودان في الصورة شبيهين جداً لأنابيب جهاز التلفزة، ولا يمكن التحرر من هذا الانطباع عند إلقاء نظرة عليهما ذلك لأن التقني الإلكتروني ن. زيكاريوس N. Zecharius رأى بأن هذا النظام بشَّر بولادة أنبوب التلفزة الحديث.

بعبارات مبسطة نقول بأن أنبوب كروكس يتضمن خواءً (أي خلاءً تاماً) الموجود داخل وعاء زجاجي، وحيث يتولد شعاع فلوري من الإلكترونات. عندما يعمل الأنبوب ينبثق الشعاع من حيث يدخل سلك القطب السالب في الخلية الكهربائية إلى الأنبوب ومن هناك ينتشر الشعاع على طول الأنبوب حتى الطرف المقابل. في صورة الهيكل يمثل الشعاع الإلكتروني حية مشبوحة، يبدأ ذنب الحية حيث يدخل الأنبوب الحبل الغليظ الصادر عن صندوق الطاقة بينما رأس الحية يلمس الطرف المقابل له. وفي الفن المصري كانت تعتبر الحية رمز الطاقة الإلهية.

تشير صورة الهيكل إلى وجود قناة واحدة على الطرف الأيسر من الصورة، ويبدو بأن



التشغيل يتم تنفيذه في أحوال عادية ولكن بالنسبة للأنبوب الثاني الموجود قرب صندوق الطاقة عند جهة اليمين، تظهر للعيان تجربة شيقة. يعتقد مايكل ر. فريدمان M. R. Freedman مهندس مختص بالكهرباء وبالمغناطيسية الكهربائية بأن القرص الشمسي الموجود على رأس حورس هو المولد الكهربائي المعروف باسم فاندوغراف. وهو الجهاز الذي يجمع الكهرباء الساكنة. ولقد تم تصوير القرد الكلبي (أو القردوح) وهو يحمل سكيناً معدنيّاً بين القرص الشمسي فاندوغراف والأنبوب الثاني. وفي ظروف حالية جاز أن تسبب الشحنة الساكنة المكونة فوق السكين انطلاقاً من المولد الكهربائي شعاعاً إلكترونياً داخل أنبوب كروكس وسيتحول من مساره الطبيعي، ذلك لأن الشحنة السالبة للسكين والشحنة السالبة للشعاع سوف يتنافران. في صورة الهيكل يبدو رأس الحية في الأنبوب الثاني متجهاً بعيداً عن نهاية الأنبوب كما لو أن السكين في يد القردوح قد صدّه وأبعده.

عندما ينظر الإنسان إلى صورة الهيكل نظرة شاملة، يتبين له أن كل مصدر إنما يجسد خاصية هامة من تجربة علمية جادة. إن الأنبوب المرسوم مع حية مستقيمة هو أنبوب المراقبة (أو الأنبوب الذي يعمل في أحوال سوية، على سبيل المقارنة) بينما الأنبوب الآخر المرسوم مع الحية المنفرة هو الأنبوب التجريبي (أو الأنبوب الذي فرضت عليه أحوال جديدة)، حتى استخدام القردوح والاستعانة به للإمساك بالسكين هذا يعني أن المصريين كانوا مدركين أهمية وفعالية الطاقات الكهربائية التي كانوا يتعاملون معها وكانوا لا يجازفون بالتعامل معها بصورة مباشرة، عند القيام بالتجربة.

لم يكن أنبوب كروكس يبشر بولادة جهاز التلفزة فقط ولكن بولادة كشاف الإسفار (فلوروسكوب) وهو الجهاز الذي يستخدم أشعة × لتشخيص العلل الداخلية. لا نملك حالياً برهاناً حول امتلاك المصريين لهذا الكشاف، ولكننا نملك الدلائل التي تؤكد بأن الهنود والصينيين قد امتلكوه فعلاً.

هناك هندي عاصر بوذا، وهو فيزيائي وكان يدعى جيفاكا، وكان يلقب باسم ملك الأطباء، وعاش حوالي عام ٥٠٠ ق.م، دوَّن ما يلي: «كان يملك جوهرة مصقولة وكان

يستعملها لتشخيص الأمراض. وعندما يوضع المريض أمام هذه الجوهرة كان النور يبعث من جسمه مثل المصباح وهو ينير جميع الأشياء في الدار، وبهذه الطريقة كان الطبيب يكتشف طبيعة مرضه».

لقد اختفت الجوهرة السحرية التي تخص جيفاكا في التاريخ، ولكن بعد ثلاثة قرون تم في قصر هيين يانغ في شنسي اكتشاف مرآة ثمينة بحيث تنير عظام الجسد. كانت المرآة مستطيلة الشكل، وكان مقياسها ٤×٥ أقدام، وكانت تولد نوراً غريباً عند الجانبين. وإن رؤية أعضاء الجسم التي تقدمها المرآة لا يمكن أن يعترضها أي حاجز آخر. هذا يعني بأن هذا الشعاع هو نموذج الطاقة الاختراقية التي تخص أشعة X.

هل من المعقول بأن بعض هذه المصادر الضوئية كانت تستعمل مناهج الطاقة التحويلية مثل الكهرباء أو هل كانت تستخدم مناهج أكثر غرابة؟. يبدو من الممكن بأن القدماء عثروا على وسائل لتسخير الطاقة الذرية وذلك لإنارة مساحات صغيرة. أليس هذا الأمر معقولاً؟.

في أيامنا الحالية نعتبر بأن الطاقة الذرية ستكون المصدر الهام للطاقة لأجل المستقبل، ولكن توجد دلالات بحيث تؤكد بأن الطاقة الذرية لم تكن جديدة.

في ٢٥ أيلول ١٩٧٢ قدم الدكتور فرانسيس بيران F. Perrin وهو رئيس البعثة الفرنسية العليا للطاقة الذرية تقريراً للأكاديمية الفرنسية للعلوم حول اكتشاف البقايا التي تخص رد الفعل المتسلسل النووي المتعلق بعهد ما قبل التاريخ. وبدأت التلويحة الأولى للدكتور بيران عندما لاحظ العمال في مركز الإغناء باليورانيوم الفرنسي أن خام مادة اليورانيوم ٢٣٥ وذلك في المنجم الجديد في أوكلو الذي يبعد ٤٠ ميلاًعن فرانسفيل في الغابون في إفريقيا الغربية جميع الموجودات المترسبة من اليورانيوم في العالم تحتوي اليوم على ٠,٧١٥ ٪ من مادة u-235 ولكن منجم اليورانيوم في أوكلو يشير إلى مستويات منخفضة بحيث تبلغ ٠,٦٢١٪. بهذا لا يوجد سوى تفسير واحد بخصوص فقدان u-235. هذا يعني بأن هذه المادة قد أحرقت في رد الفعل المتسلسل Chain Reaction.

لقد بدا الاستنتاج بدهياً عندما اكتشف الباحثون في المركز الذري الفرنسي في

كدراش أربعة عناصر نادرة:

- نيو دينيوم وهو عنصر معدني أبيض فضي سام.
- سماريوموهو عنصر معدني فضي اللون (يستعمل في الخلائط المعدنية لصنع المغناطيس الدائم).
- أوروبيوم وهو عنصر معدني لين وبلون فضي.
- سيريوم وهو عنصر معدني قابل للمطل بلون الفولاذ الأشهب.

وهذه العناصر هي نموذجية بحيث تشبه الفضال الناتج عن انشطار اليورانيوم !. ختم د. بيرين قراره معتقداً بأن مادة يورانيوم أوكلو قد انتابها رد فعل متسلسل نووي، والذي ظهر بصورة عفوية استناداً إلى أسباب طبيعية. عندئذ قُدِّر تاريخ ترسبات يورانيوم أوكلو من الناحية الجيولوجية بمقدار ١,٧ بليون سنة. واقترح الدكتور بيرين قائلاً: «حدث ذلك عندما حدث رد الفعل ذلك لأن اليورانيوم كان في أنقى حالته وأصفاها».

بعد إعلان التقرير الذي يخصُّ «د. بيرين» عن طريق أكاديمية العلوم الفرنسية، احتدم النقاش، وطرحت عدة أسئلة حول نتائجه من قبل عدة خبراء. أما «غلين ت. سيبورغ»، وهو رئيس بعثة الطاقة الذرية في الولايات المتحدة والحائز على جائزة نوبل بخصوص عمله المتعلق بالتركيب المزجي للعناصر الثقيلة، فقد أشار إلى النقطة التالية: كي يتم احتراق اليورانيوم في الرد الفعل، يجب أن تكون الأحوال والشروط صحيحة تماماً (أو متوافقة بدقة). يتطلب هذا الأمر ماءً كي يقوم بدور المثبط (وهي مادة مبطئة لعملية الانشطار النووي)، وافترض العالم الأمريكي وجود المثبط وذلك لإبطاء النيوترونات المتحررة عند انشطار كل ذرة يورانيوم وذلك للحفاظ على رد الفعل المتسلسل. (والنيوترون هي جزئية في الذرة لها كهربائية متعادلة وكتلتها بقدر كتلة البروتون). ولزم أن يكون هذا الماء نقياً جداً حتى الأجزاء القليلة بنسبة المليون لأي مادة ملوثة، سوف تسمم رد الفعل وتجعله يتوقف. والمشكلة هي التالية: لا يوجد ماء بمثل هذه النقاوة بصورة طبيعية في أي مكان في العالم !.

وذكر د. برين اعتراضاً ثانياً بتقريره، ويتعلق بمادة اليورانيوم بالذات. لاحظ كثيرون من الاختصاصيين في هندسة الرد الفعل المتسلسل الأمر التالي: لم يوجد إطلاقاً في أي زمن في التاريخ الجيولوجي الخاص برسوبات أوكلو خام اليورانيوم الغني بشكل كاف بـ 235 u كي يحدث رد الفعل الطبيعي، حتى ولو افترضنا بأن البقايا المترسبة قد تكونت أولاً بسبب المعدل البطيء للانحلال الإشعاعي الناشط لمادة 235 u، فسوف تكون المادة القابلة للانشطار النووي فقط ٣٪ من هذه البقايا المترسبة. وهذا معدل بطيء جداً بالنسبة للمستوى المطلوب للاحتراق. هذا يعني، كي يحدث رد الفعل المتسلسل جاز أن يكون اليورانيوم الأصلي أغنى بكثير فيما يتعلق بالعنصر 235 u، أي أكثر من معدل التكوين الطبيعي الذي يتكون أصلاً في الطبيعة. هكذا يبدو لنا بأنه لا يمكن تفسير رد الفعل المتسلسل النووي ولا يمكن اعتباره أمراً بدهياً استناداً إلى الوسائل الطبيعية. إذا كانت الطبيعة غير مسؤولة، إذاً لزم أن يتم توليد رد الفعل اصطناعياً. هل يمكن أن يكون يورانيوم أوكلو هو الفضالة الناتجة عن المفاعل النووي الذي يخص زمن قبل الطوفان وقد دمره الطوفان ثم ترسب مرة أخرى في إفريقيا الغربية؟.

يقول العالم الفيزيائي فريدريك صودي F. Soddy في حديثه عن المعرفة المختصة بالفيزياء الذرية استناداً إلى الخرافات والأساطير القديمة في الصفحة ١٨٢ من كتابه تفسير الراديوم (نيويورك ١٩٢٠): يميل المرء إلى التساؤل التالي: ما مدى التوافق الذي لا يُرتاب فيه لبعض هذه المعتقدات والأقوال مع وجهة النظر المكتشفة حديثاً، هل هي نتيجة الصدفة المحضة أو التطابق العرضي، وما مدى صحة الحضارة القديمة التي لا يُرتاب فيها، حيث توارت فيها مخلفات أخرى.

إن التفكير في الأساطير المميزة التي تخص حجر الفلاسفة هو أمر مثير حقاً، ويتعلق هذا التفكير بأقدم المعتقدات في العالم والأكثر شمولية، غير أننا إذا حاولنا الرجوع إلى الوراء عبر تسجيلات الماضي، لن نتوصل إلى اكتشاف مصدره الحقيقي. كان حجر الفلاسفة يتمتع بقدرة تحويل المعادن، ولم تقتصر قدرته على هذا فقط بل تجاوزها كي يقوم بدور إكسير الحياة (أي يبقيها على الدوام). والآن رغم أن مصدر مجموعة هذه الأفكار

يبدو تافهاً، جاز القول بأننا نتقيد حالياً بالتعبير المجازي لهذه الرؤية التاريخية. في وقتنا الحاضر لا يتطلب الأمر المجهود الزائد من الخيال كي نلاحظ الطاقة الكامنة في حياة الكون الفيزيقي، وبأن مفتاح المناهل الفيزيقية للكون الفيزيقي في الوقت الحاضر يعرف بمصطلح التصيير (أي تحول الجوهر إلى جوهر غيره). وهل يعتبر هذا الترابط بين قدرة التصيير مع قدرة إكسير الحياة، ضرباً من المصادفة المحضة؟. أفضل الاعتقاد بان الأمر هو الصدى لعدة أحقاب أولية في التاريخ غير المدوَّن الذي يخص الكون والذي ينسب إلى عهد الكائنات البشرية التي سلكت الطريق قبل أن نسلك نحن هذا الطريق في وقتنا الحاضر، الأحقاب التي تخص الماضي السحيق الموغل في القدم بحيث استطاعت ذرات حضاراتها السحيقة أن تحصل على الوقت الكافي للانفراط والانحلال.

عكس ما ذهب إليه المؤرخون التقليديون يبدو بأن أجدادنا القدامى ورثوا معرفة رفيعة المستوى من حيث الحذق والمهارة أي المعرفة المختصة بالقيانة (وهي حرفة صنع الأشياء من المعادن) منذ حضارة أولية وباكرة جداً لم يمر زمن طويل عندما اكتشفت زخارف تخص عصر إينكا بيرو وأغراض أخرى مصنوعة من البلاتينيوم. مثل هذا الاكتشاف يجعلنا نطرح أسئلةً جدية حول مشكلة جدية ذلك لأن إذابة البلاتينيوم تتطلب حرارة تعادل ١٧٧٥ درجة سلسيوس ولا نملك حاليا جواباً وافياً حول التساؤل التالي: كيف كان أهل البيرو القدامى قادرين على توليد مثل هذه الحرارة؟.

منذ سنوات قليلة تم في الصين اكتشاف رباط معدني مزخرف بنسيج مخرم. تم اكتشافه في مدفن يخص الجنرال الشهير للسلالة الحاكمة «شن ويدعى شوه – شو» الذي عاش عام ٢٦٥ حتى ٣١٦م. فحص الرباط معهد الفيزياء التطبيقية التابع لأكاديمية العلوم الصينية كذلك فحصه معهد البوليتكنيك دونبا. لقد أظهرت التحاليل بأن معدن الرباط هو خليطة معدنية مكونة من ٥٪ من المنغنيز (وهو معدن أشهب اللون يشبه الحديد ولكنه لا يمغنط) و ١٠٪ من النحاس الأحمر و ٨٥٪ من الألمنيوم. علمًا بأن الألمنيوم تم اكتشافه عام ١٨٠٣ ولم يتم صنعه بنجاح بشكل نقي إلا عام ١٨٥٤. وفي يومنا الحاضر إن عملية استخراج الألمنيوم من مادة البوكسيت معقدة جداً وتستوجب

استعمال الفرن العاكس رفربير والحجرة الإنكسارية ومولد الحرارة ريجينريتر، كذلك المحلل الكيماوي للكهرباء بالإضافة إلى درجات الحرارة التي تتجاوز ٩٥٠ درجة سلسيوس (وسيلسيوس هو ميزان الحرارة المئوي). لا بد من طرح السؤال التالي: من أين اكتسب الصينيون معرفة هذه العناصر التي تخص تكنولوجيا القرن العشرين في القرن الثالث؟. من الممكن أنهم امتلكوا معرفة طرائق توليد الألومنيوم التي ما تزال مجهولة حتى يومنا الحاضر.

يبدو بأن الفلسطينيين القدامى كانوا اختصاصيين في إتقان تقنيات تقسية المعدن.

لقد قدم هذه الملاحظة المتعلقة بالتمثال الفلسطيني البرونزي بعل البروفسور كليفور ويلسون.

بينما كان يعمل لحساب المعهد الأسترالي في علم الآثار، اختفت ساق للتمثال. وعندما طلب من الحرفيين في التصنيع المعدني إضافة ساق حديثة، أصابتهم الدهشة عندما اكتشفوا أنهم لا يستطيعون صنع نسخة ثانية مطابقة للساق البرونزية الأصلية.

لقد انتابهم الجزع والإحباط عندما تبين لهم بأن هذا المعدن يتمتع بتقسية لا تضاهيها أية تقسية أخرى.

كذلك تم اكتشاف قطع كبيرة من الأشياء المنبوذة القديمة التي تشير إلى تقنيات متقدمة في تقسية المعادن. وقد تم اكتشاف مثل هذه الأغراض في أجزاء أخرى من العالم. هناك في باحة كوتب منيار في دلهي في بلاد الهند ينتصب عامود أشوكا، وهو عامود حديدي يزن تقريباً ستة أطنان وارتفاعه ٢٣ قدماً وثمانية إنشات، ويبلغ قطره ١٦ إنشاً. ينتصب العامود في وسط هيكل ميترا بينما ثبت على رأسه غرودا، وهي صورة لطير يرمز إلى تقمص الإله فشنو... وقد أُعيد نصب العامود في دلهي في القرن الحادي عشر. كم طالت مدته في هيكل ميترا؟. لا يمكننا تأكيد ذلك. إنه يتضمن كتابة تأبينية موجهة إلى الملك سنغروتا الثاني الذي مات عام ٤١٣م. هذا يعني بأن الزمن يعادل ١٥٠٠ سنة أو أكثر من ذلك بقليل.

إن العامود الحديدي يشكل لغزاً حقيقياً ليس فقط بسبب حجمه الضخم ولكن بسبب عمره. إن قطعة عادية من الحديد مصنوعة حوالي عام ٤١٣ م لزم أن تُصاب بالتآكل وأن تختفي وأن تنقرض منذ زمن طويل، وهي معرضة لحرارة بلاد الهند العالية وللأمطار الغزيرة. غير أن العمود الحديدي أشوكا يشير فقط إلى آثار من الصدأ، وإن وجوده بعد ١٥٠٠ سنة هو شهادة لعلم مجهول فيه الحنكة والمهارة، أي هذا العلم الذي امتلكه القدامى. لزاماً هناك عمود حديدي آخر هام يوجد في كوتنفورست ويبعد بضعة أميال غرب مدينة بون في ألمانيا. ويعرف محلياً باسم الرجل الحديدي له مظهر القضيب الحديدي المربع، ويعلو أربعة أقدام وعشرة إنشات فوق الأرض، ويقدر قياس القطعة الموجودة تحت الأرض بعشرة أقدام.

لقد ذكر هذا العامود الحديدي في البداية في وثيقة تخص القرن الـ ١٤ حيث وصف كعلامة لحدود القرية ولكن يبدو أن ذلك العامود هو أقدم بكثير. يضاف إلى هذا الرجل الحديدي حجر قديم يخص ممرًّا وبقايا لمجرٍّ ماءٍ في أنبوب يتجه مباشرة نحو العامود. إن عامود الرجل الحديدي في كوتنفورست يشبه العامود الحديدي في بلاد الهند ويشير إلى بعد التفسيخ بفعل الجو ولكنه يتضمن أثراً قليلا جداً من الصدأ. كما أنه توجد بعض النقاط البدهية التي تشير إلى المستوى التكنولوجي الخاص بزمن قبل الطوفان الذي يعتبر منافساً لمستوانا الحالي كذلك توجد دلالات جدية في بعض المناطق التي تدخل ضمن دائرة المعرفة التي تنافس أيضاً مستوانا العلمي الحالي.

إن أحد أعظم الألغاز الموجودة في العالم هو اللغز الذي يحتويه **هرم خوفو** والمعروف باسم الهرم الأكبر الموجود عند الشط الغربي من النيل بالجيزة، أي على بعد مسافة قصيرة من القاهرة. لقد تم تشييده في بداية المملكة القديمة حوالي ٨٠٠ سنة بعد الطوفان!!. ولقد فهم ما مفاده أنه موضع الاستراحة الأخير لفرعون، ولكن هذا الرأي غير مؤكد بصورة حاسمة. إن دور الهرم كضريح، لم يوافق على هذا الرأي معظم الباحثين والمؤرخين. لقد ذهب الكثيرون إلى القول بأن هذا الجبل الذي صنعه الإنسان من كتل حجرية يبلغ عددها مليونين وثلاثمائة ألفاً لزم أن تكون وظيفته أبعد بكثيرٍ من وظيفة

الضريح المشيد لحاكم قديم. ابتداءً من القرن الرابع بعد الميلاد، أي منذ المؤرخ الروماني إميانوس مارسلونوس Ammianus Marcellinus وصولاً إلى القرن التاسع أي حتى ظهور العالم العربي ابن عبد الحكيم دوَّن الكتاب الأسطورة بالشكل التالي: يوجد في أعماق كتلة الهرم غرف سرية تحتوي على معلومات سرية خاصة لحضارة منسية. لقد تم اكتشاف هذه الغرف المتعددة وتم تنقيبها وتفتيشها تماماً ولكن لم يعثر على أي شيء هام، حتى لم يعثر على الجثة المحنطة (المومياء) التي شُيِّد الهرم لأجلها، غير أننا نعرف الآن بأن هذه الأساطير القديمة تحتوي على شيء من الحقيقة، لأنّ المعرفة السرية غير موجودة أصلاً في أيّة غرفة خفية إذ يعتقد أن الهرم ذاته يحتوي على المعرفة السرية.

لقد زار الإهرام الملغزة عدد وافر من العلماء في الماضي وفي الحاضر. وقد سجل عدد من هؤلاء الرجال ظواهر غير مألوفة مرتبطة بهرم الجيزة الكبير.

لقد سافر المخترع البريطاني الكسندر سيمنس إلى مصر لمشاهدة الهرم، وكان يرافقه دليل عربي، فتسلقا إلى أعلى قمة. عند وصولها إلى القمة، قال له الدليل بأنه سوف يسمع قرع أجراس في أذنيه، كلما اقترب من الأعلى ورفع يديه والأصابع ممدودة. لقد فعل سيمنس ما قال له الدليل العربي، ولكن بدلاً من أن يسمع أي شيء انتابه إحساس التوخز والقشعريرة. عندها تنبَّه إلى وجود الكهرومغناطيسية في هذا المكان. على الفور تناول الجريدة التي كان يحملها معه ثم بللها بالنبيذ الموجود في قنينته، ثم غلف القنينة الفارغة بهذه الجريدة. بهذه الطريقة استطاع أن يصنع نموذج شيشة لندن (وعاء زجاجي مغلف من الأسفل ومبطن بورق رقيق من القصدير) وهي الأداة الآلية التي تجمع الطاقة الكهربائية. وضع الجهاز فوق رأسه فلاحظ بأنه أصبح مشحوناً بشكل متزايد إلى درجة بات يُرسل الشرر منه (أو الومضات). وبما أن الدليل العربي لم يكن يعرف شيئاً حول الكهرباء اتهم رفيقه السائح بممارسة السحر الشيطاني وحاول أن يقبض على سيمنس بذراعه. في تلك اللحظة أنزل سيمنس القنينة ووجه الشرر الكهربائي نحو الرجل، فأصيب الدليل بصدمة كبيرة وبقوة شديدة بحيث قذف فجأة نحو الأحجار التي كان واقفاً عليها.

عندما استعاد الدليل وعيه واستفاق من الصدمة الراعبة، انطلق بسرعة نحو الأسفل مبتعداً عن الكتل الحجرية الغدّارة التي تخص الهرم وقد ارتسم الخوف على وجهه بصورة واضحة. التفت إلى الوراء وألقى نظرة مليئة بالرعب ثم توارى عن الأنظار.

استنتج سيمنس أن الهرم قد أفرغ سيلاً قوياً من التيار الكهربائي المغناطيسي.. أما لماذا حصل ذلك فلم يستطع الإجابة عن هذا السؤال.

لقد أجريت تجربة حديثة في الهرم الكبير المجاور للهرم سفرن الذي يحتوي على لغز السيل الطاقي.

في عام ١٩٦٨ أشرف فريق من العلماء القادمين من جامعة عين شمس قرب القاهرة على تجربة، وذلك لقياس الأشعة الكونية التي تمر خلال الهرم. كان هدف التجربة تحديد النقطة التالية: هل توجد غرف لم يتم اكتشافها بعد وما زالت موجودة داخل الهرم، ذلك لأن الأشعة الكونية تصيب الهرم بشكل موحَّد ومن جميع الاتجاهات؟. وإذا كانت توجد سراديب مخفية فسوف يتوصل الفريق الاكتشافي إلى التحقق من وجود قوة مختلفة صادرة عن تلك الأماكن.

لمدة ٢٤ ساعة كل يوم ولمدة سنة وأكثر، كانت الأشرطة المغناطيسية تسجل بأمانة الأشعة الكونية التي كانت تتلقاها بواسطة القفّازات (وهي أدوات آلية لاكتشاف التغييرات الشعاعية). أخيراً عند نهاية التجربة نقلت الأشرطة المغناطيسية إلى جامعة عين شمس لتحليلها بواسطة الحاسوب IBM 1030. كانت النتيجة عشوائية بصورة مطلقة. لم تقدم الأشرطة تسجيلاً موحداً بصورة نسبية، إذ قدم الحاسوب سجلات مطبوعة (ومستخرجة بواسطته) بحيث تخطط أنماط الشعاع الكوني الذي ظهر خلال التجربة فتبين بأن القراءات كانت مختلفة من يوم إلى آخر.

هكذا أعلن الدكتور عمر جاهد مدير التجربة في مجلة التايمز اللندنية ١٤ تموز ١٩٦٩: «إنه أمر مستحيل علميًّا. يوجد لغز هنا بحيث يتجاوز حدود التفسير.. جاز أن نُسمِّي هذا أي شيء نشاء. الغيبانية أو لعنة الفرعون أو الشعوذة أو السحر – توجد قوة ما بحيث تتحدى قوانين العلم وتعمل داخل الهرم».

ربما تعتبر تجربة الفرنسي م. بوفيس الأكثر أهمية بين سائر التجارب المتعلقة «بقدرة الهرم» خلال السنوات العديدة الماضية. لقد وصل إلى الهرم الكبير وكانت حرارة الطقس خانقة يومذاك، فأراد التهرب من هذه الحرارة الشديدة، فتوغل إلى داخل غرف الهرم فوصل إلى مكان يدعى حجرة الملك. هناك بدأ يفتش وينبش بين فضالة الطعام والأنقاض المتراكمة، فوقع بصره على جثة قطة. كم كانت دهشة بوفيس كبيرة ذلك لأنه رغم رطوبة هواء الحجرة، لم يحصل تفسخ للجثة ولكنها أصبحت محنطة. لقد جفت تماماً. ولم يتوصل بوفيس إلى تفسير مثل هذا الحادث الغريب. وقد أصيب بالارتباك والتشويش، عند رجوعه إلى داره في فرنسا، هناك شيّد نموذجاً بالقياس النسبي للهرم الكبير مع قياس يساوي الياردة الواحدة لكل جانب تقريباً علماً بأن الهرم الكبير هو من أكثر التعميرات الموجهة بدقة متناهية من حيث التكوين الهندسي إذ تم تربيع القاعدة بخمس ثوان فقط أي ١/٧٢٠ من الدرجة الواحدة بعيداً عن الجهة الشمالية المغنطيسية.

لقد وجه نموذجه الهرمي نحو القطب الشمالي وانتهى بتجربته بحيث وضع حيوانات ميتة داخل الهرم. وبلا ريب، لم يحصل الانحلال والتسوس لجثث هذه الحيوانات ولكنها أخذت تجف ببطء. وهذا ما حصل أيضاً لكل مادة عضوية. إذ كانت تحدث الظاهرة الاستثنائية نفسها فكان نسيج الدماغ الذي وضع في صندوق قد أصيب بالتفسخ بساعات معدودة. ولكنه عندما كان تحت حماية بنية الهرم، احتفظ بحالته السليمة لمدة تتجاوز الشهرين. لقد أصبح بكل بساطة محنطاً وقد فقد مقداراً من الماء يبلغ تقريباً ٧٥٪.

ولم ينتبه دربال إلى أنماط الهرم الخاصة بالعالم بوفيس، إلا في عام ١٩٥٠، وكارل دربال K. Drbal مهندس في الإذاعة التشيكوسلوفاكية من مدينة براغ. كرر تجارب بوفيس وحصل على النتائج نفسها لكنه ذهب إلى أبعد من ذلك وما تزال النتائج تثير الدهشة والذهول لدى الخبراء. لقد كرر ديربال إخضاع شفرة للحلاقة غير حادة للقدرة الملغزة للهرم. لشدة دهشته لاحظ بأن الشفرة غير الحادَّة قد تحولت إلى شفرة حادة وذلك بعد بقائها ١٤ يوماً داخل الهرم. لقد اعتاد على هذه الطريقة العلمية فكرر تجربته مرات عديدة، وقد نال النتيجة نفسها فكانت القوة الخفية تعمل داخل الهرم وتحول حد الشفرة



إلى حالتها الأصلية الحادة.

هكذا فكر ديربل في الاستفادة من هذه التجربة في الميدان التجاري، فحاول الحصول على براءة امتياز لاختراعه هذا وسمّاه «مشحذ شفرة الحلاقة: هرم خوفو». ولكن مكتب براءة الامتياز لم يوافق على هذا الاختراع، ولم يتم ذلك إلا بعد أن شيّد الرئيس التقني في هذا المركز نموذجاً هرمياً وأقام التجربة بنفسه مع شفرات خاصة. وكانت دهشته شديدة عندما لاحظ بأن هذه الشفرات أصبحت قاطعة فعلاً، ونتيجة لذلك حصل ديربل على براءة الامتياز لمشحذ الهرم في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٩ تحت رقم ٩١٣٠٤. لقد تم تشييد مصنع صغير لإنتاج أهرامات من الورق المقوّى (الكرتون) ولكن تبيّن بعد وقت قصير أن أي نموذج من التعمير المادي قادر على توليد التأثير نفسه. ونتيجة لذلك فإن إهرامات ديربل مصنوعة حالياً من مادة الستيروفوم.

منذ انتشار إهرامات ديربل للشحذ المعدني عام ١٩٦٠ تكاثرت الأبحاث في بلاد الغرب وفي الاتحاد السوفياتي، لاكتشاف الأسرار الكامنة وراء قدرة الهرم. وكانت معظم الأبحاث موجهة استناداً إلى مناهج علمية، ولكن حالياً وقد بدا لغز قوة الهرم أكثر غموضاً وعمقاً فقد تم استبدال المنهج العلمي بالعلم الغيباني (الذي لا يخضع للقوانين الطبيعية).

هكذا في الولايات المتحدة وكندا وأوروبا وأستراليا لم تعد هذه الأهرامات تستعمل لشحذ الشفرات لكنها أصبحت أدوات للعلوم الغيبانية وأصبحت تعرف باسم الأهرامات الخاصة بالتغذية الإلكترونية الروحية المرتدّة. وتفترض هذه التقنية استناداً إلى العلوم الغيبانية الطريقة التالية: يكتب المرء تصريحاً أو رغبة ما على قطعة من الورق ثم يدخلها بصورة لائقة عند الجهة الشمالية الجنوبية من الهرم ثم يبتهل إلى القوى الموجودة داخل الهرم لتلبية الدعاء. إن الأشخاص الذين تعاملوا مع قدرة الهرم بهذه الطريقة يصرحون بأن شيئاً ما استجاب لتوسلاتهم ويعتبرون مثل هذه الاستجابة بعيدة عن الصدفة المحضة.

ولكن حدث تطور أكثر جرأة في تشيكوسلوفاكيا في هذا المجال. لقد قام مخترع آخر

ويدعى روبرت بافليتا R. Pavlita بخطوات أوسع قياساً إلى تجربة هرم ديربل، إذ بدأ ينفذ تجاربه على جميع النماذج من الأشكال والمواد الممزوجة بعدة أشكال. لقد طوّر اختراعاً ويعرف بالأوساط البسيشية باسم «المولد البسيكوترونيك Psychotronic generatop».

وهذه الآلة قادرة على إدخال وتوليد الطاقة التي يعتبرها بافليتا صادرة عن عقل بشري. عندما يركز المشغل بكل بساطة ذهنه على عدة نقاط من المولد تصبح الآلة قادرة على انجذاب المادة الغير مغنطيسية اليها فتدفع ببعض المحركات الموجودة داخل الخواء، وتظهر المياه الملونة، أو تضاعف في نمو النباتات أو تساهم في شفاء الأمراض. وبالإضافة إلى كل هذا إن هذا الاختراع مشهور بقدرته على القيام بعمليات غيبانية بعيدة عن طريق الإحساس، ويقر المخترع بأن هذا الاختراع قادر على قراءة العقول ومراقبة الأفكار والتنبؤ بالمستقبل والاتصال بكائنات أخرى والتي توجد في أماكن أخرى من العالم.

ومما جعل هذا المولد البسيكوترونيك مثيراً للدهشة والاستغراب هو الأمر التالي: لقد أعلن بافليتا بأن هذه الآلات ليست من اختراعه!. قال إنه اكتشف المبدأ الكامن وراء هذه الآلات العجيبة الغريبة بفضل عدد من المخطوطات القديمة جداً الموجودة في مجموعة في مكتبة براغ وحيث توجد هناك المئات من الكتابات الأثرية التي تنتظر من يحل الإعجام وهذه الرموز السرية ويترجمها. إن المخطوطات القديمة التي اختارها بافليتا هي رسائل بحثية تتعلق بالسحر الشيطاني (أو السحر الأسود) أي السحر المعتمد على علم التكنولوجيا الغيباني الموحد والمتطور بواسطة حضارة متقدمة، حدثت زمنياً قبل مصر وقبل سومر.

تملك **القدرة الهرمية** والمولدات البسيكوترونيك مفهومات مزدوجة. أولاً إن المصدر القديم الذي يخصهما كذلك التكنولوجيا الرفيعة المستوى التي تتميز بالحذق والمهارة، إنما تشيران إلى أن مصدرهما يرجع إلى ما قبل الطوفان !!. إنهما يشيران إلى الأيام الأخيرة التي سبقت الطوفان وأشارت إلى هذه الأزمنة المتقدمة في المعرفة إلى درجة قد توصلنا إلى توحيد العلم الغيباني بالعلم الطبيعي. وبهذه المنهجية التصييرية قد تم تدمير حضارتها.

وهناك مفهوم آخر بحيث يتجاوز المفهوم ذات الطالع المنحوس أو الذي يتسم بنذير الشؤم. إن مستوى البحث المرتبط لأسرار قدرة الهرم وطاقة البسيكوترونيك قد ارتقى بسرعة إلى المستوى نفسه الذي وصلت إليه أزمنة ما قبل الطوفان !. حالياً كلاهما العلم الطبيعي والعلم الغيباني أخذا يتجهان معاً نحو هدف واحد وهو الوصول إلى نقطة مآلية وأصلية في المعالجة التقنية والروحية. هل هذا يعني بأننا نعود من جديد إلى الاقتراب من نقطة الخطر بصورة تدريجية وبشكل أوثق؟.

***





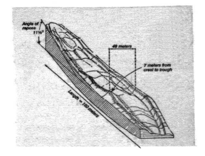
الفصل الثالث

في اقتفاء أثر المستكشفين القدامى

إن الأحداث الخيرة التي قادت إلى عهد الطوفان الكبير ما تزال مدفونة بكفن في باطن الأسرار الملغزة إلى المسافات الأكثر عمقاً. بكل بساطة لا توجد روايات تأريخية سوى قصة التوراة وملحمة جلجامش البابلية بحيث يستطيعان إلقاء الضوء الملائم على إحدى المآسي الأكثر سرية وغموضاً في العالم القديم. ربما لأجل ذلك وجب علينا إدخار وصيانة هذين التقليدين الجليلين بشكل مميز، بالنسبة لأية رواية أخرى، إذ تحدثنا هذه القصص عن الرعب المذهل الذي اكتسح العالم التائه في الظلام بينما تغزوه المياه وتغمره. تقول ملحمة جلجامش: «وعندما وصلت العاصفة إلى النهاية وعندما توقفت الزوابع المخيفة فوق الماء، فتحت النوافذ فألقي النور على وجهي، نظرت إلى البحر فلاحظت اختباريًّا أن جميع البشرية تحولت إلى وحل وطين، وقد تحولت نباتات حمول البحر إلى جثث عائمة. جلست وبكيت وانهمرت دموعي على وجهي». ويقول سفر التكوين ٨: ٤ «واستقرت سفينة نوح في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر فوق جبال أرارات».

بينما كانت تدور بحركة ملتوية مياه الطوفان الاختلاجية التشنجية حول سفينة نوح كان يوجد داخل هذا المعقل عالم آخر عالم مختلف تماماً. لقد صارعت السفينة وتخبطت على الأمواج الغاضبة لزمن يساوي ١٥٠ يوماً قبل أن تستقر أخيراً على جبال أرارات. كانت السفينة بمثابة الملجأ والمسكن لعائلة نوح ولجميع الحيوانات التي تمثل المملكة الحيوانية، سبعة أيام بعد إغلاق الباب المكثف عند جانب السفينة بصورة شديدة وبعد هطول الأمطار الهائجة الاجتياحية الأولى وحدوث الزلازل المدمرة والمنبثقة من أعماق

البحار التي تخص عهد قبل الطوفان.. بعد كل هذا ظهرت نهاية عالم وبداية عالم آخر. لمدة ١٣ شهراً عاش الأحياء بين التدمير الغوغائي. لقد ظلوا في حماية تامة بعيداً عن الكوارث الشاملة المريعة داخل السفينة التي كانت تكفي نفسها بنفسها وهي تجتاز هذا المحيط العدواني. والمعلوم بأن الأبعاد القياسية للسفينة ما تزال قابلة للمناقشة وذلك بسبب عدم التأكد من طول قياس الذراع (وهو مقياس قديم للطول ويبلغ تقريباً نصف المتر (Cubit). وهو القياس الذي استخدم في الرواية التوراتية. وهناك معظم المختصين بهذا المجال يعتقدون بأن طول السفينة ٣٠٠ ذراعاً أما عرض السفينة فهو ٥٠ ذراعاً والارتفاع ٣٠ ذراعاً. ولزم ترجمة هذه القياسات بالطريقة التالية: ٤٥٠ × ٧٥ × ٤٥ قدماً.



الرؤية المنظورية للسفينة

(المقياس النسبي الطولاني = ١,٥ × المقياس الجانبي)

تكشف لنا الصورة الفوتوغرافية الجوية عن مظاهر مثيرة ومفيدة حقاً. عن طريق دراسة معتمدة على آلة ستيرو بلانوغراف. ويصرح الدكتور أرتور براندنبرجه حازماً (وهو أستاذ في الفن المسحي بالتصوير الفوتوغرافي الجوي في جامعة ولاية أوهايو) «إن جميع الحسابات العلمية ترتد إلى النتيجة الأصلية: كان شكل الغرض، يشبه فعلاً سفينة،

يبلغ طوله تقريباً ٤٥٠ قدماً».

تفيدنا المخطوطات القديمة بالتأويلات المتعددة الخاصة بقياس أبعاد السفينة التي قاومت الطوفان وتقدم لنا أقدم وصف في العالم يخص أوريجن فيما يتعلق بسفينة نوح في كتاب هوميلوس جنيزيس Homilies on Genesis يقول: «استناداً إلى الوصف، إني أتخيل أنها تملك قاعاً مستطيل الشكل وبأن الجدران تتناحى وتتجه تدريجياً نحو القمة حيث يبلغ العرض ذراعاً واحداً فقط». ويتابع أوريجين قائلاً: «نظراً للأحوال الناتجة عن المطر وعن الطوفان لا يمكن تخصيص سفينة نوح بالنسبة للشكل الملائم إلا القبة الضيقة حيث تتيح لمياه المطر الانزلاق أرضاً مثل سطح، أما القاع المسطح المستطيل الشكل القائم على المياه، فهو يحافظ على السفينة من الانزلاق والاندفاع أو الغور تحت تأثير الريح والأمواج وذلك بسبب اضطراب وهياج الحيوانات.

ولكن، ما هي المواصفات؟. لا بد أنك طرحت على نفسك مثل هذا التساؤل: ما هي النسبة النوعية مثلاً؟ ألا يمكن أن تكون النسبة بالشكل التالي: ٣٠٠× ٢٠٠× ٢٠ أو أية نسبة أخرى؟. ولما لا؟.

إن المواصفات المشار إليها في سفر التكوين تتحدث عن تعمير يشبه الصندوق، ولكنه ليس بمربع. غير أنه في ملحمة جلجامش يشار إلى شكل سفينة نوح بشكل مكعب بحيث تملك القدرة على الدوران مع كل عصفة ريح، وذلك كي لا تقع فريسة تحت رحمة دوامة البحر العملاقة.

كانت سفينة نوح مختلفة. إن نسبة العرض والطول تعادل ٦ : ١ أي ٣٠٠ ذراع حتى ٥٠ ذراع. هكذا جاز اعتبارها أفضل من الأداة الغريبة الصنع المكعبة المذكورة في الملحمة البابلية !. من وجهة نظر الثبات والتدحرج، تعتبر نسبة ٨: ١ هي أقرب إلى الكمال. هنالك بعض ناقلات النفط الضخمة التي تملك نسبة ٧: ١ في الوقت الحاضر. لقد أشار إلى ذلك أيضاً باني السفن أ.ك. برويل بخصوص سفينة المحيط المعروفة باسم بريطانيا الكبرى في عام ١٨٤٨. فكانت قياسات السفينة بالشكل التالي: ٣٢٢ × ٥١ × ٣٢,٥ قدماً. وهذه القياسات النسبية تماثل تقريباً قياسات سفينة نوح. علماً أن سفينة نوح تعتبر الأولى من

نوعها. ولقد اعتمد برويل على خبرة في بناء السفن تبلغ عدة آلاف من السنين ولكن كل ما استطاع أن يستفيد منه عبر هذه المعرفة المتراكمة لم يبلغ نسبة أفضل من التي استخدمها نوح في بناء سفينته!.

هل كان نوح يعمل استناداً إلى مشورة صادرة عن تكنولوجيا متطورة وقد بلغت القمة فعلاً؟.

بالإضافة إلى هذه التأويلات وهذه الأفكار الحدسية المتعلقة بطبيعة وحجم حمولتها، هناك عدة مظاهر أخرى من الحياة الموجودة على السفينة والتي تستوجب التمعن بشكل أوثق. غالباً ما قيل بأن مصدر النور الوحيد على السفينة هو النافذة الموجودة على السطح بحيث تتيح لنور الشمس اختراق داخل السفينة، غير أن مثل هذا الرأي لا يبدو عملياً جداً. أولاً إن أيّة فتحة حرة متجهة نحو العالم الخارجي سوف تتيح للماء السقوط بغزارة خلال المياه الاجتياحية على ظهر السفينة كاملاً.

ولكن كيف كان الأمر بالنسبة للهواء وللمياه الصالحة للشرب؟.

من الممكن أن تكون السفينة حاوية على دورة أوكسجين، هل استخدمت النباتات مجتمعة كطريقة للحصول على عملية فيها تجديد وبعث الهواء. أليس هذا معقولاً؟!. ألا يعقل بأن نوح قد خزن الأوكسجين على السفينة ليستطيع هو ومن معه في السفينة البقاء أحياء خلال المرحلة الأولى من الرحلة عندما كانت السفينة تقلع وهي محكمة السد ومانعة الهواء وقد اتخذ الوقاية هذه ضد العناصر الهائجة؟!.

كما رأينا سالفاً، كان شعب ما قبل الطوفان يألفون الهيدروكربون ويستخدمونه كأسفلت أو مادة قاريّة، كما أشير لذلك في التسجيلات القديمة، هذا يعني بأنهم امتلكوا لزاماً الخبرة والمهارة الكيماوية في خلق واستخدام الأوكسجين السائل!. هكذا لا عجب إن تبين لنا بأن صنع الأكسجين كان معروفاً في عهد ما بعد الطوفان (أي العهد اللاحق مباشرة)!.

في مكتبة الأمير أيوجين في الهند توجد وثيقة محفوظة في حالة حسنة وتدعى أغاتيا

سمشتيا، والتي يرجع تاريخها إلى الألف الأول قبل الميلاد. إنها لا تحوي فقط على وصف مفصل حول كيفية صنع البطارية الكهربائية، لكنها تصف أيضاً كيفية استخدام هذه البطارية وذلك لتفريق الماء إلى غازين، أي عن طريق التحليل الكهربائي للماء وتحويله إلى هيدروجين وأوكسجين. إن تخزين المياه الصالحة للشرب على ظهر السفينة جاز أن يولد عدة مشاكل ذلك لأن الحكايات الأسطورية المتعددة التي تفيدنا أن نوح عاش على السفينة لمدة سنة ولا توجد إشارة حول الطعام والماء الضروريين لتأمين القوت لعائلته وللحيوانات المقنية. من الممكن أن تكون السفينة احتوت على خزانات محكمة السد حيث احتفظت في داخلها هذه الإمدادات التي لا غنى عنها أو ربما استخدم نوح نظاماً معيناً بحيث كان يضخ الماء من البحر ثم يصفيه من جميع الشوائب، فيجعله بهذه الطريقة صالحاً للشرب؟!.

صحيح إن التحديث يسود مثل هذا التفكير بالأخص عندما نحاول تفسير هذه الوفرة من المسائل التي جابهها نوح خلال رحلته الطويلة التي دامت سنة بكاملها وهي الرحلة نحو المجهول. لقد جابه مسألة شحن الحيوانات كما هو مذكور في روايات مختلفة وما تزال هذه المسألة تُحيِّر عقول الباحثين الأكثر تصوّراً وإدراكاً وتجعلهم غير قادرين على حل مثل هذا اللغز. هناك الاعتقاد بأن الآلاف من الحيوانات المختلفة قد انتقلت إلى ظهر السفينة، وإلّا من أين تولدت المملكة الحيوانية الحالية إذاً؟. إن تغذية هذه الحيوانات والعناية بها تتطلب عملاً ضخماً ذا أبعاد لا يمكن تصديقها. بالإضافة إلى ذلك لزم أن يكون هناك نظام لتحديد التكاثر ولجعله يحدث بعض الأحيان وليس أغلب الأحيان بالأخص فيما يتعلق بالحيوانات الخصبة وذلك لتجنب ازدياد العدد بشكل متطرف. لذلك ساد الاعتقاد بأن النسب الخاصة بالاستجابة العضوية (ميتابوليزم) قد انخفضت وبأن التغذية والتزاوج لم تكن متواصلة. ربما قد تم تحقيق ذلك بواسطة الطرائق الاصطناعية! وقد استخدم نوح وعائلته المعرفة العلمية التي كانوا يملكونها!. غير أن طريقة خفض عملية التمثيل العضوي (ميتابوليزم) لا تلغي أصلاً الحاجة للغذاء والعناية. جاز الاعتقاد بأن نوح استعان بالتأييل (أي جعل الشيء يعمل بالآلة) استناداً إلى

نظام الزلاقة والأحواض، حيث يتم من خلاله توزيع الطعام والماء استناداً إلى الأشياء المخزونة في أماكن معينة في السفينة. وقد استعمل التنظيم نفسه بالنسبة لنفايات الحيوانات التي تم تخزينها أو رميها من السفينة خلال الرحلة. أفضل الاعتقاد، استناداً إلى الاحتمالية الأخيرة: إن معرفة متى يقدم الطعام للحيوانات وتنظيفها.. الخ تستوجب معرفة زمنية، غير أنه خلال الأربعين يوماً الأولى للطوفان عندما كانت السفينة مغلقة تماماً لم توجد هناك أية وسيلة طبيعية للاحتفاظ بأثر للزمن. رغم هذا العائق كان نوح قادراً على الاحتفاظ بيومية دقيقة ومفصلة حول الأحداث كما تم تسجيل ذلك في سفر التكوين ٧ – ٨ الذي يشير إلى أن نوح ربما امتلك الوسائل الاصطناعية لقياس الزمن وربما كان بمثابة أداة ميكانيكية. إن هذا الأمر غير مستبعد الحدوث ذلك، لأنه تم أخيراً اكتشاف نموذج لمسجل ساعات العمل ويخص هذا الجهاز عصر ما بعد الطوفان، وقد عثر عليه قرب اليونان. لقد تم اكتشافه عام ١٩٠٠ قبل عيد الفصح، يوم الأحد. حيث توجد قرب الجزيرة اليونانية أنتيكروسوس سفينة يونانية وقد غرقت هناك وكانت محملة بالتماثيل البرونزية وسائر المصنوعات اليدوية القديمة استناداً إلى عدة كتابات مدونة. يرجع تاريخ بقايا السفينة المحطمة إلى حقبة تتراوح بين عام ٥٠-٨٠ ق.م !!.

بين الموجودات التي نقلت إلى سطح المياه يوجد مصباح من البرونز والخشب وقد ظهر عليه التآكل واضحاً. وقد نقل المصباح مع سائر المصنوعات اليدوية إلى المتحف الوطني في أثينا. لقد جرت عدة محاولات لحل لغز الكتلة البرونزية والخشبية ولكن جميع المحاولات باءت بالفشل، ووجب انتظار عام ١٩٥٨ حتى ينتبه إليها الدكتور سولا برايس Solla Price من جامعة كامبردج، أي حتى يهتم بهذه الكتلة المجهولة التي اعتراها الصدأ.

لقد استخدم العالم منهجاً مبتكراً لترميم الأشياء المصابة بالتأكسد واستطاع أن يستنفذ النتف والقطع الموجودة في الكتلة، ثم أخذ يمزجها محاولاً من جديد صنع الأداة الآلية. لقد أصيب بالدهشة عندما **اكتشف أن المصباح كان يحتوي على أجزاء من الكمبيوتر ذي السطح المقبب المصفر المتعقد**، وقد تم تشكيله من خليطة برونزية خاصة.

وتم صنع الآلة من جديد. وكان هذا الصنع بمثابة علبة صغيرة تحتوي على أكثر من عشرين دولاب مسنن، وتتشابك هذه الدواليب ضمن نظام تفاضلي معقد. إن ذراع التدوير المعدني في الآلة يجعل الدواليب المسننة تتحرك بسرعات متنوعة، وتوجد مؤشرات دوارة على ثلاثة عدادات، وذلك لتحديد زمن طلوع وشروق الشمس حسابياً ووجوه القمر ومراكز الكواكب: عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، زحل، وقيم كل ذلك بدقة مذهلة. بالإضافة إلى ذلك تشير هذه الآلة إلى الوقت في النهار.

إن صنع ساعة أتيكروتوس يفوق الإمكانيات التقنية لليونان أو لغيرها من الحضارات القديمة المعروفة. لزم أن يكون هذا المفهوم الأساسي صادراً عن ثقافة أوليّة متقدمة بشكل ملحوظ وربما فاق مستواها عالم عهد قبل الطوفان!.

من الواضح أن الوظيفة الرئيسية لآلة أتيكروتوس هو حساب مرور الزمن عبر سير حركة الأفلاك السماوية.

هل توجد علاقة ممكنة بين الطريقة التي استخدمها نوح بخصوص الزمن والمذكورة في سفر التكوين ٧ – ٨؟. لقد كانت حساباته أيضاً مرتكزة على نظام التقويم القمري الذي يسجل مرور السنة الشمسية !.

إننا لا نعرف بالطبع ما هو مصدر الطاقة الذي يشغل محور التدوير الحديدي لهذه الآلة ولكن جاز أن يكون المصدر نفسه الذي أنار مصباح تسوحار. لن نعرف أبداً بصورة دقيقة ما هي المقاييس التي اتخذها نوح لصيانة الحياة خلال سنة الحجز والانحباس هذه على ظهر السفينة؟. ولكن ربما وصلتنا معلومات بالصدفة تتعلق بوجود رواية ما كفيلة بإنارة هذه المرحلة المظلمة من تاريخ الإنسان.

خلال الأشهر التي سبقت عام ١٩٥٠ المتعلقة بمهمة البعثة المعروفة باسم بعثة البحث الأثري الشرقي التي كانت تهدف البحث عن سفينة نوح الملغزة والتي يصعب إدراكها فكرياً الموجودة على قمة أرارات، حصلت مراسلات غريبة ومثيرة فعلاً بين الدكتور آرون ج. سميث رئيس البعثة والدكتور فيليب ي. غوش، وكانت وجهة الرحلة محددة إلى تركيا. لكن المراسلة المثيرة غيرت الاتجاه. قدم الدكتور غوش المعلومات التالية

إلى الدكتور سميث وبصورة غير متوقعة مدعياً بأنه حصل عليها من تسجيلات قديمة كانت في حوزة الجمعية الماسونية التي كان ينتمي إليها: كانت توجد شاهدة حيّة على الأرض التي احتوت كل هذه التفصيلات الرائعة التي جرت خلال مرحلة الطوفان وبعد الطوفان، حتى موتها وهي تناهز ٥٤٧ سنة (!!) هذا ما كتبه دكتور غوش إلى سميث: «لقد كانت شاهدة حيَّة للرب وكانت كنَّة نوح زوجة ابنه يافث وتلميذة متوشالح الذي تتلمذت على يديه والذي علَّمها كل ما سبق الطوفان. لقد تلقت تربية تتعلق بكل تاريخ الجنس البشري وصولاً إلى ذلك الزمن. وقد أعطت لكتابها اسم دفتر اليوميات وهو مليء بالأشياء التي حدثت منذ آدم حتى موتها.

وبالنسبة لي أعتبر هذا التدوين الأكثر كمالاً بالنسبة لتاريخ الجنس البشري الأولي ولم يتم تدوين مثله أبداً. رُبَّ مسائل تجابه علماء الجيولوجيا في وقتنا الحاضر ومن الممكن إدراكها بسهولة بعد قراءة يوميات آموايلا. عند موتها، وقد ماتت بين ذراعي ابنها الأصغر سناً ياوان. وضع سجل يومياتها بين يديها المحنطتين داخل صندوق من الكريستال الكوارتزي بالإضافة إلى مفاصل ومشابك حديدية ممزوجة بالذهب !!. ولقد اكتشفها رجل ماسوني ذو مرتبة رفيعة في أواخر القرن الماضي. إن المخطوطة الصلية كذلك الترجمة موجودتان الآن في حوزة الجمعية الماسونية»!!.

لكن المراسلة مع الدكتور غوش لم تؤدِّ إلى نتيجة حية فيما يتعلق بمكان وجود سجل اليوميات الذي يخص آموايلا. ومما جعل الأمور أكثر تعقيداً هو موته بعد وقت قصير ذلك لأنه لم يكشف اسم أو فصل المقصورة الماسونية.

هل يوميات أموايلا حقيقة حسية أم ضرب من الخيال؟

لقد أصبحنا اليوم مقتنعين أننا لن نستطيع معرفة المصادر التي اعتمد عليها الدكتور غوش للحصول على هذه المعلومات، غير أننا نعرف شيئاً واحداً. عندما تم فتح الباب الكبير أخيراً عند جانب سفينة نوح. لقد فتح الباب على عالم جديد كلياً مجرداً من الحياة التي كان يعيشها قبلاً، ومستعداً أن يستقبل الحياة التي حافظ عليها. لقد قضت مياه الطوفان الهائجة المائجة على الحضارة التكنولوجية العظيمة التي تخص عهد ما قبل

الطوفان وحطمتها وفرقتها إلى مليون قطعة ثم رمتها في أغوار الأرض بعيداً عن أنظار سكان الأرض.

لمدة قرون اعتبر النصارى قمة أرارات في شرقي تركيا المرقد الأخير لسفينة نوح ونقطة الانطلاق التي ابتدأت فيها حضارة ما بعد الطوفان.

إن رواية سفر التكوين الخاصة بهذه المأساة يشير فقط إلى جبل أرارات، وجميع الروايات المنقولة الأخرى تلتزم الصمت في هذا المضمار. ربما لهذا السبب لا يوافق جميع علماء الآثار بأن الجبل الذي يعرف اليوم باسم أرارات هو الجبل نفسه الذي أشير إليه في رواية نوح حتى ولو كان هذا الاسم التركي الخاص بهذا الجبل يعني جبل السفينة. والاسم الفارسي عند ترجمته يعني جبل نوح!.

وتشير الأسطورة البابلية أن السفينة غرزت على جبل نصير. ويعتقد العالم الإسلامي أن جبل الجودي هو الموضع الخاص بسفينة نوح (لنلاحظ كيف أن الباحث لم يشر إلى أن القرآن الكريم حدد أنها استوت على الجودي - الناشر) غير أن الرأي الأخير يتضمن الاعتقاد استناداً إلى العدد المتزايد من العلماء المسلمين بأن جبل الجودي مماثل لجبل أرارات (وهنا نلمس تأثير الاسرائيليات – الناشر). غير أن مثل هذا الجدال لم يمنع الأرمن من الادعاء بأنهم يملكون روايات عن سفينة نوح خاصة بهم، والأحاديث شاهدة على ذلك.

في عام ١٩٧٠ أجري استقصاءٌ شامل فيما يتعلق بالسفينة الموجودة على جبل أرارات. لقد أشرف على هذا الإجراء الاستقصائي الكولونيل باك هو في مؤسسة الأبحاث وهو رئيس المؤسسة الكورية للثقافة والحرية. وقد استطاع أن يستلم بواسطة البريد ٦٠٠ ألف قطعة من درع الحيوانات التروبجية، وقد وضعت جميع القطع في صناديق البريد الأمريكية استناداً إلى جدول فيه أسماء وعناوين المرسل اليهم. وكانت الأسماء تخص أعضاءً جمهوريين محافظين. وبعد ذلك تلقت المؤسسة مكالمة هاتفية غريبة فعلاً، وكانت صاحبة المكالمة تدَّعي أنها قادرة على تسهيل المهمة والمساعدة للاتصال بشخص أرمني ويُعتقد أن هذا الشخص هو الإنسان الأخير الذي رأى سفينة نوح (!!). وكانت

تُدعى هذه المرأة ميري بورد، وهي تعمل سمسارة في ولاية إيستون في ميريلاند. قالت لي: إني أعرف صديقاً قديماً لي في إيستون وهو أرمني عجوز ويدعى جورج هاكوبيان. ويقول بأنه رأى سفينة نوح عندما كان صبياً صغيراً. لقد اطلع على رسَالتك المتعلقة بمشروع الرحلة إلى جبل أرارات. إني أعرفه منذ سنوات عديدة، لقد روى لي ولزوجي قصة زيارته لسفينة نوح عدة مرات منذ لقائنا الأول. قال لي بأنه كان يعيش عند أسفل الجبل. هل يهمك هذا الموضوع؟ وهل تود التحدث إليه؟.

هل اود التحدث إليه؟.

في ميدان البحث عن سفينة نوح هناك دائماً صعوبة جمَّة لاقتفاء أثر الشاهد الذي يمكن الاعتماد عليه، ذلك لأنه يوجد عدد وفير من الناس الذين يملكون الخيال الخصب ويدعون أنهم رأوا سفينة نوح. واستناداً إلى هذه النقطة لم نتوصل أبداً إلى العثور على الشاهد الحقيقي، غير أنه يوجد الآن الرجل الذي يفترض أنه عاش عند أسفل الجبل. إن العثور على الشخص الذي كان يعيش على سفح الجبل أمر يفوق كل التوقعات !!.

بعد أن قام باتصالات أولية عضو آخر من المؤسسة وهو رئيس الباحثين عن سفينة نوح ! ويدعى إريل كامينغس Eryl Commings قررت الالتقاء أنا وإياه بالسيد هاكوبيان.

بعد أن تناولنا الطعام معاً في أوستن في ميرلاند جلسنا مأخوذين مندهشين ونحن نستمع إلى ذكريات الرجل العجوز جورج هاكوبيان، إلى ذكريات أيامه الأولى عندما كان صبياً، راعياً فقيراً يقود قطعانه المضطربة كي ترعى على المنحدرات العشبية في جبل أرارات.

لقد سجلت على آلة التسجيل جميع ذكرياته.

قال جورج بهدوء وبلهجة أرمنية واضحة: في تلك الأيام كنت أنا وعمي نعتاد على تسلق منحدر الجبل مصطحبين معنا الأغنام كي ترعى هناك. كان كل واحد من الرعيان يقود قطيعه إلى المنطقة الخضراء من الجبل. في هذا اليوم لم تحصل أية مشكلة اطلاقاً، لكنني كنت دائماً أفكر بمرافقة الرجال الأكبر سناً وتسلق منحدرات الجبل المقدس. كانت هذه

الفكرة تثيرني بقوة، ولكن تلك الليالي! أغمض عينيه لحظة وبدأ يستعيد ذكرياته أيام كان صبياً. في تلك الأيام جاءت الذئاب والدببة وقد أشعلنا نار المخيم عالياً حتى نحمي قطيعنا منها، وكانت الكلاب تركض وتعوي طيلة الليل، تدور حول القطعان وتحاول أن تخيف الذئاب التي تهبط علينا من الجبل كي تنقض على نعجة صغيرة...

سكت جورج هنيهة وبسرعة وجهت إليه سؤالاً آملاً تحويل الحديث نحو المصنوعة اليدوية، سألته: هل كنت مع عمك عندما رأيت سفينة نوح للمرة الأولى؟.

قال: أجل لقد ذهبت أولاً إلى ذلك المكان عندما كنت في العاشرة من عمري. حصل ذلك حوالي عام ١٩٠٢. كان جدي وزيراً للكنيسة الأرثوذكسية الكبرى في فان، وكان يحدثني دائماً القصص حول السفينة المقدسة وحول الجبل المقدس.

وذات يوم قال لي عمي: جورج! سوف آخذك معي إلى الأعلى إلى السفينة المقدسة. ثم رزم أغراضه (من طعام وسواه) على حماره. أخذني معه وسوياً اتجهنا نحو جبل أرارات. قلت له وأنا أشير إلى المكان المقصود الذي يطل فوق رأسي: ولكن يا عمي ذاك هو الجبل المقدس. قال: هذا صحيح يا جورج. ماسيس هو الجبل المقدَّس.

بدأت قدماي ترتجفان. وصمَّم الحمار على اتخاذ الاتجاه الخطأ. لكننا تابعنا التسلق حتى وصلنا إلى نصف الطريق. عندها أخذ عمي اللوازم الضرورية وحملني على ظهره ثم تسلقنا...

لقد قضينا ثمانية أيام منذ اليوم الذي تركنا فيه فان إلى اللحظة التي وصلنا فيها إلى المكان الموجود في الجبل المقدس، حيث قال لي جدي وعمّي بأن السفينة المقدسة قد استقرت هناك.

قال هاكوبيان: أعتقد بأن عمي أخذني إلى ذلك الجبل في تلك السنة، ذلك لأن تلك السنة لم يسقط فيها الثلج إلا قليلاً. كانت سنة لطيفة كما كنا نسميها. وكانت تحدث مرة واحدة كل عشرين سنة.

صمت جورج قليلاً باحثاً عن الكلمات المناسبة لوصف ذكرياته بأوضح ما يمكن:

وأخيراً وصلنا إلى سفينة نوح. قلت: يا عمي ! إن المكان حولنا مظلم جداً. لا يوجد سوى الضباب. هل هذه هي قمة العالم؟ هل تستقر سفينة نوح هنا؟!.

قال: أجل. هذه هي السفينة الكبيرة الموجودة أمامك تماماً. دعني أساعدك للنزول إليها.

بالفعل لاحت أمامي كتلة حجرية ضخمة وبدت لي كأنها تتوعدني. كانت أشبه بجدار، أشبه بعمارة. هذا غير معقول، لم تكن شبيهة بسفينة.

قلت لعمي وأنا ألمس هذا الغرض الضخم: هل هذه هي حقاً السفينة يا عمي؟. إنها من الحجر وليست من الخشب.

أجاب عمّي: إنها السفينة بذاتها يا جورج. تعال وساعدني. سوف أبرهن لك على ذلك.

وضع رزمته أرضاً. وابتدأت أنا وإياه بجر وجذب الأحجار بقوة، وبدفع الصخور الضخمة جانباً قرب السفينة. كان عمي رجلاً ضخم الجثة وكان طوله يفوق ستة أقدام، وكان قوياً جداً. وبفترة وجيزة استطاع أن يكوم كومة من الصخور ويصفها على جانب السفينة وبدأت الكومة ترتفع رويداً رويداً إلى أن طلب مني التوقف عن العمل.

قال لي فرحاً: جورج تعال إلى هنا. سوف تصعد إلى قمة السفينة المقدسة. ثم رفعني عالياً وحملني على كتفيه وتسلقنا سوية كومة الصخور. عندما وصل إلى القمة وضع يديه على قدمي وأخذ يدفعني عالياً وصاح: حاول الوصول إلى القمة يا جورجي !. تناول بكفك الحافة وادفع بنفسك إلى الأعلى !.

وانهمرت دمعة من عين الأرمني. كان يحيي ذكريات الماضي المشحونة بالحنين، ولم يكن مبالياً للانفعالات التي كانت تظهر على وجهه أثناء الحديث. لقد كان يعيد ذكريات أيام الفتوة، ولولانا لكانت ذكريات بدون صوت. لكنها اليوم تبدو حية. وتابع قائلاً: لقد وقفت منتصباً عالياً، وألقيت نظرة على السفينة برمتها. صحيح لقد كانت طويلة. وإن هذه الأشياء كبيرة بالنسبة لولد. لكنني أتذكر الآن بأن طولها لزم أن يكون ألف قدم،

ولزم أن يكون عرضها ٦٠٠ قدم، وأن يكون ارتفاعها حوالي ٤٠ قدماً أو أكثر. قال لي عمي صائحاً: انظر السفينة ! تأمل الثقوب !. انظر إلى الحفرة الكبيرة !. انظر إلى الداخل وأخبرني ماذا ترى !.

بدات أرتجف من شدة البرد ومن شدة الخوف، وأخذت أنظر حولي. أجل كان يوجد هناك حفرة كبيرة، كبيرة بشكل فجوة بين طرفين. هل هذه الحفرة نفسها التي يقصدها عمي؟. كانت تبدو غامضة وملغزة للغاية.

صرخت: يا عمي إني خائف جداً. إني أرى حفرة واسعة سوداء في القمة. لا تجعلني ادخل إليها. أرجوك !.

قال عمي بنبرة لطيفة كي يهدّئ من جزعي:

لا تخف يا جورجي. لا يوجد أحد في السفينة. إنها فارغة منذ مدة طويلة. لا داعي للقلق. ألقيت نظرة خفية على ظلمة الحفرة لكني لم أرَ شيئاً، ثم ركعت وقبلت السفينة المقدسة.

قاطعته قائلاً: هل رأيت شيئاً آخر بينما كنت هناك؟. ألم تلاحظ أية علامات أخرى مميزة بحيث نستطيع الاستعانة بها للتحقق من هوية هذا الغرض ولتحديد مكانه؟.

هز جورج هاكوبيان علامة الموافقة. لمعت عيناه علامة إثارة وتابع قائلاً:

آه. أجل هناك أشياء عديدة ! يوجد النبات الشبيه بالطحلب، النبات الأخضر النامي الذي يُغطي السفينة بكاملها. كذلك عندما كنا هناك كانت قمة السفينة مكسوة بمعطف رقيق جداً من الثلج الذي سقط حديثاً، ولكن عندما حاولت إزاحة بعض الثلج جانباً، وقع بصري على نبات أخضر وقد نما على قمة السفينة. وعندما اقتلعت قطعة صغيرة بدا لي كأنها قطعة صخرية مصنوعة من الخشب. إن هذا الطحلب الأخضر جعل من مادة السفينة ناعمة وعليها غشاء من العفس.

تناول عمي بندقيته وأطلق رصاصة داخل جانب السفينة، ولكن الرصاصة لم تخترقها. لقد كانت السفينة بكاملها متحجرة. لقد تحولت إلى صخرة.

هل رأيت أي شيء على السطح قرب هذا الثقب الواسع؟.

أجل. إني أتذكر هذه الثقوب الصغيرة المتعاقبة، ابتداء من الجهة الأمامية حتى مؤخر السفينة ! إني لا أعرف تماماً عددها ولكن جاز أن تبلغ الخمسين، وتوجد مسافات صغيرة بينها.

ثم سألت عمي بعد أن وصفت له الثقوب: ولما هذه الثقوب يا عمي؟.

قال لي: هذه الثقوب مصنوعة خصيصاً لأجل الهواء يا جورجي. لقد كان يوجد في السفينة منذ زمن طويل حيوانات وبشر. لهذا السبب وجدت هذه الثقوب. هناك ثقب خاص حيث أرسل نوح اليمامة.

سألته: أين ذهبوا جميعاً يا عمي؟.

لقد تركوا السفينة يا جورجي. لقد ذهبوا. إن السفينة المقدسة فارغة الآن تماماً.

استل عمّي سكين الصيد الطويلة من حزامه وبقوة شطف قطعة من جانب السفينة.

قلت له متوسلاً: يا عمي أريد أن أنزل منها. إني خائف. هلا التقطتني؟.

قال: بالتأكيد. ولكن لا تقفز بطريقة عشوائية. هكذا تركت نفسي أنزل من جانب السفينة على مهل حتى أحسست بيديه وهي تتناولني من قدمي. وبلطف جعلني أصل أرضاً. وبعد ذلك عدنا سوياً نحو سفح الجبل.

إن أول عمل قمت به عند وصولي إلى فان هو مقابلة جدي. قلت له باعتزاز وحماس:

يا جدي! لقد ذهبت إلى السفينة المقدسة. لقد أخذني عمي إلى هنالك. لقد صعدت على ظهرها، وألقيت نظرة إلى الثقب!.

اندهش جدي حتى الذهول وضمني إلى صدره وعانقني وقال لي بلغة مبهمة: جورجي ! سوف تصبح يوماً ما رجلاً قديساً. ثم قال لي هامساً: سوف تكون رجلاً قديساً لأنك كنت على ظهر سفينة الإله المقدّسة. لم يستطع جدي التحقق من صحة حلمه بالنسبة لي، ذلك لأنه فارق الحياة بعد سنوات قليلة في فان.

كانت القصة مثيرة فعلاً. وكانت التفاصيل غامضة وملتبسة جداً. وبعد انقضاء ثلاث ساعات ودعنا أنا وإيريل كامينغس صديقنا هاكوبيان وقد استطعنا استخراج المزيد من الوقائع الحسية، بالأخص تلك الوقائع التي تبدو بالنسبة لنا مفيدة فيما يتعلق ببحثنا حول تحديد موضع السفينة بصورة دقيقة. ثم وجهنا إليه بعض الأسئلة المحددة قبل الفراق. فقال لنا جورج محاولاً استعادة ذكرياته القديمة: لقد رأيت السفينة للمرة الثانية وكان ذلك على ما أظن عام ١٩٠٤. كنا هناك على الجبل نبحث عن الأزهار المقدسة ثم رجعت إلى السفينة وقد بدت لي كما كانت سابقاً. لم يتبدل أي شيء. هذه المرة لم أصعد إلى القمة لكني وقفت بجانبها ونظرت إليها ملياً. فكانت مستقرة على حافة شديدة الصعود، أي على حافة صخرة يميل لونها إلى الأزرق المخضرّ، ويبلغ عرضها تقريباً ٣٠٠ قدماً. ولقد لاحظت شيئاً آخر هو أني لم أر أي مسمار على الإطلاق. بدا لي وكأن السفينة بكاملها وقد صنعت من قطعة واحدة من الخشب المتحجر حتى أنه كان باستطاعتي رؤية حبات الخشب رغم أن السفينة تحولت إلى حجر.

سألته: وكيف كانت تبدو النوافذ والأبواب؟.

أجاب: آه. كلا! لم تكن توجد نوافذ في السفينة. إني متأكد، ولم يكن يوجد أي باب على جانب السفينة حيث كنت واقفاً. لم أر أية فتحة من أي نوع. جاز أن توجد فتحة على الجانب الذي لم أستطع رؤيته. ولكني أجهل ذلك. كان هذا الجانب عملياً يصعب بلوغه. كنت قادراً فقط على رؤية الجانب الذي ذكرته وقسماً من القوس.

كيف كان شكل السفينة؟ هل كان شكلها مستقيماً تماماً؟ أم كان مستطيل الشكل أو ماذا؟.

استراح جورج هاكوبيان قليلاً قبل الإجابة إذ جاء النادل وخطف بسرعة صحون الحساء. قال جورج، بعد رحيل النادل: كان السطح مسطحاً. وهناك قسم ضيق يمتد من القوس حتى مؤخر السفينة ويحتوي على جميع تلك الثقوب. وكانت الجوانب مائلة نحو القمة. وكانت الجهة الأمامية مسطحة أيضاً كما لم أشاهد أقواسًا حقيقية، وكانت تختلف عن أي مركب آخر قد رأيته. كان بالأحرى يبدو هذا الشكل وكأنه مركب مسطح القعر.

ولكن موقع السفينة يا جورج. هل بإمكانك وصف موقع السفينة على الجبل؟ هل توجد أية علامات مخصوصة؟.

أجاب ببطء، ولكن دون تردد: إني أتذكر أن هناك جانباً من الجبل لا يمكن تسلقه. لقد ذهبت أنا وعمي عبر بايزيت بالقرب من الحافة، وتسلقنا الجبل من جهة أفريدزان. إني أتذكر الأشجار المثمرة في مكان ما، حيث يبلغ الارتفاع ١٠٠٠٠- ١٥٠٠٠قدماً، وكنا نتناول الفاكهة أينما حللنا. ولم يتغير المشهد كثيرًا. وباستطاعتي الآن الذهاب معكما إلى المكان نفسه. ولكن في عمري الحالي لن يكون تسلق ماسيس أمراً سهلاً.

عندما قال لنا إن خشب السفينة قد تحجر خطر ببالنا هذا الخشب الذي تم اكتشافه على الجبل عن طريق بعثة سابقة، إذ أعلن أعضاء البعثة بأن هذا الخشب يخص سفينة نوح. ولكن هاكوبيان قال باحتجاج: اسمع يا بني! لا أعتقد بأن ذلك الخشب هو جزء من سفينة نوح. إن السفينة التي رأيتها كانت مصنوعة من الخشب المتحجر وليس من النوع الذي يمكن قطعه. وأنت أيضاً تقول بأن الخشب تم اكتشافه على ارتفاع ١٤٠٠٠قدم تقريباً. هذا يعني بأنه لا يمكن أن يخص هذا الخشب السفينة ذلك أن التي رأيتها كانت أعلى بكثير. ولكن لا تهتم كثيراً بكلامي. انتظر حتى تتوصل إلى تحديد موقع السفينة الحقيقية وسوف ترى بأنه لا علاقة لها بهذا الأمر مطلقاً.

وبعد أن انقضت خمس ساعات من المحادثة مع جورج هاكوبيان على طاولة الطعام افترقنا.

قال متوسلاً: اذهب وابحث عن السفينة. لا أستطيع الذهاب. اذهب وسوف تجد السفينة. كنت هناك منذ سبعين سنة وإني أعلم بأنها هناك.

وانصرف جورج هاكوبيان بخطًا بطيئة مبعداً بقدميه أوراق الخريف متجهاً نحو داره..

منذ ذلك الزمن توضح الأمر وكشف الشيء على حقيقته فيما يتعلق بالروايات الشاهدة فيما يتعلق بسفينة نوح، وقد صنفت جميعاً بالروايات الوهمية أو المعتمدة على

الأكاذيب بما فيها رواية هذا الرجل الشاب الذي ادّعى بأنه رأى جثة نوح متوارية في مكان ما في مؤسسة سميثسونيان Smithsonian في واشنطن.

لكن قصة هاكوبيان اتخذت شكلاً صلباً وبدت أكثر واقعية مع مرور الزمن. أصبحنا ندرك الآن واثقين بأن السفينة القديمة لم يتم اكتشافها على ارتفاع ١٤٠٠٠ قدماً. لقد عرضت أحاديث هاكوبيان على جهاز التقييم السيكولوجي المرتبط بمجموعة الرادارات الإلكترونية، وهو جهاز كشاف الكذب الذي يكشف عن النبرات الصوتية المتعددة التي توجد في الصوت البشري. واستناداً إلى هذا الفحص تحدد نتيجة مصداقية هذا الشخص الخاضع لهذا الامتحان. رغم أن صوت جورج يشير إلى بعض المجالات التي تتميز بشدة توترية، بحيث تشير إلى وجود كذب، غير أن هذه الشدة التوترية الخفيفة ناتجة عن الحالة الانفعالية لهاكوبيان وهو يحاول استعادة ذكريات فترة الطفولة. أصلاً إن قصة هاكوبيان معقولة، وجاز أن تكون الرواية الأصلية لشاهد عيان من الناحية التسجيلية. إنها بالتاكيد تتوافق مع الأحاديث المنقولة المتعلقة بالأمة الأرمنية.

لقد حاكت الأسطورة والتقاليد الشعبية شبكة قوية من الفولكلور حول منحدرات الجبل والمنطقة التي تحيط به. إن ناخيشيفان Nakhichevan وهي مدينة تقع جنوب شرق أرارات ما تزال تُدعى أبوباتريون Apobaterion أي مكان السفر أو مكان الرحيل، خلال زمن المؤرخ فلافيوس يوسيفوس. والاسم الحالي يعني مكان نزول نوح إلى اليابسة. ويعتقد بأن أغوري Aghuri وهي بلدة صغيرة تقع على منحدر الجبل قد أقام فيها نوح وزرع هناك أول كرمة له بعد نزوله من السفينة. وهناك أمر مثير أيضاً يتعلق بمدينة يريفان وهي عاصمة أرمينيا، وتعني المكان الخاص بالظهور الأول.

في فترات مختلفة من التاريخ استعملت كلمة أرمينيا وكلمة أرارات بصورة متبادلة لوصف المنطقة نفسها. وحتى يومنا الحاضر إن كلمة أرارات هو اسم المنطقة حيث يقع الجبل الشهير، وربما لأجل هذه الروايات المنقولة العديدة المرتبطة بجبل أرارات اعتبر الأرمن هذا الجبل أم العالم. هل يوجد شيء ما من الحقيقة في هذا المجال؟. فيما يتعلق بسفر التكوين الذي يتحدث عن تفرق القبائل والأمم في الأيام الغابرة في تاريخ الشرق

الأوسط الذي يتضمن مفهوم «أم العالم» يقول البروفسور ي.ف. ألبرايت وهو مشهور عالمياً في ميدان علم الأثار الخاص بالشرق الأوسط، تعتبر هذه القصة الوحيدة في الأدب القديم دون أدنى مشابهة حتى مع شعب اليونان.. وتظل لوحة الأمم وثيقة دقيقة بشكل مثير، وتشير إلى هذا الإدراك المدهش الحديث فيما يتعلق بالعرق البشري وبالوضع اللغوي بالعالم الحديث. برغم حالته المعقدة.. لقد استند في حديثه إلى القائمة التي تعتمد على نسل نوح وعلى ذرية أبنائه الثلاثة. تتحدث هذه الوثيقة أيضاً عن الجيل الأول لكل ابن. والأهم من ذلك أنها تذكر الأسماء التي تزودنا بدلالات كل الألغاز الخاصة بتاريخهم والأماكن التي سكنوها.

إن الجيل الأول والثاني تركا علامة لهما في مصر وفلسطين وآسيا الصغرى وبلاد أشور وفينيقيا وأرمينيا ومنطقة الخليج الفارسي والأراضي القائمة بينها. أما الجيل الثالث (٣٢٣٠-٢٧٨٠ق.م) فقد انتقل إلى أوروبا وإسبانيا والبلاد العربية الجنوبية ومصر السفلى ومصر العليا ومنطقة البحر الأسود وبلاد بابل. والجيل الرابع (٣٠٩٦-٢٦٤٧ق.م) انتقل بسرعة داخل المنطقة التي تعرف اليوم باسم اليمن. وكانت هذه اليابسة معروفة باسم دار ملكة سبأ. عندما ظهر الجيل الخامس على خشبة المسرح (٣٠٠١ – ٢٥٩٧ ق.م) يتحدث التدوين عن ذرية عابر، وتعني كلمة عابر الرحال والمهاجر، وهو أبٌ لشعب مشتت على امتداد واسع !.

هناك معلومات ضئيلة جداً حول الإنجازات الفردية التي حققتها تلك الشعوب، وصولاً إلى الجيل الخامس حيث فالج (٢٨٦٧-٢٥٢٨ ق.م) الذي يعني اسمه التقسيم والقياس. وقد ذكره سفر التكوين ٢٥:١٠.

يتبين لنا بوضوح من خلال قائمة الجيل التي تخص أبناء نوح بأن شعوب ما بعد الطوفان قد انتشرت بسرعة على وجه البسيطة، أما الجيل الثاني وهو جيل الأبناء الكبار لشيخ القبيلة فقد استقر في الأراضي ابتداء من إيران حتى إسبانيا ومن شمال أوروبا حتى الحبشة. وكان الجيل اللاحق وذريته أكثر انتشاراً بالطبع. ويبدو استناداً إلى سلسلة النسب المذكورة في سفر التكوين بأن وجود اتصال متطور بين هذه الشعوب كان أمراً بدهياً. لا

بد من وجود شخص ما أثناء استيطان هذه الأراضي الشاسعة، وقد امتلك المهارة في مراسلة جميع هذه السلالات عبر هذه المرحلة الطويلة من الزمن! وإلا كيف يمكن تفسير هذه القائمة المفصلة الخاصة (بلوح الأمم)؟. من غير ذلك يبدو الأمر مستحيلاً. إن مثل هذا الاتصال بين المناطق الشاسعة يستلزم معرفة مبكرة بالجغرافية. بالفعل هناك احتمال قوي بأن ذرية نوح حملت معها دراسة استطلاعية بعيدة المدى متعلقة بالكرة الأرضية بكاملها، وهذه الدراسة تعتمد على مخطط وخارطة كل قارة. وقد ظلت هذه الوثائق محفوظة بعد الطوفان !.

لقد احتفظت هذه الوثيقة المرتبطة بالأرض الخاصة بعهد بعد الطوفان عن طريق الخرائط الخاصة بالعهد المتوسط وعهد النهضة والتي تعتبر في غاية من الدقة، ويبدو أن مثل هذه الدقة فيما يتعلق بقياسات خطوط الطول وخطوط العرض وفيما يتعلق بسطح الأرض تفوق بكثير إمكانيات المختصين برسم الخرائط التاريخية الأولين. وهؤلاء المختصون برسم الخرائط الجغرافية يقرون – وهناك برهان جوهري حول هذه النقطة موجودة ضمن الخرائط – بأن خرائطهم هي نسخ عن خرائط قديمة والتي ضاع أصلها في العصور الوسطى.

هناك خريطة تثير الاهتمام بشكل ملحوظ وتعرف باسم المُرسّم التوضيحي بيري ريّس Piri Reis الخاص بـ ١٥١٣.

إن اسم بيري ريّس الأصلي هو أحمد محيي الدين، وهو شخصية بارزة، وكان قبطاناً في الأسطول العثماني أي أسطول سليمان الأكبر. وكان أيضاً مصور الخريطة الجوّال وجامع الخرائط. وفي أشهر أعماله الأطلسية (كتاب البحرية)، وفي ملاحظاته وإرشاداته حول المرسّم التوضيحي ١٥١٣ أعلن أحمد محيي الدين بأنه رسم خرائطه استناداً إلى مجموعة من عشرين خريطة قديمة. وصرّح قائلاً بأن ثمانية من هذه الخرائط تعود إلى زمن الإسكندر ذي القرنين أو إسكندر الكبير. ولقد استحصل على خرائط أخرى من ملاح أسباني أسير عام ١٥٠١، والذي أخبر العالم أحمد محيي الدين بأنه شارك كريستوفر كولومبوس في رحلاته الثلاث إلى العالم الجديد. وفي سبيل الحصول على حريته أعطى

البحار الأسباني للقبطان العربي عدداً من الخرائط التي استعملها كولومبوس في تحديد أماكن الجزر التي تخص النصف الغربي للكرة الأرضية. بالفعل إن كولومبوس قد اكتشف مرة أخرى الأراضي التي وجدت خرائطها بشكل مُرسّمات توضيحية منذ قرون خلت، وظل اطلس البحرية يستعان به بعد موت العالم أحمد محيي الدين عام ١٥٥٤، لكن مُرَسّمه التوضيحي عام ١٥١٣م قد توارى عن الأنظار إلى أن ظهر من جديد في ٩ نوفمبر ١٩٢٩م. حدث ذلك عندما كان مدير المتحف الوطني التركي ويدعى مليل أدهم ينظف قصر توبكابي Topkapi Palace في اسطنبول من أنقاض متناثرة وقع بصره على قطع تخص الخريطة القديمة.

لم ترافق الخريطة سوى دعاية مقتصرة وغير وافية عن اكتشافها، ولكن أرسلت نسخ إلى عدة متاحف واسعة الشهرة. وفي عام ١٩٥٦ قدم المكتب البحري التركي نسخة إلى المكتب البحري الأمريكي في واشنطن دي. سي حيث فحصها الكابتن أرلنتون ماللبري Arlinton Mallery فحصاً دقيقاً.

إن الخاصية المدهشة التي تنطوي عليها الخريطة والتي أشار إليها الكابتن ماللبري هي التالية: إنها تشير بدقة إلى قياس خطوط الطول المتعلق بجنوب أمريكا وإفريقيا، وفي القرن السادس عشر عندما رسمت الخريطة. لقد تم اكتشاف خط الطول حدساً فقط. ولزم مرور مائتي سنة كي نحصل على العلاقة الطويلة الصحيحة القائمة بين القارتين.

وهناك نقطة مذهلة أيضاً اكتشفها ماللبري، ذلك أن الخريطة تشير بدقة إلى خط الساحل الذي يخص كوين مودلاند في أنتاريكتا (القارة القطبية الجنوبية) رغم أن الخريطة قد تم رسمها عام ١٥١٣، علماً بأنه لم يتم التحقق من وجود القارة الجنوبية إلا عام ١٨١٩ !!. وهناك شيء آخر أكثر أهمية. لقد اكتشف ماللبري بأن الجزر والخلجان الواسعة التي تخص الخط الساحلي الموصوف هي نفسها كما تبدو تحت الجبل الجليدي أنتاركتيك الذي تم اكتشافه حالياً بواسطة مسبار الصدى الزلزالي.

في عام ١٩٥٧ عرضت هذه الخريطة أمام مدير المرصد الغربي لمعهد بوسطن السيد دانييل لينهام الذي شارك في بعثة انتاريكتيكا. بعد تفحص دقيق توصل لينهام إلى النتيجة

نفسها التي أعلن عنها الكابتن. إن الخريطة التي رسمها أحمد محيي الدين بصورة مفصلة جداً تنطوي على المناطق التي تم اكتشافها حالياً بما فيها جبل أنتاركتيك الذي ظل مجهولاً من قبل الباحثين المعاصرين حتى عام ١٩٥٢. وتوصل هذا الفحص الدقيق إلى النتيجة التالية: كان أحمد محيي الدين يملك المرسّمات التوضيحية التي رسمها شخص ما، وقد صوّر خريطة أنتاركتيكا قبل أن تغطي الكمة الجليدية القارة الجنوبية. ولا يمكن اعتبار هذه الخريطة خديعة أو يقصد بها استحماق الغير ذلك لأنه لا يوجد أحد عام ١٩٢٩ قادر على تقديم مثل هذه المعرفة الجغرافية التي يتضمنها ذلك المرسّم التوضيحي والذي تم رسمه عام ١٥١٣ م.

لقد أذيع خبر الخريطة التي رسمها مصوِّر الخرائط والترز Walters المنتسب إلى المكتب المختص بعلم توصيف الماء في البحرية الأمريكية في واشنطن دي. سي وكان البروفسور شارل هابغود يستمع إلى الراديو آنذاك. وكان هذا البروفسور يعمل مع عالم الرياضيات ريتشارد ستراشن R. Strachan مع طلابه في معهد كين ستيت، وكان يشرف على العمل المختص برسم الخرائط وسائر المرسمات التوضيحية المتعلقة بعصر النهضة.

لقد توصل البروفسور هابغود عن طريق التفحص الدقيق إلى الإعلان عن ملاحظات مذهلة بحيث ساهمت في مضاعفة الصفة الملغزة لمنشأ الخريطة:

١ - لقد تم تحديد موقع خريطة العالم العربي أحمد محيي الدين (بيير ريّس) عند تقاطع خط الزوال في الاسكندرية، وهو ثلاثون درجة من حيث خط الطول الشرقي ومدار السرطان.

وبما أن جميع علماء الجغرافيا القدامى قد اعتمدوا في خرائطهم على خط الزوال في الاسكندرية، هذا يعني بأنهم اعتبروا المرسّم التوضيحي لبيير ريّس كنقطة مركزية مما يؤكد تصريح ريّس القائل بأن عدداً من مراجع الخرائط التي استعان بها إنما يرجع تاريخها إلى العهد الإسكندري.

٢ - هناك دلالة أخرى متعلقة بتأثير اليونان في مجال رسم الخريطة، وهو اكتشاف

الأمر التالي: كان إسقاط الخريطة مرتكزاً على المبالغة القياسية التي تساوي ٤,٥٪ ضمن محيط دائرة الأرض. لم يقم بهذا الحساب إلا جغرافي واحد ينتمي إلى العالم القديم، أي هذا الحساب الذي يتضمن المبالغة وهو اليوناني أيراتوسثينس Eratosthenes عندما تم رسم مخطط خريطة بيير ريّس من جديد لتصحيح خطأ إيراثوستينس تبين بأن جميع الأخطاء المتعلقة بخط الطول والمرسومة على الخريطة قد تحولت تقريباً إلى الصفر. هذا يعني كما أشار إلى ذلك البروفسور هابغود أن اليونانيين المختصين برسم الخرائط عندما كانوا يحضرون خرائطهم معتمدين على محيط دائرة إيراتوسثينس كانوا يستعينون أثناء ذلك بمراجع الخرائط التي تم تنفيذها بعيداً عن غلطة إيراتوسثينس بالفعل بدون أية غلطة إطلاقاً !.

إن النتيجة بَدَهيّة: إن المعرفة الجغرافية التي كان يجسدها بيير ريّس في خريطته ١٥٠٣ لم يكن منشؤها علماء اليونان ولكنها كانت مرتبطة بشعب أسبق أي الشعب الذي امتلك علماً أكثر تطوراً بخصوص رسم الخرائط أي أكثر تطوراً حتى من اليونان !.

٣ – تشير الخريطة إلى دقة مدهشة بالنسبة لقياسات خط الطول وخط العرض، علماً بأن الأدوات التي يستعملها الملاح لاكتشاف خط الطول الصحيح لم تكن موجودة أيام أحمد محيي الدين. لقد وجب انتظار اختراع الكرونومتر أو الساعة الميقاتية عام ١٧٦٥ حتى أصبحت قراءة خط الطول بدقة أمراً ممكناً، غير أن تحديد خط العرض شمالاً وجنوباً بالنسبة لخط الاستواء (أي المقنطرة) يتطلب ملاحظة فلكية في غاية من الدقة، ولكن الاختلافات تبدو لافتة للانتباه عندما يتم ذلك بواسطة رجال متدربين بدلاً من أن ينفذها مكتشفون مغامرون. مثلاً فيما يتعلق بالرحلة الأولى للعالم الجديد، لم يسجل كريستوف كولومبوس أية قياسات مختصة بخط الطول ولكنه اعتمد فقط على قياسات ثلاثة مرتبطة بالمقنطرة والتي كانت بالصدفة غير صحيحة جميعاً، ذلك لأنه بعد مائة سنة من هذه الرحلة الشهيرة، استعمل رسامو الخرائط الأوروبيون تخمين المكتشفين، فوضعوا مثل هذه الجزر الشاسعة أمثال كوبا وهسبنيولا فوق مدار السرطان بدلاً من أن توضع هذه الجزر تحت هذا المدار !.

وبالعكس ليست فقط بلاد الكاريبي وإسبانيا وإفريقيا وسواحل أمريكا الجنوبية مرسومة في خريطة أحمد محيي الدين استناداً إلى مواقع صحيحة بالنسبة إلى كل واحدة منها، ولكن هناك أيضاً مناطق منعزلة من اليابسة أمثال جزر كاب فيردي وإيزورسي وجزر الكناري تم تحديدها استناداً إلى خط العرض وخط الطول، فكانت الخريطة الأولى مرسومة بدون أية غلطة وكانت الخريطة الثانية قد نفذت دون الابتعاد عن التحديد الصحيح بدرجة واحدة.

وقال البروفسور هابغود: بكل بساطة لا توجد أية طريقة لتفسير هذا التحذلق وهذه الحنكة في رسم خريطة أحمد محيي الدين، وذلك بالمقارنة إلى جهل المختصين برسم الخرائط في القرن الثالث عشر. إن الخريطة تنطوي على شهادة لا تنكر وتؤكد على إنجاز علمي يتجاوز مهارات الملاحين ومصوِّري الخرائط في عصر النهضة والعصور الوسطى وفي العالم العربي أو بالنسبة لأي علماء جغرافيا قدامى. إنها وليدة شعب مجهول يسبق تاريخه عهد أي تاريخ معروف !!.

٤ – يصف المرسّم التوضيحي الخاص بأحمد محيي الدين منطقة الكاريبي عند الزاوايا الصحيحة بالنسبة لموقعها الميركتوري السوي، وقد رسمت أمريكا الجنوبية بشكل مبسط. ويقول البروفسور هابغود بأن مراجع الخرائط التي اعتمد عليها أحمد محيي الدين في رسم خريطته قد استخدمت المشبَّك الدائري المرتكز على علم المثلثات الكروية مع النقطة البؤرية المحددة التي تقع في مصر.

وفي سبيل التحقق من هذه الفرضية قام المكتب المختص بتصوير الخرائط المائية في البحرية الأمريكية بالتجربة التالية: لقد رسم خريطة حديثة مستخدماً المشبك نفسه واستناداً إلى هذا التعمير ظهرت منطقة الكاريبي فعلاً عند جهة الزوايا الصحيحة وكانت أمريكا الجنوبية موسعة، أي فيها امتطاط.

إن هذا النموذج من الإسقاط الدائري لم يتطور كلياً في أوروبا إلا بعد مرور قرون عديدة، منذ رسم الخريطة. وتشير خريطة أحمد محيي الدين إلى عدم تجانسها مع مثل هذا الإسقاط. كذلك إن خريطته تشير إلى الجزر وإلى عدة أماكن محددة عبر سواحل أمريكا

الوسطى والجنوبية التي تم اكتشافها جزئياً ولكن لم تحدد أماكنها بدقة ولم يتم اكتشافها اطلاقاً قبل عام ١٥١٣م، ويشمل مثل هذا الأمر جزيرة بانيس وجزيرة أندروس وسان سلفادور وجامايكا وسواها. ويشير المرسّم التوضيحي إلى أبعد من ساحل أمريكا الجنوبية، أي إلى مصب الأمازون ومصب جزيرة مراجو. وقد تم رسم الشكل وتحديد الموقع بصورة كاملة استناداً إلى خط الطول وخط العرض.

بلا شك أن الخاصية الأكثر دهشة بالنسبة لخريطة أحمد محيي الدين هي النقطة التالية. يشير خط ساحل أنتاركتيكا إلى منطقة كوين مودلاند.

إن الخرائط الحديثة الزلزالية تظهر أن هذا الساحل هو صخري مستوعر بالإضافة إلى عدة سلاسل من الجبال وذرى مختلفة من الجليد. إن خريطة محيي الدين تشير إلى النمط الساحلي نفسه ولكن دون الجليد، مثلاً اكتشف ماللبري خليجين واسعين على خريطة محيي الدين حيث كانت تشير الخريطة الزلزالية إلى اليابسة، غير أنه عندما طلب من الخبراء التحقق من صحة هذه القياسات، تبين لهم أن خريطة القرن السادس عشر كانت صحيحة فعلاً.

ما هي النتيجة النهائية بالنسبة للمختصين برسم الخرائط؟. يعتقد البروفسور هابغود وسواه بأنه لا توجد طريقة للمطابقة بين خريطة ١٥١٣ والمعطيات الاستدلالية الخاصة بخريطة محيي الدين الحرفية المتعلقة بجغرافية أنتاركتيكا.

ذهبوا إلى القول: كان يوجد شخص ما قد امتلك معرفة تقنية القياسات التي لم تكن مستعملة في أوروبا حتى ظهور خريطة أنتاركتيكا في القرن التاسع عشر، قبل أن تصبح القارة مغمورة بالجليد. لقد أخذت قطع نموذجية في بحر روس من ساحل أنتاركتيكا عام ١٩٤٩ بواسطة بعثة بيرد Byrd وتبين أنه كان يوجد فعلاً زمن فاصل ماض عندما ترسبت بقايا من التراب ذي الحبات الدقيقة مشيرًا إلى وجود ساحل جليدي حر، والى وجود أنهار قد انحدرت نحو البحر.

ومما يثير الدهشة أيضاً هو الأمر التالي: بعد تحليل خريطة محيي الدين تبين بأنها ليست الخريطة الوحيدة التي تشير إلى المعرفة المستقبلية حول الأرض في التاريخ الموغل في

القدم. إن خريطة أورينتيوس فينيوس عام ١٥٣١ تشير إلى الأنهار في أنتاركتيكا التي أصبحت اليوم جبالاً من الجليد العائمة. إن خريطة الحاج أحمد (عام ١٥٥٩) تصف رسماً للعصر الجليدي أي جسر اليابسة الذي أقيم بين سيبيريا وآلاسكا.

وفي عام ١٣٨٠ صوَّر الإخوة زينو طبوغرافية غرينلاند تحت الرأس الجليدي الشمالي بينما تشير خريطة أنديريا بينكازا عام ١٥٠٣ إلى أن أوروبا الشمالية كانت مغمورة بجموديات العصر الجليدي.

إن النتيجة الواقعية الوحيدة التي يمكن إدراكها استناداً إلى البيّنة التراكمية لخرائط العصور الوسطى هي التالية: لقد كانت جميع الخرائط تستند إلى مراجع تمّ صنعها بواسطة حضارة متطورة وقد سبق عهدها الثقافات القديمة المعروفة. إن هذه الثقافة المجهولة كانت تملك معرفة في تصوير الخرائط مماثلة للمعرفة التي نملكها اليوم، وقد سبقت هذه المعرفة بسنوات عديدة الحضارات المصرية والبابلية واليونانية والرومانية، أي حصل ذلك عندما كانت مناطق الإنتاركتيك والأركتيك تجتاحها في بداية الأمر الكتل الجليدية. لقد عرفت هذه الشعوب الحجم الصحيح للأرض وقد استعملوا علم المثلثات الكروية في قياساتهم الخاصة والرياضيات واستخدموا مساقط الخرائط الجغرافية بأسلوب حديث متفوق. بالإضافة إلى علمهم هذا، لقد توفر بين أيدي هؤلاء المساحين نمط متطور من أدوات التكنولوجيا وعدد من الاختصاصيين المدربين في استخدامها وذلك لقياس خط الطول وخط العرض. وختم البروفسور هابغود قائلاً: «إن الحضارة السابقة للحضارة القديمة، لزم أن تكون منظمة وموجهة استناداً إلى مقياس شامل أي مقياس لعموم الكرة الأرضية».

في سبيل وضع هذه الاكتشافات ضمن دراسة استطلاعية عالمية قديمة داخل إطار تأريخي كما أظهر ذلك البروفسور ألبرايت، وجب توجيه افتراضنا وإصرارنا في الادعاء إلى مجال أبعد، فنقول: «لزم أن تكون هذه الدراسة الاستطلاعية قد نفذت فعلاً بعد الطوفان، أي عندما تركت كتل اليابسة كما هي في أنماطها الحالية»، ولكن قبل بداية تراكم الجليد عند القطب الشمالي والقطب الجنوبي.

في سفر التكوين ١٠: ٢٥ نلتقي أحد ذرية نوح ويدعى فالج، ولقب بهذا الاسم لأنه في زمنه كانت الأرض منقسمة. إن التأويل المألوف لهذا النص مرتبط بتقسيم الأمم غير أنه جاز أن يعني أيضاً تقسيم الحصص أو مساحة ما أو تقسيم قياس معين. وهناك ترجمة أكثر دقة متعلقة بهذا النص التاريخي وتقول: في زمن فالج تم قياس الأرض أو تم مسحها. وهناك أمر مثير للدهشة إذ يشير التدوين بوجود منهجية في رسم الخريطة الجغرافية. ويخطر في البال في هذا المجال بأن مصرايم حفيد نوح قد ساهم في تصوير المرسم التوضيحي الخاص بالكون، ويعني اسمه «وصف، رسم خريطة، قدم بياناً»، بالأخص استناداً إلى قياس المسافات. كان مصرايم مؤسس مصر القديمة، ويجدر الملاحظة بأنه توجد على الأقل خريطتان لعهد النهضة بحيث تشيران إلى المعرفة المتطورة، وهما المرسم التوضيحي لمحيي الدين والمرسم التوضيحي لرينال اللتين يرجع تاريخهما إلى ١٥١٠ وكانا يستندان إلى الإسقاط الدائري مع النقطة البؤرية في مصر.

هناك خلف ثالث لنوح ومن المحتمل أنه ساهم في رسم خريطة الكرة الأرضية وكان يدعى ألموداد، ويعني اسمه عندما يترجم من العبرية «الشخص الذي يحدد القياسات». وتقول رواية كلدانية قديمة بأنه كان مخترع علم الجيومتري. «لقد قاس الأرض حتى أطرافها». وكان ألموداد يعتبر الجد الأعلى للعرب المقيمين في جنوبي الجزيرة العربية. هل يوجد ارتباط بينه وبين الواقع التالي: هناك عدد وفير من خرائط عصر النهضة التي كانت تظهر خاصيات جغرافية الأرض التي قد تم تدوينها أولاً بواسطة العرب والتي استقاها العرب من مراجع قديمة ولم يتم تحديد هويتها إطلاقاً فيما بعد؟!.

جاز أن تكون القرابة بين فالج ومصرايم وألموداد أوثق مما نظن عند النظرة الأولى. استناداً إلى التدوين، إن الفترات الزمنية تتراكم بحيث تبدو منهجية رسم الخرائط وقد غطت تقريباً كل الحقبة ابتداء من عام ٢٨٠٠ ق.م حتى عام ٢٥٠٠ ق.م. وهي فسحة زمنية تساوي ٣٠٠ سنة. وقد انتشرت فوق سنوات كافية كي تكون كاملة وتامة. وهذه النتيجة تستند إلى ما اكتشفناه في خرائط عصر النهضة. إنها لا تفتح المجال للتأول

والتحديث ذلك لأن بين خرائط أنتاركتيكا توجد خريطة بوش عام ١٧٣٧ التي نسخت من خريطة يونانية قديمة تشير إلى وجود قارة متحررة تماماً من الجليد، أما خريطة أورانتيوس فينيوس عام ١٥٣١ فتشير إلى وجود مركز للقارة وقد أخذ يغمره الجليد عندما تم رسم خرائط المراجع. لكن المرسم التوضيحي الخاص بأحمد محيي الدين ١٥١٣والمرسم مركتور ١٥٦٩ يصوران فقط ساحل الأنتاركتيك الذي بقي غير مكسو بالأنهار الجليدية، غير أنه يبدو واضحاً بأن الأنتاركتيكا قد خضعت للدراسة الاستطلاعية عدة مرات، قبل وخلال حقبة الكمّة الجليدية القطبية الجنوبية التي انتشرت فوق القارة. في خريطة الإخوة زينو ١٥٣٠ تبدو منطقة غرينلاند متحررة من الأنهار الجليدية كما كانت تبدو قبل العصر الجليدي بينما تصف خريطة بطلمي Ptolemy الخاصة بالمنطقة الشمالية الصفيح الجليدي الذي يتقدم نحو غرينلاند الجنوبية الوسطى وفي الوقت نفسه تشير إلى وجود الأنهار الجليدية التي تتراجع من جهة ألمانيا الشمالية وبلاد السويد الجنوبية وجاز أن يحدث ذلك عن طريق الاكتشافات المختصة بالدراسة الاستطلاعية المتعلقة بالأجزاء التي دونتها المساحات السابقة وخلال وبعد العصر الجليدي.

يحتوي العالم على كنز من البدهية التي تشير إلى النشاط المتواصل في المجال المختص بعلماء الجغرافيا والمساحين والعلماء. ومثل هذا النشاط قد وجه المكتشفين نحو هدفهم خلال المطلع الكالح لتطور عصر ما بعد الطوفان.

- **بينة أخرى خاصة بالدراسات الاستطلاعية الجغرافية المتعلقة بعصر ما بعد الطوفان:**

يجب ألا نقلل من أهمية المجال الخاص بالتقنيات المسحية التي تطورت بواسطة الأقدمين. تعتمد الكتب الهندسية المقدسة بيروناس على الاتصال المباشر بين الهند والأماكن البعيدة حول العالم. كان الهنود مطلعين جيداً على أحوال أوروبا الغربية التي كانوا يسمونها «فاراها دويبا». وكانوا يسمون انكلترا «سوتيا سيلا» أي جزيرة الجرف الصخري الأبيض، وكانوا يسمون إيرلندة هيرانيا، وتقول الأساطير الإيرلندية بأن جماعة

من الدرويديين قد زاروها قديماً، وجاءت هذه الجماعة من بلاد الهند. ويقول الإيرلنديون بأنهم أقاموا هناك لوقت قصير وقد جاءوا بوصفهم مساحين وليسوا غزاة. ولكن الكتب الهندية تتجاوز حدود أوروبا الغربية في مذكراتها، إنها تصف أمريكا الشمالية ومحيطات الأركتيك وأمريكا الجنوبية والوسطى ومواقع أخرى. ونجد مثل هذا البحث المفصل في خلفية السومريين القدامى الذين زودونا بمعلومات مثيرة، وهذه المعلومات ترتبط بالبروج الإثنى عشر مع خاصيات الأراضي التي تم اكتشافها ضمن اتجاهات هذه البروج المذكورة. عند الجهة الشمالية الغربية من بلاد سومر في اتجاه برج الجدي توجد منطقة القوقاز والمعروفة في الأزمنة القديمة بقطعان الماعز الجبلية المتوحشة وبالأخص بقطعان الماعز الأليفة التي كانت تصدر إلى سومر، وعند الجهة الشمالية الغربية يوجد برج الدلو وضمن هذا الاتجاه توجد آسيا الصغرى ونبع دجلة والفرات. حسب الميثولوجيا كان الإله الخاص للنهر يصوّر وهو يمد الينبوع بمياه جديدة أي وهو ينحني فوق الينبوع ويسقيه ماءً. أما برج الحوت الواقع عند الجهة الغربية الشمالية الغربية في اتجاه السواحل الكنعانية والفينيقية وهو مشهور بالصيادين والخدع السخية الوافرة. وهكذا دواليك مع سائر البروج كان يوجد دائماً ارتباط بين فلك البروج والأراضي الموجودة على خط اتجاهها.

وعندما نتأمل المعرفة الجغرافية الموضحة بواسطة فلك البروج والمناطق التي تمثلها، نصل لزاماً إلى النتيجة التالية: خلال المرحلة المبكرة من تاريخهم كان السومريون يألفون الأراضي البعيدة جداً أمثال إفريقيا الشمالية وبلاد الهند وبلاد الحبشة وسهول روسيا الجنوبية وحتى في جميع المناطق المتوسطية الشرقية وآسيا الغربية. بالتأكيد لقد بلغوا حداً بعيداً جداً في إنجازاتهم أي الانجازات التي تخص شعبًا غالباً ما كان يُعتبر بدائياً في سياق الشعوب القديمة.

- **البنية الخاصة بالدراسة الاستطلاعية الكونية في مصر:**

يجب الأخذ بعين الاعتبار وبصورة جدية انخراط مصرايم في الدراسة الاستطلاعية الكونية التي بدأ تنفيذها بعد الطوفان. إننا نعلم عن طريق التاريخ المصري بأن مصرايم

كان يعتبر الأب الأول لجميع المصريين، وأنه من بالغ الأهمية التأكيد على أن التدوينات العلمانية المصرية تشهد بأنه منذ الحقبة الأولية (القديمة جداً) كان المصريون فعلاً يمتلكون المعرفة الخاصة بقياسات الأرض. وكانوا يمارسون التقنيات المسحية بمهارة وحنكة.

لقد اكتشف ليفيو كاتوللو ستتشيني، وهو من أهم الرواد المشهورين في العالم المختصين بالقياسات القديمة، رمزاً هيروغليفيا (تصويريا خاصاً بحيث يظهر على جميع عروش الفراعنة ابتداءً من عهد السلالة الحاكمة الرابعة). ويتكون هذا الرمز من حبال كثيرة العقد، وهي ترمز لوحدة مصر العليا ومصر السفلى. عند الخط المتوازي الثالث عشر حيث تتقاطع دلتا النيل عند الجهة الجنوبية من خط الزوال ٣١ درجة و٣٠َ شرقي غرينتش، الذي يبدو وقد تأسس بوصفه خط الزوال الأول لمصر في العصور القديمة المجهولة. وعند قاع الهيروغليف توجد ثلاثة أزواج من الخطوط الأفقية ذات الأطوال المختلفة وهي تصف المجموعات الثلاث للقيم التي ينسبها المصريون إلى مدار السرطان. وكان يمثل الخط الوسطي خط العرض الأستوائي المصطلح عليه والذي يبلغ ٢٤ درجة ويرمز الخط الأسفل إلى خط العرض الحالي الذي يبلغ ٢٣ درجة و ٥١َ بينما يقع الخط الرأسي عند خط العرض الذي يبلغ ٢٤ درجة و٦َ. إن خط العرض الأخير الذي يبلغ ١٥َ شمالاً بالنسبة للخط الحقيقي هو خط هام لأن مقياس١٥َ هو نصف قطر الشمس، مما يؤكد بأن المصريين قد أدركوا بأن الحرف الخارجي للشمس وليس محورها يستوجب مراقبته وأخذه بعين الاعتبار بالنسبة للدراسة الاستطلاعية الخاصة بعلم مساحة شكل الأرض Geodetic survey.

وعند تقاطع النيل بمقياس ٢٤,٦ درجة على جزيرة الفيلة المقابلة لأسوان كان يملك المصريون مرصداً فلكياً هاماً.

يبدو بأن هناك المدن الكثيرة البالغة الأهمية في مصر والتي تم تشييدها استناداً إلى العلامة القائمة بين خط الزوال الأول في مصر ومدار السرطان. إن عاصمة ما قبل عهد السلالة الحاكمة في مصر السفلى وهي بوتو كانت تقع على خط الزوال الأول أي ٣١,٣٠

درجة قرب مصب نهر النيل. وإن مدينة ممفيس وهي العاصمة الأولى لمصر المتحدة كانت تقع على خط الزوال الأول أي ٢٩,٥١ دقيقة أي تعادل تماماً ست درجات شمالاً لمدار السرطان. وفي عهد السلالة الحاكمة الثانية عشر كانت تتجه العاصمة مرة أخرى نحو طيبة. وتم تأسيس خط الزوال المركزي الجديد لمصر عند ٣٢,٣٨َ شرقاً بحيث يوازي الجانب الشرقي من دلتا النيل. وكانت مدينة طيبة تقع حيث يلامس خط الزوال المنعطف الشرقي لنهر النيل عند ٢٥,٢٤,٥ شمالاً. ومما يثير الدهشة هو الخط المتوازي الذي يبلغ بدقة تقريبية ٢/٧ من المسافة القائمة بين خط الاستواء والقطب الشمالي. لقد تركزت الدراسة الاستطلاعية الخاصة بالمصريين ليس فقط على أرض النيل ولكن عبر بقية العالم القديم أيضاً. لقد اكتشف ستتشيني بان أمثال العواصم الأولية شأن نمرود في بلاد العراق (أو ما بين النهرين) وساردیس في آسيا الصغرى وسوسة في بلاد فارس وحتى أنيانغ في الصين، جميعاً قد تم تأسيسها استناداً إلى علاقتها بخط الزوال الأول في مصر. واستناداً إلى خط العرض تم أيضاً تأسيس دلفي ودودونا وهما الموقعان اللذان كانت تجري فيهما العبادة ويعتبران الأكثر أهمية بممارسة الطقوس الخاصة بتبليغ الوحي في العهد الأولي اليوناني، بمقتضى القياسات المصرية أي عند ٧ درجات و ٨ درجات عند الجهة الشمالية من مدينة بوتو.

ويعتقد ستتشيني بأن الإسكندر الكبير عندما دمر مدينة هليوبوليس وهي مركز مصر العلمي واستبدلها بمركزه الخاص في الاسكندرية إنما قد دمر فعلاً الآثار الباقية الأخيرة الخاصة بمعرفة الدراسات الاستطلاعية المصرية. بهذا لم يكن علماء الجغرافيا اليونانيين الاسكندريين رجال العلم الكبار كما اعتقد لمدة طويلة إذ لم يفعلوا أكثر من إحياء جزئي للعلم المتطور في الجغرافيا الذي سبقهم أصلاً.

● **البيّنة الخاصة بالدراسة الاستطلاعية الكونية في الصين:**

نجد لدى أهل الصين الأولين البنية التالية: كانوا يملكون معرفة متطورة وقد حصلوا عليها من الدراسة الاستطلاعية الجغرافية المختصة بالكون وذلك في عهد ما بعد الطوفان. إن أقدم عمل أدبي صيني ويدعى الملك شان – هاي Shan Hai: تأليف حول

الجبال والبحار، ولقد بقي على حالته بعد الطوفان وهو أصلاً بحث في الجغرافيا، ومؤلفه يو الكبير الذي أصبح امبراطورًا عام ٢٢٠٨ ق.م. وقد تم تأليف الأطروحة عام ٢٢٥٠ ق.م أي مائة سنة بعد موت ألموداد تقريباً، وهو الجيل السابع من ذرية نوح والذي قاس الأرض حتى أطرافها. ظل تأليف الملك شان – هاي عملاً علمياً لمئات من السنين، ولكن خلال القرن الثالث قبل الميلاد عندما قامت تدوينات صينية بتكثيف وتقييم جديد في ميدان هذه الدراسة تبين لهم بأن المعرفة الجغرافية التي تحتويها لم تكن متطابقة مع أية بقعة أرضية معروفة في ذلك الزمن. هكذا تم تصنيف تأليف الملك شان – هاي في باب الأسطورة، وظل معتبراً كعمل غير هام في الأدب الصيني. ولكن منذ سنوات قليلة تم فحص بعض الأقسام من تأليف الملك شان – هاي، أي تم فحصها من جديد، ولقد أحدثت المعلومات التي تحتويها تبديلا ملحوظاً بشأن الافتراضات التي تتعلق بالأطروحة. في الكتاب الرابع المعروف بعنوان التأليف في الجبال الشرقية توجد أربعة أقسام، وهي تصف الجبال التي كانت تقع ما وراء البحر الشرقي عند الجهة الأخرى من المحيط الهادي. يبدأ كل قسم بوصف الخاصيات الجغرافية المتعلقة بجبل معين: اي يوصف الارتفاع والشكل والرسوبات المعدنية والأنهار المحيطة به، ونماذج من النبات والخضر، ثم يذكر الاتجاه والمسافة بالنسبة للجبل التابع وهكذا دواليك إلى نهاية الرواية. عند تتبع هذه الإرشادات وهذه الاتجاهات والمسافات استطاع المكتشفون العثور على هذه الأقسام الموصوفة بالتفصيل من الناحية الطوبوغرافية في أمريكا الشمالية الغربية والوسطى، وقد استعانوا بهذا التأليف كما لو أنه خريطة الطريق.

يبدأ القسم الأول بمعالجة المياه العذبة للنهر وينقلنا حتى الجهة الجنوبية الشرقية، إلى قمة ميديسن باو ثم ينقلنا إلى لونغس بيك، غرايس بيك، قمة بيرنيستون، قمة بلانكا في كولورادو. والى شمالي قمة تروشاش، قمة مانزانو، وسيرا بلانكا في نيو مكسيكو، ثم إلى قمة غوادلوب، قمة بالدي، وأخيراً قمة شيناتي قرب ريو غراندي في تكساس.

يصف القسم الثاني البعثة التي وصلت إلى مناطق بعيدة. ابتدأت في مانيتوبا عند جبل هارت، قرب بحيرة وينيغ، ثم تابعت سيرها حتى جبل موز في سسكشوان، وانطلقت من

هناك إلى مضيق سيو (بين أندس وفرفيوه) في مونتانا، إلى جبل وولف وقمة ميديسين باو في ويومينغ، ثم إلى قمة لونغس وأكمة هارفارد وقمة ساميت في كولورادو، بعد ذلك، إلى قمة شيكوما، قمة بالدي، قمة كوكس وقمة أنيماس في نيومكسيكو، ثم إلى داخل مكسيكو، واصفاً مادِرو، باماشيك، كولياكان ومرتفعات تريانغولو، وصولاً إلى ساحل الباسيفيك قرب مازاتلان.

أما القسم الثالث فهي دورة الجبل حول ساحل المحيط الهادي: أكمة فِرْوِذِر وأكمة بوركِت في ألاسكا، بيرنس روبيرت وأكمة واد نيغتون في كولومبيا البريطانية، أكمة أولمبوس في واشنطن، أكمة هود في أوريغون، واكمة شاستا، لوس غاتوس، وسانتا بربارا في كاليفورنيا.

يغطي القسم الرابع والأخير ذرى عديدة ضمن مساحة صغيرة: أكمة رنييه في واشنطن، أكمة هود، جبل بشلور، جبل جيرهات، قمة ماهوغاني وجبل كرن في أوريغون، وقمة تريدنت وقمة كابيتول في نيفادا.

لا يعتبر تكوين الجبال الشرقية دراسة استطلاعية جغرافية وحسب ذلك لأن الحكايات الموجودة في كل قسم تفيدنا بملاحظات وتجارب خاصة بالمساحين انطلاقاً من التقاط العقيق الأسود وكتل الذهب التي توجد في أرض نيفادا وصولاً إلى مراقبة عجول البحر وهي تتلهى على الصخور في خليج سان فرانسيسكو.

لقد لذ لهم تأمل الحيوان الغريب الذي يتجنب أعداءه مدّعياً بأنه ميت وهو حيوان صغير أمريكي يعيش في الأشجار وينشط في الليل ويتماوت إذا قبض عليه.

هناك أقسام أخرى من تأليف الملك شان – هاي وبالأخص الكتابان التاسع والرابع عشر حيث يصف الكاتب مناطق في أمريكا الشمالية. يوجد وصف مميز في الكتاب الرابع عشر ويتعلق بالوادي المشع أو الوادي الكبير أو الجدول الذي يجري في وادٍ عميق طويل دون قرار، في المكان الذي ولدت الشمس فيه. إن أي شخص قد شاهد بزوغ الشمس في كانيون الكبير سوف يتبين له حقيقة ما رآه المساحون الأولون، وما تزال الأقسام الأخرى من تأليف الملك شان هاي تعتبر الحكايات الخاصة بالاكتشافات التي تتجاوز حدود

الشرق في البحيرات الكبيرة وفي مناطق وادي المسيسبي. ويبدو الأمر بدهياً استناداً إلى دقة التفاصيل الجغرافية والملاحظات الشخصية في تأليف الملك شان هاي بأن الدراسة الاستطلاعية العلمية الواسعة الخاصة بقارة أمريكا الشمالية قد نفذت بإشراف الصينيين منذ ٤٥٠٠ سنة تقريباً.

- **دراسة استطلاعية كونية – لغة كونية:**

استناداً إلى التحقيقات الأولية التي أجريت بشأن تأليف الملك شان هاي، لوحظ بأن الطرق التي سلكها المساحون في أمريكا الشمالية تحتوي على نماذج عديدة من الرسومات الصخرية. ومن أهم هذه النماذج «وارتينغ روك» قرب غرينورا في داكوتا الشمالية، ثم راتينغ أونستون في البرتا في كندا. غير أنه يوجد مخطوط صخري في كولومبيا البريطانية، وكان الخبير في النقش على الصخور الخاصة بعهود ما قبل التاريخ فيليب ثورنبورغ أول من استطاع تمييزه بين سائر التصويرات الصخرية فاعتبره نقشاً من حجر سيزوتل sisutl وهو التنين الصيني. ويقول ثورنبورغ أيضاً: يبدو بأن خلفية النقش شرقية. ويبدو من المستحيل تحديد زمن هذا النقش. لقد وجدت البعض من هذه التصويرات وقد كانت مدفونة تحت طبقة عليا من التربة. والآن يبدو بأن هذا النوع من التربة لم تكن هي نفسها التي غمرت هذا النقش الصخري. لقد تكونت هناك. ويبدو بأن هذا النقش النحتي يعود إلى زمن يتراوح بين ٥٠٠٠ – ٧٠٠٠ سنة. ومثل هذا الزمن يبدو قليلاً فعلاً بالنسبة لهذه المنطقة. لقد اكتشف ثورنبورغ نقشاً على الصخر من عهد ما قبل التاريخ في جزيرة فانكوفر، ويحوي هذا النقش على ثقب حيث يتقاطر منه الماء. هذا يعني أنه وجد هناك من زمن غير محدد. لقد أمضى وليام وماي ميري كوكسن وهما من هواة علم الآثار عشر سنوات وهما يبحثان في النقوش الصخرية من عهد ما قبل التاريخ (البتروغليفية) في كندا وفي العالم أجمع. وكانت نتيجة الأبحاث التالي:

كان يوجد في حقبة التاريخ البشري الموغلة في القدم جماعة من الناس يعرفون باسم كتاب الحجر، وقد خلفوا آثاراً في كل قارة. استناداً إلى مقارنة دقيقة اكتشف وليام وميري كوكس سلسلة خاصة مكونة من ٢٤١ شارة ورمز جيومتري(اي رمز خاص بشكل

هندسي محدد). وقد تم توزيع هذه النماذج من هذه السلسلة بالشكل التالي: ٢٠١ في الشرق الأوسط، ١٧١ في الشرق الأقصى، ١٣١ في أمريكا. واستناداً إلى البقايا البتروغليفية في وادي النيل التي قورنت بالحضارة المصرية القديمة الأخيرة، توصل وليام وميري إلى تحديد تاريخ ظهور كتاب الحجر. أي تم ظهورهم حوالي١٥٠٠ سنة قبل صعود وارتقاء مصر.

وعلى ضوء هذه الرسومات نفسها توصل الباحثون إلى وصف كتاب الصخر: كانوا يرتدون المُدارة (وهي أُزرة مطواة يلبسها الأسكتلنديون) حتى الركبتين وكان يشبه زيّ المزارعين المصريين القدامى. كانوا يملكون قوة عظيمة ومتانة ملحوظة بحيث استطاعوا اختراق الأراضي التي يستوحش منها الإنسان، وحيث تم اكتشاف الصور المحفورة الناتئة فوق سطح الأرض والتي تخصهم أصلاً. واعتبر الباحثان بأن كتَّاب الحجر لم يكونوا من الصيادين الهمجيين أو من الرحَّل لكنهم كانوا ينتمون إلى شعب ذكي نظامي في أفعاله، وكانت تنطوي الرموز على المعنى والمقصد بخصوص التكرار وتحديد المواقع. وقال باحثان أيضا: لقد اجتازوا في سفرهم المحيطات أو على أقل تعديل خطوط السواحل وقد اخترقوا إلى مسافة بعيدة القارات على طول الأنهار والسواقي والبحيرات وشواطئ المحيطات. لقد خلفوا وراءهم شارات توجيهية لتحديد الطريق بالنسبة للأشخاص الذين كانوا يتبعونهم. هكذا كان كتاب الصخر مكتشفين ومختصين بالجغرافيا، ربما كانوا المكتشفين والمختصين بالجغرافيا أنفسهم الذين نفذوا المرسم التوضيحي للعالم بعد الطوفان.

إن عمل الباحثين وليام وميري بخصوص الرموز قد تم التحقق من صحته بواسطة عدد من الباحثين الآخرين. إن عالم الآثار الانكليزي س. ف . هود بعد دراسة ألواح الطين التي تخص منظر ما قبل التاريخ لشعب التاتاريا في رومانيا، اكتشف روابط قائمة بين رموز لوح الطين هناك والألواح التي تم اكتشافها في كريت والعراق ومصر وبلاد البلقان. لقد توصّل للنتيجة التالية:

- لقد تم استخدام نظام الإشارات منذ ٦٠٠٠ سنة وفي مساحات واسعة. ويؤيد

هذا الرأي ن. فلاسا وهو عضو في متحف كلوج. استناداً إلى الاكتشافات التي حصل عليها بنفسه.

لقد ظهرت رموز مماثلة لها وترجع إلى الحقبة نفسها وذلك في فنيكا وتوردوس في رومانيا وفي تروي وجزيرة إيجن في ميروس. واستناداً إلى أبحاثه الخاصة وأبحاث زملائه ذهب هود إلى القول بأن النظام الوحيد للصور الناتئة المحفورة على السطح (أي الصورة الغليفية) إنما يعود أصلها إلى بلاد العراق أو إلى وطن آخر في الشرق الأوسط، ثم انتشرت من هناك مجتازة المسافات الشاسعة، في زمن قصير جداً. أما أوسوالد توبيش في كتابه «كولت سيمبل شريفت Kult Symbol Schrift فقد ذهب ببحثه إلى آفاق بعيدة، ومثل الباحثين كوكسن لقد اكتشف هذا التماثل المدهش في الرموز الموجودة في إفريقيا وأوروبا وآسيا وأمريكا.

لقد نقشت هذه الرموز على الصخور وعلى ألواح الصلصال لأغراض أخرى متعلقة بالاتصال اللغوي.

لقد أجرى الإيرلندي العالم باشتقاق الكلمات ورموزها جون فيليب كوهان بحثاً بالغ الأهمية بخصوص استخدام اللغة في الماضي. لقد ركز جهوده حول عدة عقد من السنين الأخيرة المرتبطة بالدراسة المفصلة حول مصادر الكلمات المتعلقة بكل لغة حول العالم. لقد اكتشف بأن هناك العدد الوفير من الكلمات التي تحتوي على كلمات جذرية متشابهة أو على توحيدٍ تأليفٍ جذري بحيث لا يمكن اعتبار مثل هذا التشابه ضرباً من المصادفة المحضة.

لقد اكتشف كوهان منذ البداية في دراسته بأن ظهور هذه الجذور مرة أخرى إنما يرتبط بالمنشأ الموجود في الشرق الأوسط ويمكن العثور عليها أيضاً في الأسطورة السامية أو في العهد القديم وبالأخص في سفر التكوين. ومما دفع كوهان إلى القول معلقاً بشأن جذور الكلمات المنتشرة بشكل واسع: «لا بد من القول وهو القول الأكثر منطقية بأنه لا يمكن أن يكون مصدرها إلا مرتبطاً بالساميين.

واستناداً إلى البيّنة العلمية يبدو بأن النسبة المئوية العالية من الشعب الساكن على

الكوكب الأرضي حالياً مرتبطة أصلاً وإلى حد بعيد وعلى الأقل بالجدول الأولي الدموي (أي بالرابطة الدموية) المنبثق من المصدر السامي».

واستطاع كوهان فيما بعد التأكيد في بحثه على النقطة التالية: كان يوجد هناك تشتتان كبيران من الشعوب القادمة من الشرق الأوسط، وحصل ذلك في الماضي السحيق. وكل فئة نقلت معها المجموعة الراسخة من الكلمات الجذرية. وكانت الفئة الثانية من هذه الشعوب مهتمة بصورة ملحوظة ضمن مساحة محددة من العالم: حوض المتوسط، أوروبا، إفريقيا، وأجزاء من آسيا، بلاد الهند الغربية والبرازيل. غير أن الآثار المتعلقة بالتشتت الأول هي أقل بروزاً حالياً قياساً للفئة الثانية، التي اكتسحت العالم بأسره في وقت قصير جداً، على حد اعتقاد كوهان.

ويقول: إذا وضع أحد الأشخاص غاطية على شكل مرسّم توضيحي بحيث يتضمن الفئة الأولى فقط من الأسماء على رأس خريطة العالم ثم وضع على رأس الخريطة أيضاً غاطية أخرى على شكل مرسّم بحيث تنطوي فقط على الفئة الثانية من الأسماء فسيصل إلى النتيجة المنطقية التالية: كان يوجد في أزمنة ما قبل التاريخ ليس تفريق واحد بل تفريقان قادمان من بلاد بحر المتوسط. لقد كان التفريق الأول منتشراً فعلاً في العالم بأسره بينما تناقص تدريجياً التفريق الثاني ثم تلاشى عبر الساحل الشرقي من أمريكا، في اتجاه واحد، وفي اليابان والفلبين وأستراليا ونيوزيلندة في الاتجاه الآخر. كذلك جاز الحصول على نتيجة أكثر منطقيةمستقاة من المعطيات الاستدلالية ولكني غير قادر على توضيح خاصية مثل هذه النتيجة. ومرة ثانية أقول: جميع الأسماء الأساسية (أو الأسماء الركنية) الموجودة لدى الفئتين، إنما تملك نقاطاً أصلية ظاهرة للعيان، في علم أساطير الأولين والحكايات الخرافية التي تخص الشعب السامي، كذلك فيما يتعلق بأسماء الأماكن السامية.

إن مثل هذه الاكتشافات تفيدنا بمعلومات وفيرة. إن اكتشاف الرموز والكلمات المنتشرة من خلال نقطة أصلية مشتركة في مكان ما من الشرق الأوسط إنما تؤيد كليا سجل سفر التكوين التاريخي وقصته المتعلقة بتشتت الأمم الناتج عن نقطة واحدة. إن

الموجة اللغوية المنتشرة في العالم بأسره إنما هي أيضاً دالة على دراسة استطلاعية جغرافية قديمة للكون كما تم تأكيد ذلك بواسطة الخرائط التي تم اكتشافها في عصر النهضة.

هناك عدد وافر من الجذور ذات الأهمية العظيمة التي تم اكتشافها بواسطة كوهان استناداً إلى أسماء جغرافية. بالنسبة للأشخاص الذين يعتبرون ذلك تأكيداً للقصة التوراتية نذكر وصف سفر التكوين ١١: ١ المتعلقة بالأحوال التي أعقبت الطوفان. وهذا الوصف شيِّقٌ ومثيرٌ فعلاً: «وكانت الأرض برمتها لغة واحدة، وخطاباً واحداً». وجاز أن يكون التشتت اللغوي الثاني الذي ذكره كوهان مماثلاً للاضطراب اللغوي الذي أعقب البلبلة التي حصلت في برج بابل، كما ذكر ذلك سفر التكوين١١: ٧.

- **سبب الدراسة الاستطلاعية الكونية – الخطوط السحرية للأرض:**

من البدهي أن تهتم ذرية نوح بالدراسة الاستطلاعية الجغرافية وباكتشاف سطح الأرض برمته تاركة آثارها ضمن أنماط من الخرائط والرموز وأسماء الأماكن وذلك مباشرة بعد الطوفان وقبل وبعد حدوث اختلال في نظام اللغة أي بين الجيل الثاني والسابع ما بعد عهد الطوفان (أي ٣١٠٠-٢٥٠٠ ق.م) !. بالطبع لقد تم إنجاز ذلك جميعاً بفضل المعرفة التي استقوها من عهد ما قبل الطوفان. إنما لماذا حصل ذلك؟. لماذا التزم الأقدمون مثل هذه المهمة البالغة الأهمية؟. لماذا قرروا القيام بهذا النموذج من المغامرة بينما كانت ذكرى الاجتياح الكوني ما تزال يانعة في ذاكرتهم؟.

توجد بعض التفسيرات البدهية. عندما ابتعد نوح وعائلته عن السفينة، وجدوا أنفسهم أمام عالم يتنافى تماماً مع أنفسهم !. لقد اختفت كل علامات الهداية المألوفة. لقد توارت عن الأنظار الغابات حيث بدأت ذرى الجبال الصخرية المستوعرة تجابههم من كل الجوانب وقد انبثقت من تحت المياه المعتكرة الدامسة الروائح الكريهة من البقايا المصابة بالتفسخ والتسويس. إن الأرض التي كانت معروفة قبلاً أصبحت الآن قفراء كليا ومجردة من أية حضارة سابقة. بدت لهم الأرض كما لو أنهم نزلوا من اليابسة على كوكب آخر.

لقد ولدت أجيال جديدة ونمت وترعرعت عند التلال في أسفل جبل أرارات، وقد دفعتهم الحشرية الفطرية المتعلقة بهذه اليابسة الجديدة إلى المغامرة والتوغل بعيداً في أرض

داخلية خلف الساحل، وذلك لاكتشاف الأودية الخصبة والسهول والغابات. ويشير السجل بأن هذه الأجيال الأولية كانت مدركة بأنها تمثل الآباء الأولين للأمم اللاحقة، لأن أسماءهم غالباً ما تشير إلى مهنهم ! أو إلى المساحات الجغرافية التي احتلوها!. لقد تحركوا بعناد نحو الأراضي الجديدة وقد اعتمدوا على المكباش الأرضي الأول في التاريخ والذي استعملوه لمراقبة هذه الأراضي الجديدة سراً (المكباش آلة لها مقابض تكبش الشيء وترفعه!). وكانوا متى اكتشفوا المساحة الملائمة يحولونها إلى دار للأمة ويستقرون هناك ثم يعلنون بأنهم اكتسبوا أرضاً جديدة محتفظين بها لأولادهم وأحفادهم. لقد جرفت بعيداً مصادر قيمة من الأرض ثم طرحت أرضاً ضمن ترسبات جديدة بواسطة مياه الطوفان الهائجة. لذلك كان الهدف الطبيعي لهذه الأجيال هو البحث عن هذه الكنوز الخبيئة. أما البروفسور هابغود فيقترح سبباً آخر.

يعتقد بأن رسم خريطة القارة استناداً إلى مثل هذا القياس الواسع، مثلاً أنتاركتيكا إنها يتطلب تنظيماً أكثر وبعثات استكشافية عديدة وعدة مراحل خاصة بتجميع المعلومات وتنظيمها، ولا يمكن أن يتم كل ذلك إلا بسبب قاهر. ويعتقد بأن الربح الاقتصادي هو السبب الأساسي، غير أن البعثات الاستكشافية توصلت إلى أمور تتجاوز الاكتشاف المحض وامتلاك وزراعة المساحات الجديدة. لقد قسموا الأرض حالياً إلى قطع من اليابسة وكانت تحد كل قطعة بها نسميه اليوم بالأسلاك المرجية حتى حدوث الصيف الحار في بداية ١٩٢٠ لم يكن يوجد أي دليل آخر إلا السجل التاريخي لكتاب سفر التكوين حول هذا الأمر.

ألفريد واتكينس، وهو تاجر وله هواية دراسة أزمنة ما قبل التاريخ، ممتطيًا فرسه، مجتازاً تلال بريدوردين Bredwardine قرب هيرفورد في إنكلترا عندما وصل إلى رابية صغيرة معشبة استراح هناك وأخذ يتأمل المنظر الطبيعي الهادئ. فجأة وقع بصره على شيء لم يلاحظه قبلاً على الإطلاق. لقد لاحظ وجود عدة صوامع للكنيسة وهي تلتزم صفاً مستقيماً عبر المنطقة الريفية. والمعلوم أن هذه الكنائس قد تم تشييدها على المواقع التي كانت تخص الأماكن المقدسة التي وجدت فيها قبل التاريخ. وتساءل فيها إذا كانت

هذه الأماكن مرتبطة قبلاً مع بعضها بعدد من الخطوط والأسلاك غير المرئية. وبينما كان يفكر ملياً في هذا التساؤل خطر بباله فجأة بأنه ليس الهياكل القديمة فقط ولكن الروابي الصغيرة أيضاً والأحجار المنصوبة القديمة والصلبان ومفترق الطرق والأشجار المقدسة وخنادق التحصين (وهي خنادق عميقة تملأ بالماء حول الحصن) والينابيع أو الآبار المقدسة جميعاً تلتزم خطوطاً واحدة.

عند رجوعه إلى البيت أخذ واتكينس يسجل بهمة جميع المناظر القديمة والآثار التي تعرف إليها من خلال دراساته فسجلها على الخريطة استناداً إلى القياس "١" إنش فوجد نفسه أمام ثمانية أو تسعة وحتى أكثر من ذلك من النقاط التي تنبسط جميعاً وبدقة استناداً إلى خطوط مستقيمة !.

عندها أراد أن يذهب أبعد من ذلك أخذ يقارن نقاطه هذه بأوضاع أخرى على خرائط أخرى سجلها سابقًا واكتشف أن الخطوط قد تمتد إلى أميال وأميال، وغالبًا ما تنتهي عند ذروة جبل أو عند جرف صخري. وبمساعدة صديق له أشرف واتكينس على دراسة مفصلة مختصة بإنكلترا وأسكوتلندا. وبكل مكان يجد فيه آثاراً مختصة متعلقة بشبكة ما قبل التاريخ من الاصطفاف المستقيم الذي انتشر يوما فوق الجزيرة برمتها.

أما الميجور تيلور من الجيش البريطاني فقد قرر بالتعاون مع مساح محترف ومعتمدٍ على إنجازات واتكينس إجراء دراسة أكثر تفصيلاً متعلقة بهذا الاصطفاف الغريب. لقد اكتشف تيلور علامات طريقية غير معروفة قبلاً أو على الأقل لم تكن مسجلة في الأزمنة الحديثة. ولقد نشرت اكتشافاته في كتاب صغير بعنوان «التنظيم الجيومتريكي للمواقع القديمة». لكنه أخطأ في اعتقاده أنه كان الأول في نشر هذه الفكرة، ذلك لأن العالم الألماني المختص بالجغرافيا الدكتور هينش قد نشر كتابه قبل سنة. وقد عرض وثيقة مرتبطة بالاكتشافات نفسها قبل انعقاد مجلس عالمي في أمستردام. وعندما قدم وثيقته بعنوان المبادئ الخاصة بالمراسم والطقوس الجغرافية في ما قبل التاريخ، صرّح للحاضرين المستمعين إليه بسكون وهجوع بأنه وجد في الماضي السحيق مبدأ سحري حيث تم تشييد المواقع المقدسة استناداً إليه. ثم قال مؤكداً بأن هذه المواقع قد وضعت استناداً إلى

خطوط تم تشييدها وفقاً لعلاقتها بأوضاع الشمس والقمر والكواكب. بالإضافة إلى ذلك صرح بأنه اكتشف البينة التي تؤكد على وجود الوحدات القياسية التي استخدمت في تشييد هذه الخطوط، تماماً مثل تلك الخطوط التي وجدت في الدراسات الاستطلاعية المصرية، الخاصة بعلم تقسيم الأرض (جيوديتيك) المرتكزة على كسور بسيطة خاصة بالأبعاد القياسية للأرض.

لقد وجد نماذج من هذه الخطوط ليس فقط في بريطانيا، ولكن في جميع بلاد أوروبا والشرق الأوسط. لقد تأثر كثيراً بهذا الانتشار الواسع وبهذه الدقة في تعمير هذه الخطوط، فاستنتج هينش بأنها تحمل شهادة على وجود الماضي المتعلق بحضارة شاملة وقد امتلكت معرفة متقدمة في التكنولوجيا والسحر.

لقد تم اكتشاف مثل هذه الخطوط خلف حدود بريطانيا، تقريباً في كل زاوية من الكرة الأرضية، وهي مرتبطة بشكل غريب فعلاً. واستناداً إلى ذلك قيلت الحكايات العديدة حول فيض الطاقة السحرية.

تملك إيرلندة الأساطير العديدة الخاصة بالمجاري أو بالسبل السحرية حيث تتحدث عن الجن والكائنات الروحية الأخرى التي تسافر في أزمنة معينة في كل سنة. إن هذه الطرق السحرية أصبحت اليوم طرقاً مطروقة وممرات مألوفة.

يتحدث إيفانس وندز Evans Wentz في كتابه «الإيمان السحري في البلاد السلتية» عن عراف إيرلندي عجوز وقد شرح له سرّ ذلك الفيض من التيارات الملغزة الغامضة الموجودة على طول الممرات والتي أصبحت طبيعتها الحقيقية منسية.

وهناك بحث مماثل أشرف عليه غزافييه غيشارد Xavier Guichard. لقد أيّد بقوة الاكتشافات التي حصل عليها الباحثون البريطانيون والألمان. قال غيشارد استناداً إلى عدة مدن قديمة في موطنه الأم فرنسا: لقد تم تأسيس هذه المدن في الأزمنة البعيدة جداً استناداً إلى خطوط فلكية لا تتغير، وقد تم تحديدها أولا في السماء ثم انتقلت إلى الأرض بمقتضى فواصل زمنية منتظمة، وكل واحدة تساوي ٣٦٠ جزء من الكوكب الأرضي. ويمكن العثور على هذه البنية الخاصة بهذه الخطوط الموجودة منذ التاريخ

الموغل في القدم، يمكن العثور عليها في الأدب القديم. مثلاً: لقد أشار الرومان الأولون عندما قاموا بغزو الشعب الأتروسكي إلى وجود أحجار منصوبة استناداً إلى أنماط طولانية، وقد انتشرت في المنطقة الريفية في توسكانيا. وبعد ذلك خلال الاحتلال اللاتيني لبلاد اليونان، تحدث الرومان مرة أخرى عن وجود أعمدة حجرية عثر عليها وقد تم تشييدها بخط طويل مستقيم على طول الطرق على بسطة متطورة يونانية من أرض كثيرة الروابي.

لم يكن الرومانيون مندهشين لمثل هذا الاكتشاف المتعلق بهذه الآثار المستقيمة ذلك لأنهم اكتشفوا مثلها قبلاً في كل بلد أخضعوه لسلطانهم: في أوروبا وإفريقيا الشمالية وكريت وكذلك في مناطق بعيدة مثل مدينة بابل القديمة ونينوى. الآن يتبين لنا أن شهرة الرومان كبنائين في مجال الطرقات العامة المستقيمة إنما كانت مرتبطة جزئياً باستخدامهم للخطوط المقدسة التي كانت موجودة قبل غزواتهم بزمن طويل والتي تحولت إلى دروب عسكرية وتجارية. حتى في يومنا الحاضر يستعمل الأعراب أو أهل البدو في إفريقيا الشمالية النظام الخطي الذي يتم تسجيله بواسطة أحجار منصوبة ورُكم من الحجارة أو التراب وذلك لمساعدتهم أثناء اجتيازهم المساحات الشاسعة في الصحراء. متى تم تشييد مثل هذه الصخور بهذا الشكل المنتصب؟.

عادة يهز الأعراب رأسهم عندما يطرح عليهم مثل هذا السؤال ذلك لأنهم لا يعرفون شيئاً حول نشأة هذه الطريقة رغم أنهم يحتاجون لهذه العلامات من أجل البقاء.

بينما أصبحت هذه الخطوط منسية في معظم البلدان، إلا أنها ما تزال تستخدم في أجزاء أخرى من العالم استناداً إلى النظام الخطي الذي يخص عهد ما قبل التاريخ. ومثل هذا النظام يوجد داخل أستراليا بين السكان الأصليين الذين يتحدثون عن العهد القديم الذي يسمونه زمن الحلم عندما كانت الآلهة المبدعة تجتاز البلد وتقوم بتشكيل اليابسة لإنجاز ممرات هامة وكانت تدعى تورينغا، ويقولون بأن ممرات التورينغا تجدد قوتها في أوقات معينة من السنة، بواسطة تسيب الطاقات المنتشرة بواسطتها فتعطي حياة جديدة للمنطقة المجاورة.

وفي سبيل تأمين هذا الإخصاب القديم وفي سبيل حفظه ووقايته حتى الآن، يتجمع السكان الأصليون في أماكن محددة خلال أوقات معينة من الزمن فيؤدون الرقصات الطقوسية التي دونت في العهد الغابر، وهذه الرقصات إنما هي صلاة وابتهال لقوة الخطوط. إنهم حالياً يتلقون الرسائل القادمة عبر مسافات شاسعة والتي تنذر وتحذر سلفاً من قدوم الغرباء ويحدث كل ذلك عبر نظام من الخطوط السحرية. وفي جهة أخرى من الكرة الأرضية، كما هو الحال في القرن السادس عشر، استخدم أهل الأنكا خطوطاً روحية مشابهة في هيكل الشمس في كوزكو، ولكن لا توجد أمة أكثر اهتماماً وتقييماً بوجود مثل هذه الخطوط مثل الشعب الصيني. وظل أهل الصين حتى القسم الأخير من القرن التاسع عشر يمارسون فناً يعرف باسم فونغ – شوي Vung – shui أو «الريح والماء» ومعناه: الشيء الذي لا يمكن رؤيته ولا يمكن القبض عليه. وكانت مهمة الأشخاص الذين يمارسون فونغ – شوي هو تحديد فيض لونغ – مييه Lung-mei أو تيارات التنين. وتنقل هذه التيارات تأثيرها في المناطق التي تجتازها. وكان كل بناء وحجر وشجرة مزروعة إنما هو محدد وموضوع ضمن منظر طبيعي صيني موافق مع تيارات التنين الملغزة التي تنساب فيضاً عبر الخطوط.

ويعتقد أهل الصين بأن الممرات الرئيسة للقوى قد تم تحديدها بواسطة طرق الشمس والقمر والكواكب الكبرى الخمسة عبر السماوات أما تيارات التنين فهي تتحكم بحياة الصيني إلى درجة كبيرة. وفي العهد الإقطاعي الصيني كان الامبراطور يعير اهتماماً خاصاً في اعتماد البلد على القوة الملغزة السحرية، وذلك عن طريق تسلق الرابية الصغيرة الاصطناعية التي تدعى كول هيل Col-hill قرب بكين وذلك عدة مرات في السنة لقياس الطاقات الكوكبية والأرضية ولجمع هذين النوعين من الطاقات وتذويبهما ثم صهرهما لفائدة اليابسة. ويعتقد بعض الباحثين بأن هذه الطريقة إنما هي محاولة للدمج بين السحر والواقع الحسي.

إن الأساطير القديمة المتعلقة بالتيارات القديمة والتي تأثرت بالتحركات الكوكبية والتي بدورها أثرت في الخصوبة ليست وهمية أو وسواساً دينياً. إنها مرتكزة على مبادئ

علمية واقعية جداً. إننا نبدأ الآن فقط بالتأكد التالي: إن سطح الأرض بكامله مغمور بطاقة الحقل المغناطيسي الأرضي وهذا الحقل خاضع لبعض التأثيرات الناتجة من الأعلى ومن الأسفل، تتغير قوة واتجاه التيارات الغناطيسية وفقاً لأوضاع الشمس والقمر والكواكب المجاورة تماماً كما يتم ذلك على طريقة الجزر والمدّ للأمواج استناداً إلى وضع القمر.

في الوقت نفسه هناك خاصيات متعلقة بالتيارات المغناطيسية تتأثر بالمساحة التي تنساب فوقها. إن منظراً طبيعياً مسطحاً أظهر لنا نشاطاً هادئاً وادعاً ومستقراً بينما أبدت يابسة صخرية أو متكسرة مسلكاً مضطرباً ومشوشاً. إن حالات الانسياب المغناطيسي مضطربة بصورة خاصة فوق الانحرافات الجيولوجية، وحيث تم فوق هذه الطبيعة الجيولوجية اكتشاف الخطوط المرجية التي تخص عهد ما قبل التاريخ.

بينما يهتم بعض الباحثين بدراسة تنوعات تيار سطح الأرض، هناك باحثون آخرون يحاولون اكتشاف نوعية التأثيرات التي تشكلها هذه التيارات نفسها على بعض العناصر الحية وغير الحية. وبعد أبحاث مرهقة، وقد تضمنت ٢٠٠ ألف تجربة خلال عشر سنوات استنتج جورجيو بيكاردي مدير مؤسسة الكيمياء الفيزيقية في فلورنسا بإيطاليا أن المياه تملك حساسية مرهفة حتى الدرجة القصوى بالنسبة للحقول المغناطيسية الكهربائية. وهكذا فإن الحقول قد تتغير وقد تتأثر بهذه الطريقة. وهكذا يحصل تبدل للطبيعة الكيميائية للمياه. واكتشف بيكاردي أيضاً النقطة التالية: مُذ كانت طاقة الحقل الأرضي خاضعة للتغيّر وذلك بحكم التغيرات في أوضاع الشمس والقمر، باتت ردات الفعل الكيماوية التي تستخدم المياه كقاعدة لها قابلة للتغير وللتبديل وفقاً لذلك. لقد تم التحقق من صحة هذا العمل الكيماوي الفلورنسي بواسطة ي. هـ. فيشر العضو في المركز الوطني الخاص بالبحث المناخي في بولدر في كولورادو، وأفاد بالنقطة التالية: ما دامت المياه هي سائل الحياة، هذا يعني بأن الترددات المغناطيسية الكهربائية قادرة على التأثير في النمو. أما الخبيران في البستنة دكتور أ. أ. بو والدكتور د. ك. سلونك وهما من جامعة ولاية أوتا Uteh فقد حصلا على نتائج في غاية من الأهمية، مثلاً عندما توضع البندورة الخضراء

داخل حقل مغناطيسي، تنضج بمقدار أربعة إلى ست مرات أكثر من البندورة التي تزرع في أحوال عادية. ويفيدنا الباحثان أيضاً بأن الحبوب التي تخص نباتات متنوعة إنما تنمو بشكل أسرع بكثير مما لو زرعت بالطريقة المألوفة وذلك عندما توضع ضمن تيار معين. لقد كشفت أبحاث حديثة بأن النبات الحي يتم تنشيطه فعلاً ولكن هناك نقطة أخرى يجدر التحدث عنها: إن هذه التيارات تؤثر أيضاً في التربة التي نمت فيها هذه النبتة. ويبدو الآن أن تحرك الأجسام الخاصة بالمجرات إنما يسبب بعض الترددات المغناطيسية التي تضاعف في خصوبة النباتات بشأن محتوى الكيمياء المعدنية الخاصة بالتربة، كذلك يحدث تغير في كيمياء المحتوى المعدني للتربة.

بالطبع إننا في بداية إدراك المبادئ الكامنة وراء التأثيرات المغناطيسية الأرضية والسماوية على سطح الأرض فقط، ولكن يبدو بأن الشعوب التي عاشت في تلك العصور الماضية لم تكن تدرك فقط هذه المبادئ ولكنها طبقتها لمصلحتها الخاصة. أولا لزم أن تكون هذه الشعوب المبكرة قد امتلكت المعرفة العلمية بحيث كانت قادرة على إدراك وجود التيارات وبهذه الطريقة استطاعت تطوير تكنولوجيا البحث والتنقيب عن هذه التيارات. ثانياً لزم أن تكون قد امتلكت النتاج النهائي لهذه الحملة الهائلة العظم في البحث والعمل التجريبي التي سادت قروناً وبواسطتها توصلت إلى التحكم بالتيارات إزاء النتيجة التي يمكن معرفتها مقدماً. نستطيع تخمين ذلك فقط من خلال ما تبقى من الثقافة المبكرة، ذلك لأننا لم نتوصل إلى بلوغ ذلك المستوى في مداركنا الخاصة.

يبدو بأن التيارات تبدأ عند طاقة طبيعية معينة وتنبثق في الأرض التي كانت مدونة لاحقا كمواقع دينية ومن هناك كان يتم توجيه التيارات نحو مراكز مخصوصة نحو الحصون أو الروابي الصغيرة حيث كان يتم تجميعها، ومن هناك كان يتم تفريقها نحو المنطقة الريفية. وكانت المراقبة الفلكية فائقة الأهمية، وذلك للسبب التالي: كان بالإمكان مقدماً قياس واحتساب حدوث زيادة ونقصان التيارات استناداً إلى المراقبات الدائمة للتحركات السماوية.

يبدو بأن أمر توجيه التيارات المغناطيسية قد تم تطبيقه بواسطة وضع الأحجار

المنصوبة على طول الخطوط المرجية. وقد نسبت خلال السجل التأريخي طاقات خاصة إلى عدد وفير من هذه الصخور المذكورة بواسطة الأحاديث االمروية المحلية. مثلاً يقال عن الحجر دولمن Dolmen وهو قبر من قبور ما قبل التاريخ وهو حجر عريض منصوب فوق نصائب قائمة من الصخر، أو عن مجموعة صخرية قرب فينستر في فرنسا، بأنها تشفي من الروماتيزم. وهناك بعض الأحجار المجاورة تشفي من الحمى والشلل.

لقد اكتشف معظم الباحثين بأن الطاقات الملغزة تنبثق فعلاً من عدد من الصخور. وقد أظهرت الصور الفوتوغرافية التي التقطت لها بأنها محاطة بسحابة رقيقة من النور عند أطرافها السفلية. استناداً إلى جيه أندرويد Gey Underweed وهو مؤلف «نمط الماضي» كانت تستخدم الأحجار المنصوبة للغرض نفسه الذي كان يستخدمه الصينيون المختصون بالغرز بالإبر الحادة «بواسطة الإبر». إن مهمة الإبر توجيه مرة أخرى فيض قوى الحياة في الجسم البشري وذلك لشفائه من العلة وإعادة الصحة. هكذا كانت الأحجار المنصوبة توضع بطريقة معينة لتوجيه الخط المغناطيسي الأرضي انطلاقاً من الممرات الطبيعية وصولاً إلى الممرات الاصطناعية. لقد استخدم أندرويد جهازاً خاصاً للريافة لأجل التنقيب فتبين له بأن التيارات المغناطيسية إنما تنطلق فعلاً في وطنه الأم بريطانيا استناداً إلى أخاديد متوازية تمشياً مع خطوط مستقيمة خاصة بأحجار منصوبة، ويتم ذلك بدقة تامة، بحيث تخلق تمييزاً واضحاً بين التعمير البشري والأنماط الطبيعية.

تفيدنا الأساطير القديمة بأن الغرض الرئيسي لأنظمة الخطوط المرجية، هو زيادة خصوبة التربة ونمو النبات، ولكن ظهر أيضاً بأنها كانت تستخدم لأغراض أخرى أيضاً. يقول شعب الدرويد (السلت) إن أجدادهم الأولين شيدوا الخطوط المرجية وكانوا قادرين على استخدام الطاقات الخطية لأجل الطيران. وكان الخط يكتسب حيوية ونشاطاً بواسطة شروق الشمس مباشرة، في اتجاه الممر، وكانت التيارات توجه بحيث تشحن الجسم بدرجة كبيرة من الحيوية، بحيث يصبح هذا الجسم قادراً على الارتفاع وقادراً على القيام بحركة على طول الممر استناداً إلى ارتفاع معين خاص بالشدة المغناطيسية.

تحدثنا الأحاديث المروية لشعب الدراويد عن الأبطال أمثال موغ رويث وبلادود

والساحر أبيريس الذين كانوا يملكون آلات طيارة بحيث يتم تحريكها بواسطة طاقات الخط الموجي. وكانت قادرة على أن تنقلهم إلى مسافات بعيدة فتصل مثلا إلى بلاد اليونان. وكانت هذه القصص المتعلقة بالطيران غالباً ما تنتهي بكارثة: عند حدوث كسوف تنتهي فجأة مصادر الطاقة على طول الخطوط، عندها يغوص البطل وآلته الطائرة نحو الأرض ويتم التدمير.

يكمن واقع علمي وراء هذه الحكايات، ذلك لأن كسوف الشمس أو خسوف القمر يسبب فعلاً سقوطاً فجائياً عند مستوى النشاط المغناطيسي للسطح الأرضي. إننا نجد بين عدة ثقافات قديمة متعلقة بالعالم فكرة وسواسية حول حالات الكسوف التنبؤية، ربما لم يكن السبب مرتبطاً بالخوف الوسواسي كما ساد الاعتقاد طويلاً في هذا المجال ولكن السبب الرئيسي مرتبط بالتغييرات التي تحدثها حالات الكسوف فوق حالات الانسياب المغناطيسي الأرضي.

استناداً إلى ما نعرفه اليوم بخصوص الخطوط المرجية، نستطيع القيام بملاحظات عديدة. وبمقتضى ما تم اكتشافه في الكرة الأرضية بأسرها من نماذج خاصة بأنظمة الخط المرجي في أوروبا وإفريقيا وآسيا وأستراليا وأمريكا، واستناداً إلى الأساطير والأحاديث المروية المشتركة، يتبين لنا بأنها كانت جميعاً مرتكزة على مبدأ مماثل على تحكم مغناطيسي وكانت تستخدم للأغراض نفسها. بالطبع لم يكن منشأ معتقدهم مرتبطاً بجماعة من شعب منعزل وقد انتشر ببطء نحو جماعات مجاورة أخرى، بالأحرى يبدو بأن هذا النظام قد انتشر وتزايد انتشاراً عبر العالم فجأة وقد تم تخطيطه بواسطة الثقافة التي شملت بدراستها الاستطلاعية الكوكب الأرضي ونفذت المرسّم التوضيحي الخاص بالمميزات الجغرافية التي تكشف عنها المراكز الأساسية الكبرى للنشاط المغناطيسي وبعدم النشاط المغناطيسي أيضاً. إن طبيعة عملية الخطوط تستوجب بالنسبة لهذا النظام العمل بكامل قوته الكامنة ولزم أيضا أن يؤخذ بعين الاعتبار جميع التيارات الخاصة بالمساحة الأرضية. هكذا كان نظام الخط المرجي نظاماً كونياً حقاً.

لقد كتب جون ميشيل في مقاله «رؤية حول الأطلانطس» حول الخطوط معلقاً: إنها

آلة علمية كبيرة تمتد منبطحة فوق سطح الكوكب الأرضي برمته. في مرحلة زمنية ما – ربما حوالي ٤٠٠٠ سنة مضت – كانت كل زاوية في العالم تقريباً قد تلقت زيارة من مجموعة من البشر الذين أتوا لتنفيذ مهمة محددة. وبمساعدة طاقة جبارة معينة استطاعوا قطع ورفع الكتل الصخرية الضخمة، وقد نصب هؤلاء الرجال أدوات فلكية واسعة ودوائر من الأعمدة المنصوبة والأهرامات والأنفاق تحت الأرض وتخطيطات اصطفافية هائلة العظم والتي تنتقل من أفق إلى أفق آخر وقد وضعت عليها العلامات بواسطة الأحجار والتلال الصغيرة وركام من التراب.

إن مثل هذا العمل يتطلب وجود سلطة وحيدة قادرة على توجيه المجهود الموحّد لسكان الكون بأسره. كذلك إن القطاعات المحلية الخاصة بالخطوط المرجية كانت تملك مركزا نوعياً وحتى كانت تملك عدة عقد حيث كانت تنتشر الطاقات. هكذا كانت توجد سلطة وحيدة صادرة عن مركز عالمي حيث تم تجميع طاقات نظام الخط الكوني الشامل. يبدو بأن هذا النظام قد تم تشغيله لمرحلة معينة من الزمن وبعد ذلك لم يحدث شيء ذو أهمية كافية لتسجيل انقطاع في أحوال العالم ولوضع حد نهائي للنظام الخطي الكوني قبل وقوع الحدث. لقد استوجب تعمير النظام توحيد العالم وحصل ذلك في نقطة مخصوصة في الزمن حيث كانت الوحدة منقطعة بشكل حاسم.

لقد فقدت السلطة التوجيهية الوحيدة طاقتها وتوقف المركز العالمي عن نشاطه. وأعقبت هذا الحدث أحوال جديدة، وأصبحت شعوب العالم مجزأة إلى أقسام وأصبحت عملية تجانس وتطابق الخطوط المرجية أمراً غير ممكن. ويصف ميشيل ذلك قائلاً: جل ما نستطيع افتراضه هو أن كارثة فادحة ذات منشأ طبيعي (وربما غير طبيعي) قد دمرت نظاماً بحيث كانت صيانته متوقفة على التحكم ببعض القوى الطبيعية عبر الأرض برمتها. إن جميع المحاولات الرامية إلى تشييد نظام جديد قد باءت بالفشل خلال حدوث هذه الزعزعة الكبرى التي عاكست هذا النظام وعارضته بحكم الانشقاق الديني وفساد الأحوال والانحطاط الخلقي وأخذت هذه الجماعات من البشر تغوص أكثر وأكثر في مجالات الجهل، وأصبحت تدريجياً تحت رحمة المثاليات المتنازعة، فنسيت هذه الجماعات

المنعزلة التي ظلت حية في جميع أنحاء العالم وحدتها الأولية، وخلال بذل الجهد لخلق نص محلي معين خاص بالنظام الكوني القديم أصيب التقليد المأثور بالفساد وفقدت هذه الجماعات رقيتها الروحية (أي الرقية لاستحضار الأرواح invocation) حتى الانحرافات المتعلقة بالأساطير والحكايات الخرافية الخاصة بقوى الماضي كانت جزئياً مموهة أو منسية وكانت الأنظمة المحلية التي ظلت حية، مهملة. اليوم أصبحنا نعايش ظلال وبقايا النظام الكوني الأول السابق.

بفضل اكتشافات علماء الآثار أصبح العديد من حكايات سفر التكوين التي كانت تعتبر خرافية، أي الحكايات المتعلقة بنشوء الأمم، حقيقية. إن قصة وحدة الكون السابقة التي تحطمت وتحولت إلى شيع بدأت تتخذ حالياً شكلها الواقعي الحسي.

إن قصة سفر التكوين الخاصة ببرج بابل تتحدث عن المجهودات اليائسة للأجيال الجديدة كي تبقى معاً (كيلا نكون مشتتين على سطح اليابسة برمتها)، وهذه القصة مرتكزة على روايات تاريخية قديمة. وهكذا بدأوا بتشييد مركز للعالم وبرج بحيث أوشك أن يبلغ السموات !.

ويبدو بأن الشعوب التي سكنت الأرض بعد الطوفان واستقرت حول الكرة الأرضية، أخذت تنمو بسرعة كافية بحيث استطاعت أن تشكل قواعد لثقافات ناشطة. وقد ساور شعوب العالم قلق بإمكانية حدوث انشقاق وتصدع لهذه الوحدة. وكانت مخاوفها مبررة ذلك لأنها كانت تحاول إعادة ترسيخ الحضارة الكونية الواحدة التي كانت تملكها سابقاً شعوب ما قبل الطوفان. لقد تم اختيار بابل عاصمة للعالم، وكان يرمز إلى تنظيم شعوب ما بعد الطوفان تحت سلطة مركزية تماماً بنفس الطريقة التي استعملها قايين في تنظيم أحوال ذريته استناداً إلى حكم واحد وعن طريق تعمير مدينة أخنوخ. كانت مدينة بابل تمثل الأمم المتحدة أو المركز السياسي لحكومة العالم. من ناحية أخرى كان يهدف برج بابل أن يكون البنية الكبيرة التي تبلغ السموات وربما كانت تمثل هذه الفكرة شيئاً ما أكثر أهمية. وكما كان مدوناً في عهود سابقة كان يوجد مركز عالمي حيث كانت طاقات مساحة الكرة الأرضية مجتمعة عن طريق جهاز الخط المرجي الكوني

الخاص، علماً بأن المكان الذي يتم فيه تجميع التيارات هو التلة أو البرج. جاز أن يكون برج بابل المحطة المستقبِلة لتيارات الخط المرجي الخاص بالأرض. وبحكم امتلاك مثل هذا المركز للطاقات الكونية تصبح السلطات الحاكمة في بابل قادرة فعلياً على التحكم بالعالم. أما بالنسبة لأي شخص يود الاستفادة من نظام الخط المرجي العالمي فإن عليه الخضوع لحكام بابل.

إننا نعلم من خلال جميع الحكايات المروية بأن هذه الخطوط كانت تستعمل لأجل أغراض طقوسية. هكذا كانت توجد طاقات روحية ومادية في هذا المجال. إن جهاز الخط المرجي فيما بعد الطوفان كان على الأرجح تعميراً جديداً للنظام الذي استعمل قبل الطوفان.

لقد طورت شعوب قبل الطوفان نمطاً تكنولوجياً متقدماً يتميز بالحنكة والمهارة بحيث يتطلب استخدام الطاقات الطقوسية والمادية معاً، ضمن قاعدة الطاقة. وكان نظام الخط المرجي بكل بساطة الامتداد الإضافي المتزايد لهذه التقنية الطقوسية.

***





الفصل الرابع

الطيران المتقدم والمبتدع في أزمنة ما قبل التاريخ

بعد تدمير مركز بابل العالمي بفترة غير بعيدة انبثق عدد من مراكز الحضارة الثانوية في أجزاء متنوعة من العالم. إن الكارثة الأولية التي أصابت الكرة الأرضية وأدخلتها في مرحلة من الفوضى والاضطراب قد دامت على ما يبدو طيلة قرن بكامله. وقد فقدت خلال ذلك أمم عديدة الاتصال ببعضها البعض، بينما هناك أمم أخرى ما تزال تتهافت عليها قبائل متنقلة راحلة وقد اقتلعت من جذورها في هذا الجو من الفوضى.

وظلت تقنية العديد من هذه الأمم على حالتها لم تفسد، وكانت قادرة كذلك على الاحتفاظ بمستواها العالي في الخبرة والمعرفة. تفيدنا خرائط عصر النهضة بأن خمسة أجيال على الأقل تخص مصوِّري الخرائط القدامى التي تنتمي إلى حضارة متقدمة جداً و قد نفذت مجموعة من الدراسات الاستطلاعية المتواصلة الخاصة بالكون قبل وعند نهاية العصر الجليدي. ولقد كانت الأحوال التي عايشتها هذه الأجيال خاضعة لتعديلات كبرى، إذ كانت تعيش تحت حكم كوني واحد في عهد ما قبل برج بابل.

وكان عالم ما بعد برج بابل يختلف كلياً من حيث الوضع. كان العالم منشقاً إلى شيع سياسية وكانت كل شيعة تهدف إلى بلوغ السيادة والاستقلال عن سواها. لقد تبخر التعاون الكوني السابق، وبدأت الكيانات القومية! والسياسية المتنوعة! بإجهاد نفسها للسيطرة على العالم. وخلال القسم الـل من قرن الفوضى والاضطراب بعد برج بابل، لم تسبب المنافسة اضطراباً في ميزان القوى ولكن عند نهاية المائة الأولى من السنين حدثت كوارث طبيعية وربما حدث هذا الأمر عند بداية العصر الجليدي!!. ويبدو بأن هذه

الكوارث قد أثرت كثيراً بالمهادنة التي كانت قائمة عصرذاك بين تلك الكيانات. إن العنف الذي أعقب ذلك قد أدى إلى تدمير متبادل. وإن التكنولوجيا المتقدمة التي كافحت كثيراً هذه الكيانات وبمرارة للاحتفاظ بعظمتها القومية قد فرّخت الترسانة الحربية التي بدورها دمرتها جميعاً.

كانت توجد ثمانية مراكز تخص الحضارة الرفيعة ما بعد عهد بابل حيث كانت بقايا تكنولوجيا ما قبل الطوفان مخزونة ومستخدمة. كانت هذه المراكز في الشرق الأوسط وفي أوروبا الشمالية وفي منطقة القطب الشمالي والهند وأصبحت الآن تعرف بصحراء غوبي وأنتاركتيكا (القطب الجنوبي) وأمريكا الغربية والشمالية الوسطى وأمريكا الجنوبية الغربية والكاريبي. عند المرحلة البدئية من الفوضى والاضطراب انفصلت هذه المراكز عن بعضها البعض الواحدة تلو الأخرى، ولكن أعيدت الاتصالات بعد فترة وجيزة إلى حالتها السابقة، وظهرت إحدى طرائق الاتصال عن طريق الجو، وما زلنا نعتبر اختراع الأخوة رايت ومضة إبداعية عفوية خليقة بالقرن العشرين. ولا بد من القول بأن هذا الاعتبار يبدو غريباً فعلاً في عصرنا الحالي.

هناك عدة حكايات أسطورية تُدوِّن ذكريات الشعوب المتعاقبة التي عاشت في مرحلة كان مفهوم فن الطيران فيها معروفاً جداً. وكان الطيران يحدث وقتذاك بصورة مألوفة، ولم يكن حدوثه أمراً غريباً.

إن أقدم تسجيلات محفوظة بالنسبة للطيران هي التسجيلات الموجودة في المجموعة البابلية للقوانين التي تعرف باسم حلقاتا Halkatha (لعلها التحليق) التي تحتوي على المقطع التالي: «إن تشغيل الآلة الطيارة هو خطوة كبيرة. إن معرفة الطيران قديمة جداً وهي هبة من الآلهة منذ القديم لإنقاذ الحياة وتوفيرها».

إن ملحمة إيتانا البابلية التي تصف الطيران فيما قبل التاريخ محفوظة حتى الآن بشكل نص متقطع وبشكل حروف مسمارية، ويعود تاريخها إلى المرحلة القائمة بين ٣٠٠٠-٢٤٠٠ ق.م. تتحدث الملحمة عن إيتانا، عن راع فقير قد عثر على نسر وقد أصيب بجناحيه. عالج النسر وشفاه، وبالمقابل وعده النسر بأخذه في رحلة عاليا نحو

السموات. عند ذلك، امتطى إيتانا ظهر الطير وارتفعا سوياً وحلقا في السماء، وأخذا يتأملان من العلياء من وقت لآخر الأرض الموجودة عند الأسفل.

في المرحلة الأولى صرخ النسر: أنظر يا صديقي كيف تبدو اليابسة ! أنظر أيضاً إلى البحر. إليك، لقد أصبحت اليابسة مثل تلة والبحر مثل مجرى ماء ! لقد قام النسر بهذه الملاحظة بعد ارتفاع دام أكثر من ساعتين. هذا يعني حسب التعبير الحديث بعد بلوغ ارتفاع يتراوح بين ستة وثمانية أميال. بعد ارتفاع إيتانا فوق بلاد العراق استطاع أن يرى جبال أرمينيا شمالاً وعند الجهة الجنوبية الشرقية رأى بحر الخليج العربي الذي كان يبدو أشبه بمجرى ماء أو أشبه بمجرى نهر يتجه متسعاً نحو الأفق.

استنادا إلى الكتابات المدونة ازداد ارتفاع الاثنين نحو السماء. عند ذلك طلب النسر مرة أخرى من إيتانا توجيه نظره نحو مظهر الأرض. قال له: من هنا تبدو الأرض أشبه بمزرعة واسعة، وتبدو اليابسة أشبه بكوخ محاطة بباحة من البحر.

لقد بلغ إيتانا ارتفاعاً كافياً بحيث استطاع أن يرى مياه المحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر المتوسط والبحر الأسود شاملاً الشرق الأوسط.

وظلا ينظران من الأعلى نحو الأرض حتى بدت لهما اليابسة أشبه بحجر الرحى وبدا لهما البحر أشبه بقناة حديقة أو أشبه بحفرة طويلة في الأرض للري. لم تعد الجبال مميزة. ومن هذا الارتفاع الشاهق بدا سطح الأرض مستوياً منتظماً ومنحنياً أشبه بحجر المسنّ.

وعند محيط الدائرة شاهد إيتانا مياه المحيطات وهي تحيط بآسيا وأوروبا وإفريقيا. وعند ارتفاع أعلى لاحظ النسر بأن الأرض أصبحت أشبه بحديقة وأن البحر أشبه بسلة مصنوعة من قضبان الصفصاف.

الآن بدت الأشكال المتنوعة المميزة للمحيطات واضحة وبارزة للعيان، كذلك بدت الصحراء البرتقالية اللون والمساحات الحرجية ذات اللون الأخضر الداكن والأودية الرمادية والجبال الصفراء البنية، وكانت تبدو جميعاً أشبه ببقع ملونة لحديقة. الآن بات إيتانا قادراً على رؤية محيطات العالم فبدت له هذه المرة أشبه بخندق دائري بل أشبه

بأحواض منفصلة أو أشبه بسلال متنوعة مملوءة بالمياه.

أخيراً وصلا إلى ارتفاع بحيث أصبحا غير قادرين على التمييز بين اليابسة والبحر. لقد بلغا ارتفاعاً كانت فيه الغيوم وأبخرة مياه الجو قد غطت معظم معالم الأرض بسحابها الرقيق الأبيض المائل إلى الزرقة. عند هذه النقطة انتهت الرحلة وعاد إيتانا إلى الأرض.

إن العنصر الأسطوري الوحيد الذي تحتويه الملحمة هو النسر، الذي يمثل نمطاً معيناً من الطائرة الذي تحول مع الزمن إلى طير بواسطة جهل الشعب لعلم الميكانيك الخاص بالطيران. أياً كانت أداة الرفع التي استعملها إيتانا، فإن ملحمة إيتانا تزودنا بالتأكيد بوصف دقيق جداً حول سطح الأرض من ارتفاعات متنوعة، ولا يمكن التحقق من صحة هذه الأوصاف في مساحتنا الخاصة إلا عند تحقيق الطيران الجوي ذي الارتفاع العالي في عام ١٩٥٠، وعند انطلاق الصاروخ الأول عام ١٩٦٠.

السؤال: من جاء بهذه الملاحظة وسجلها في بلاد الشرق القديمة قبل عام ٢٤٠٠ ق.م؟!.

هناك عمل آخر كلداني يعرف باسم سفر علا يرجع تاريخه إلى أكثر من ٥٠٠٠ سنة. ورغم كونه متقطع إلى نصوص فإنه يبلغ تقريباً مائة صفحة من الترجمة الانكليزية. إن عالم الآثار المختص بالجنس البشري إيبان أهارون Iban A,haraon الذي عمل في حل الرموز، تبين له وقد أصابته الدهشة يومذاك بأن السفر علا هي رواية مفصلة تتحدث عن كيفية صنع وتشغيل الطائرة. يتحدث النص عن أجزاء متنوعة أمثال الأشكال الكروية الاهتزازية والقضبان الغرافيتية واللفافات النحاسية، بينما يعلق الكاتب على موضوع الطيران فيتحدث عن مقاومة الريح ثم الانسياب والمتانة. للأسف هناك عدة خطوط رئيسية منسوبةٌ إلى النص قد افتقدت، بهذا أصبحت محاولة صنع الطائرة مرة ثانية أمراً مستحيلاً.

كذلك الأخبار التأريخية الصينية القديمة تنطوي على عدة مراجع خاصة بفن الطيران. إن الامبراطور شون shun الذي حكم بين عامي ٢٢٥٠- ٢٢٠٨ ق.م يفيدنا بأنه صنع آلة طيارة. ولم يكتف بذلك بل جرّب مظلة الهبوط (باراشوت)، وحدث ذلك

منذ أكثر من ٣٦ قرناً قبل ليوناردو دافنشي.

وهناك امبراطور صيني آخر يدعى شنغ – تانغ، وقد أمر عام ١٧٦٦ق.م صناع البلاط ويدعى كي كونغ شي، كي يصنع جهازاً طياراً. لقد شيّد هذا الصانع الفني آلة وطار بها حتى إقليم حونام وذلك لاختبار الطيران. غير أن الامبراطور قضى على حرفة الطيران لإبقاء السر بعيداً عن متناول الآخرين (كي لا يقع هذا السر بين أيدي الأعداء).

يبدو أن سر الطيران قد ظل حياً حتى القرن الثالث قبل الميلاد، ذلك لأن الشاعر الصيني شو – يون قد كتب بقلمه تجاربه عندما طار بطائرة وهي بلون حجر اليشم (من الأحجار النفيسة) فوق صحراء غوبي متجهاً نحو جبال كون – لون عند الجهة الجنوبية الغربية.

لقد أشرف على دراسة استطلاعية جوية للمنطقة ووصف بدقة كيفية ارتفاع الطيارة وانسيابها في الجو مندفعة بواسطة تيارات الهواء دون أن تؤثر فيها الريح وغبار الأرض القفراء الموجودة عند الجهة السفلية.

وفي أواخر القرن الرابع بعد الميلاد تحدث كاتب صيني آخر كو – هونغ عن السيارة الطائرة المصنوعة من الخشب، والتي تملك فراشات دورانية وتدفع بالسيارة إلى الأعلى نحو السماء. وفي نفس القرن، ظهرت آلة طيارة في سيلان حيث كان يستخدمها الناسك البوذي غونارفرمان Gunarvarman في طيرانه نحو جزيرة جاوا Java إلى مسافة ٢٠٠٠ ميلاً.

كذلك ظهرت مراجع للطيران في «بيوتها سفامين بريهات كاتا شلوكا سمفراها» في نيبال. وهو نص مكتوب في القرن الثاني عشر ويتعلق بحديث مروي حول عصر مجهول.

لقد نُشر هذا النص أولاً في أوروبا، وقد ترجمه الكاتب الفرنسي فيليكس لاكوت عام ١٩٠٨م. يروي بريهات كاتا قصة رومانفيت خادم الملك الذي رغب في السفر حول الأرض بواسطة أداة طيّارة.

وفي سبيل تلبية رغبة سيده أمر رومانفيت مصمّمي البلاط كي يصنعوا الجهاز الطيار

المطلوب، لكنهم أعلموه بأنهم غير قادرين على فعل ذلك. قالوا له بأنهم يعرفون كيفية تشغيل عدة آلات لكن سرَّ الآلات الطيارة لا يعرفها سوى شعب يافانا Yavanas.

إن يافانا / ياواناهو اسم سنسكريتي ومختص بالشعوب ذات البشرة التي تملك اللون الفاتح والتي تنسب إلى شرقي البحر المتوسط. وبتعبير أدق إن ياوانا مشتق من ياوان، وهو اسم أحد أحفاد نوح، وقد سكنت ذريته أرض اليونان وجزر البحر المتوسط في القرون الأولى التي أعقبت الطوفان.

وتنتهي قصة رومانفيت بظهور ياوانا في بلاط سيده قادماً من الغرب، وقد لبى رغبته واستطاع أن يرى العالم من الفضاء ولكن دون أن يفصح له عن علم الحركات والقوى الآلية. ويبدو هنا بأن الحضارة الرفيعة المستوى كانت تحرص على عدم نشر التكنولوجيا المتقدمة والمبتدعة بين شعوب ما بعد برج بابل التي فقدت المعرفة وفضلت بالحرى الاحتفاظ بتلك التقنية كي تستخدمها بنفسها وكي تحتفظ بالقوة والسيادة.

- **الطيران القديم في المحيط الهادي:**

لقد عثر على مجموعة من الأساطير المماثلة في المجموعة التي تخص شعب نيبال عثر عليها لدى الشعب البولينيزي.

يتحدث السكان الأصليون في جزيرة جنوبي المحيط الهادي في بوناب عن رجال مثقفين لهم بشرة فاتحة اللون مثل بشرتهم وقد قدموا من الغرب قبل وصول المكتشفين الأوروبيين بمدة طويلة. لقد جاء هؤلاء الرجال أصحاب البشرة الفاتحة في مراكب برّاقة وكانت تطير فوق البحر. كانت إقامتهم قصيرة جداً، لكن السكان الأصليين ما زالوا يتحدثون عن الأعمال السحرية التي قام بها الغربيون القدامى.

كذلك السكان الأصليون في منغريفا، وهي أكبر جزيرة في جزر غامبييه، يملكون أيضاً حديثاً مروياً أو قصة مروية حول الطيران التي يعود تاريخها إلى الماضي السحيق. إنهم يروون قصة البَلم الطائر (أو القارب الخفيف الصغير الذي يدفع بالمجذاف) المزود بجناحين كبيرين ومثبتين بقوة عند الجهة الجانبية، وقد ظهر أمام أعينهم، وكان الكهنة

يقودونه، وكانوا قادرين على الطيران لمسافات بعيدة.. حتى جزر هاواي التي تبعد تقريباً ٢٥٠٠ ميلاً. بينما روبرت لي إسكريتش المختص بالفولكلور البولينيزي عثر على أحد السكان الأصليين في جزيرة تارافي فقدم له وصفاً مفصلاً وعرض عليه نمطا لفنان حالي، خاصاً بالقارب القديم الطيار. استناداً إلى إسكريتش فإن هذا النمط يمثل شكلاً معيناً من الجهاز الطيار، ويذكره الجناحان بشكل خاص بالقرص الشمسي المجنح للإله حورس الذي تظهر صورته باستمرار في الفن المصري.

- **طير سقارة** The Saqqara Bird:

في عام ١٨٩٨ م، اكتشف نموذج صغير لطائرة في ضريح قرب سقارة في مصر، ويرجع تاريخه إلى عام ٢٠٠ ق.م تقريباً. وفي الزمن الذي تم اكتشافه كانت ولادة الطيران الحديث ما تزال بعيدة لعدة سنوات. وهكذا عندما أرسل هذا الغرض الغريب إلى متحف القاهرة الخاص بالعصور القديمة تم تصنيفه في السجل الخاص تحت رقم ٦٣٤٧، ر – م ٢٢. وهكذا وضع هذا النموذج بين عدة مصنوعات يدوية في زاوية مهملة، وقد غمره غبار النسيان، واعتبر غير معروف على حقيقته.

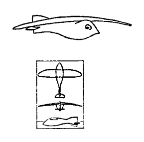
في عام ١٩٦٩م بينما كان الدكتور خليل مسيحة وهو مختص بالآثار المصرية يشرف على تنظيف الطبقة السفلى من المتحف وقع بصره على صندوق وقد كتب عليه أغراض / طائر. ثم اكتشف النموذج.

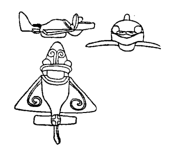
كانت محتويات الصندوق الأخرى طيوراً بشكل دميّ للزينة، ولكن كانت هناك مصنوعة يدوية موجودة في مكان لا يلائمها بحيث كانت تملك خاصيات لا توجد لدى الطيور بل تنسب لطائرة حديثة.

وقد أدرك الدكتور مسيحة بأن هذه المعالم تخص الطائرة.

واستطاع أن يقنع الدكتور محمد جمال الدين مختار سكرتير وزارة الثقافة المصرية بتشكيل لجنة لدراسة النموذج. ولقد تم تشكيل لجنة البحث في ٢٣ ديسمبر ١٩٧١، وكانت مكونة من عدد من المؤرخين والخبراء في الطيران. لقد تأثروا كثيراً بالاكتشافات

الأولية واقترحوا عرض النموذج في وسط القاعة المركزية التابعة لمتحف القاهرة، وذلك للزينة.





يبدو جناحا النموذج مستقيمين، وقد تم تشكيلها استناداً إلى علم حركة الهواء والغاز وتأثير هذه الحركة في الأشياء، بالإضافة إلى شبحة الجناح التي يبلغ قياسها ٧,٢ إنش، أما مقدمة الطائرة المحددة أو المسنمة فيبلغ قياسها ١,٣ إنش طولاً بينما يبلغ جذع الآلة ٥,٦ إنش طولاً. وقد بدا مستدقاً ومنتهياً بجنيح عمودي للمؤخرة. هناك قطعة

منشقة منفصلة على الذيل أو على المؤخرة وهي تشبه المركد الخلفي للطائرة العصرية (والمركد هو جهاز في الطائرة يجعلها قارّة في طيرانها)، وقد صنعت هذه الآلة الصغيرة من خشب شجرة الجميز الخفيف (سيكامور) ويبلغ وزنها ١,١١ أوقية إنكليزية (الأوقية هذه تساوي ٣١,١ غرام).

عند محاولة تفحص وتحليل هذا النموذج، وجد المهندسون المختصون بعلم حركة الهواء والغاز وتأثير هذه الحركة، كذلك الطيارون، عدداً وافياً من الخاصيات الهامة وجميعها تشير إلى معرفة مبادئ تصميم الطائرة التي استوجبت على المصممين في أوروبا وأميركا قرناً من الأعمال الاختبارية الجوية في مجال الاكتشاف والتكامل. بالإضافة إلى هذا الشكل الخاص بعلم حركة الهواء المتعلق بهيكل الطائرة وبجناحها، يشير التصميم إلى وجود تحدب خفيف وهو بروز انحناء الجناح وتبين بأن الجناح نفسه حاصل من مستويين ملتقيين (أي متقاطعين بشكل عكسي) بحيث تزود الآلة بقوة رافعة هائلة العظم. ويبدو أن هدف هذه الآلة القديمة كان يميل إلى تخصيص هذا الجهاز لحمل كميات كبيرة من البضائع بدلا من بلوغ السرعات العالية إذ اعتبر المصممون بأنها قادرة على نقل البضائع الثقيلة ولكن بسرعة بطيئة جداً، مثلاً بسرعة أقل من ستين ميلاً في الساعة.

بالفعل لقد سجل خبير بأنه يوجد تماثل ملحوظ بين مقدمة الطائرة والجناح المحدد للطائرة المصرية وبين الجناح المائل الجديد للطائرة التي صممتها مؤسسة ناسا، فهذه الآلة قد تم تصميمها أيضاً خصيصاً لنقل البضائع الثقيلة وللتقيد بالطيران ذي السرعة البطيئة. غير أننا لا نعرف ما هو مصدر طاقة هذه الطائرة القديمة.

إن الجزء الأسفل من ذيل الطائرة مسنن (أو مشرّخ). بالطبع لقد حدث تصدع ما في هذا المجال، إذ يبدو بأنه كان يحمل شكلاً معيناً من المحركات. لقد صرح المهندسون بأن هذا النمط على حالته تلك إنما يمثل الطائرة الشراعية بصورة كاملة بالفعل لا يتطلب الأمر سوى منجنيق صغير لقذف مثل هذا النموذج الصغير في الفضاء.

حتى يومنا هذا، أي بعد مضي ٢٠٠٠ سنة، ما تزال الطائرة الصغيرة تحلق على ارتفاع عظيم في الهواء ولمسافة بعيدة، وذلك استناداً إلى دفعة بسيطة باليد !.

اكتشف الخبراء خاصية أخرى متعلقة بعلم حركة الهواء والغاز وتأثيرها..، عندما حاولوا تنفيذ مخطط الطائرة (بخطوط بيضاء على خلفية زرقاء) تبين لهم بأنها تتميز بقياسات نسبية متكاملة ودقيقة للغاية ومستندة إلى المعدلات القياسية ٢: ١ أو ٣: ١. من الواضح بأن النموذج القديم لم يكن عملاً عرضياً، أو لم يكن مخصصاً كي يكون لعبة. لقد كانت بالأحرى النتاج النهائي لعدد ضخم من الدراسات الإحصائية والتجارب. لقد صرح الدكتور مسيحة بأن المصريين القدامى كانوا يبنون دائماً نماذج قياسية لكل شيء يصنعونه فكانت قبورهم مملوءة بالهياكل الصغيرة المفصلة كذلك المسلة الحجرية والمنازل وعربات الخيول والسفن إلخ.

والآن وقد تم اكتشاف نموذج الطائرة، طرح الدكتور مسيحة هذا السؤال على نفسه: هل يوجد فعلاً في مكان ما تحت رمال صحراء النيل بقايا لطائرات شراعية بالحجم الطبيعي؟.

ومنذ وقت غير بعيد تم اكتشاف نماذج من الطائرات العديدة الأخرى وكانت مدفونة في قبور أخرى، وقد تم التحقق من هويتها. وقد بلغ عددها الإجمالي ١٤ طائرة شراعية مصرية. قال العالم المختص بالبيولوجيا وعلم الحيوان إيفان سندرسن رئيس جمعية التنقيب عن الأشياء الغير مفسّرة: البيّنة الحسيّة التي تؤكد بأن القدامى يعرفون الطيران، إنما وصلت إلينا منذ سنوات قليلة. فقط علينا الآن تفسير هذا الأمر وعندما نفعل ذلك سيتوجب علينا إعادة ترتيب المفاهيم العديدة التي نلتزمها إزاء التاريخ القديم.

- **طائرة ذهبية من العالم الجديد:**

في عام ١٩٥٤ أرسلت حكومة كولومبيا جزءاً من مجموعتها الخاصة بالمصنوعات الذهبية القديمة إلى ستة متاحف في الولايات المتحدة بشكل دوري. خلال العرض في الولايات المتحدة طلب من إيمانويل ستوبس، وهو من أشهر صانعي الجواهر في أمريكا، صنع قالب لست قطع ذهبية. وبعد ١٥ سنة، عُرض أحد القوالب على إيفان سندرسون للفحص والتحليل. بعد فحص هذه المصنوعة اليدوية، وبعد استشارة عدد من الخبراء في

علم حركة الهواء والغاز، وصل سندرسون إلى نتيجة مذهلة فعلاً. برأيه إن هذا الغرض الذهبي هو نموذج لطائرة نفاثة، ويعود تاريخها إلى ألف سنة على أقل تعديل.

يبلغ طول النموذج إنشين تقريباً. وكان يُعلق حول العنق بسلسلة، وبشكل حلية أو ذخيرة. لقد تم اكتشافه في شمال كولومبيا، وتم تصنيفه ضمن مجموعة سينو التي تنسب إلى ثقافة عهد ما قبل الأنكا أي بين عام ٥٠٠ – ٨٠٠ م.

وفي سبيل توضيح هوية هذا الغرض وضعت الدولة الكولومبية علامة عليه: زومورفيكا Zoomorfika. هذا يعني بأنه غرض يمثل شكلاً حيوانيًّا، واستنادا إلى رؤية علم الحيوان استنتج العالم البيولوجي سندرسون والدكتور أرتور بويسلس من المؤسسة الفضائية في نيويورك، بأن هذا الغرض لا يمثل أي نموذج معروف من الحيوانات المجنحة، أي ليس بطائر ولا وطواط ولا سمكة طيارة أو سمكة الترس أو سمكة الورنك. بالفعل تملك هذه المصنوعة اليدوية الكولومبية الصغيرة خاصيات ميكانيكية وليست بيولوجية.

ومن بين هذه الخاصيات الهامة نذكر الجناحين الأماميين، وكل جناح مثلث الشكل وذو حروف مستقيمة تماماً. إنه أشبه بالحيوان. قال مصمّم الطائرات أرثور يونغ ما يلي: إذا كان الغرض الذهبي يمثل حيواناً طياراً هذا يعني بأن الجناحين الأماميين قد وضعا في مكان غير مناسب، فهذان الجناحان بعيدان جداً عن هيكل الطائرة. هذا يعني بأنهما بعيدان عن مركز الجاذبية بالنسبة لجسم الحيوان. في الواقع لقد ثبت الجناحان في الموضع الصحيح من الناحية العلمية، أي المختصة بحركة الهواء والغاز وتأثير الحركة.. هذا يعني بأنهما وضعا بشكل مؤخرة الطائرة النفاثة. وأشار مؤخراً إلى ذلك الخبير في علم الطيران جاك أولريخ قائلاً: إن شكل المثلث للجناحين الأماميين، وأن الهيكل المستدق المتوافق مع علم حركة الهواء والغاز، يدفعان بنا إلى اعتبار الطائرة المبتكرة هذه بأنها طائرة نفاثة وكانت تتمتع بقدرة الطيران بسرعات تفوق سرعة الصوت.

بعد فحص الصور الفوتوغرافية المأخوذة من مكان قريب، التي تخص النموذج الذهبي. وقد التقطت هذه الصور من زاوية أمامية، أعلن مهندس الطيران أدولف هِور

بأن هذا التصميم مبتكر فعلاً من حيث الاحتفاظ بالقوة الكامنة للطائرة. علماً بأن معظم الطائرات الحديثة تملك أجنحة تتجه زواياها قليلا نحو الأعلى أما الطائرات ذات السرعة القوية جداً، هي تملك الأجنحة التي تميل جانباً أي نحو الأسفل. يمكن مشاهدة مثل هذه الخاصية لدى طائرة الكونكورد التي تفوق سرعتها سرعة الصوت. كذلك يمكن مشاهدتها لدى هذا النموذج الذهبي الكولومبي. أما جنيّح المؤخرة فهو يبدو وكأنه يخص حيواناً لكنه يبدو مخصصاً لمثل هذه الطائرة القديمة. إنه يلتزم الشكل المثلث القائم ومساحته مستوية ويتجه بشكل عامودي نحو الهيكل بينما يلتزم الجناحان شكلاً مثلثاً. لا يوجد أي طير ولا أية حشرة بمثل هذا الذيل أو الجنيح. فقط الأسماك تملك زعانف، ولكن لا توجد أية سمكة تملك جنيحاً دون أن يوجد جنيح آخر لإحداث التوازن.

إن الشكل المثلث للنموذج الذهبي إنما يمثل التصميم النموذجي للطائرة الحديثة. هناك خاصية مثيرة أخرى تتعلق بجنيح المؤخرة وهو الشعار الذي يظهر عند الجهة اليسارية من دفة الطائرة، تماماً حيث تظهر الشعارات في عدة طائرات عصرية في وقتنا الحاضر. هذا يعني بأن الشعار في غير مكانه المألوف تماماً كما هو حال الغرض الذهبي نفسه ذلك لأنه تم تصنيفه كحرف آرامي أو عبري استناداً إلى الحرف beth أو b (الباء)، جاز أن يكون منشأ الطائرة ليس من كولومبيا بل من مكان ما من الشرق الأوسط.

على أي حال، ليست الطائرة الذهبية النموذج الوحيد الذي تم اكتشافه في العالم الجديد. يوجد هناك ستة نماذج أخرى مماثلة كل نموذج قد تم تصميمه بشكل إيروديناميكي من حيث الهيكل والجناحين والدفة ذات الشكل المثلث القائم.. جميعاً معروضة الآن في متحف فيلد للتاريخ الطبيعي في شيكاغو. وهناك نموذجان آخران معروضان في متحف سميث سونيان للتاريخ الطبيعي في واشنطن ومتحف الفن البدائي في نيويورك، بالإضافة إلى النماذج الموجودة في بوغوتا وكولومبيا، ويبلغ عددها ١٤ نموذجاً. وهذه النماذج يتجاوز عمرها الألف سنة، لكنها غير صادرة من منطقة واحدة، فهي وليدة مناطق شاسعة وبعيدة المدى. وهناك طائرات أخرى تشبهها وقد تم اكتشافها في كوستاريكا وفنزويلا وبيرو. وافترضنا بأن سكان الشرق الأوسط كانوا يطيرون

بواسطتها ويجتازون المحيط الأطلسي. وهذا يعني أنهم أقاموا علاقات عديدة مع السكان شبه البدائيين في الأمريكيتين الوسطى والجنوبية.

إذا ألقينا نظرة شاملة على جميع هذه النماذج يتبين لنا بأنها متنوعات لتصميم طائرة واحدة، ويرجع هذا التصميم إلى انطباع فنان بخصوص شيء رآه بنفسه أو استند إلى تأويل أسطوري أو إلى وصف خرافي لطائرة يرجع تاريخها إلى الماضي السحيق. إن الطراز المبكر للنموذج الكولومبي (bith) يؤيد بقوة هذا الاستنتاج، ويجعلنا نعتبر تاريخ الطائرة الأصلية وتاريخ الطيران إلى الأمريكيتين إنما يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد.

- **طائرة ويمانا الهندوسية Vimana:**

إن أهم الأوصاف التي تخص طائرة ما قبل التاريخ إنما تنسب إلى بلاد الهند نجد بين الكتب المقدسة الهندوسية في سامارانغا سوترادارا مجموعة من النصوص التي تم تنظيمها في القرن الحادي عشر والذي يرجع تاريخها إلى عصر قديم مجهول. تحوي مجموعة سامارانغا على ٢٣٠ بيتا من الشعر. وهذه الأبيات تصف بصورة مفصلة كل مظهر ممكن للطيران، انطلاقاً من الجهاز وطاقته إلى ألبسة الطيار ومواد الغذاء. وحديثاً أشرفت الأكاديمية العالمية للبحث السنسكريتي في ميسور في الهند على دراسة خاصة بالعمل القديم. وقد تم نشر اكتشافاتها في كتاب بعنوان «علم وفن الطيران، مخطوطة من زمن ما قبل التاريخ». ويشير النص إلى المعرفة الخاصة بتصميم الطائرة وبوظيفتها وإنجازها الذي يتجاوز قوانين المصادفة ولا يفسح المجال لاعتبار هذا العمل وليد التخيل.

وهذه بعض المقاطع المقتطفة والمترجمة من النص: «إن الطائرة التي تمضي بقوتها الذاتية مثل الطير، على الأرض أو المياه أو عبر الفضاء، تدعى ويمانا Vimana. إن الشيء الذي يستطيع أن يسافر في السماء من مكان إلى آخر يدعى ويمانا بلسان الشيوخ العقلاء.

«يجب أن يكون الهيكل قوياً ومتيناً ومبنياً من الخشب الخفيف (لاغو – دارو) ويجب أن يكون شكله مثل العصفور، وهو يطير بجناحين منبسطين (ماها فينهانفا). ويجب وضع الزئبق داخل المحرك بحيث يكون جهاز الحرارة مصنوعاً من الحديد من الجهة السفلية».

«وبالنسبة للآلة الأكبر حجماً (دارو – ويهانا) أي التي يكون وزنها أثقل من الأولى (ألاغو) يجب صنع أربعة أوعية متينة وفي داخلها الزئبق، ويجب وضعها في الداخل. وعندما تتلقى هذه الأوعية الحرارة بواسطة النار الخاضعة للمراقبة من قبل الأوعية الحديدية عندها تملك ويهانا قوة الزوبعة بواسطة الزئبق.

«ويجب أن تكون مفاصل المحرك الحديدي ملحومة بشكل جيد. ويجب أن يكون مملوءاً بالزئبق. وعندما توجه النار نحو الجزء الأعلى تتولد الطاقة ويصطحبها زئير أشبه بزئير الأسد، وعن طريق الطاقة الكامنة في الزئبق يبدا محرك الريح الدوامة بالتحرك. والمسافر الجالس داخل ويهانا يصبح قادراً على اجتياز الفضاء، ويمكنه أن يصل إلى مسافة بعيدة بحيث يبدو أشبه بلؤلؤة في السماء».

ومما يثير الدهشة هو فقدان النص القديم المتعلق بالوصف المميز الخاص بكيفية صنع طائرة الويهانا. ويرجع سبب فقدان هذا التفصيل إلى قول العقلاء القدامى: «كل شخص لا ينتمي رسمياً إلى فن تشييد آلات الطيران سوف يسبب الأذى». بكلمات أخرى إن المعرفة المتعقدة الخاصة بالطائرة وبفن الطيران في عصر ما بعد الطوفان إنما كانت تخضع لمراقبة دقيقة بواسطة الأقلية المختارة.

ومما يثير الدهشة أيضاً بخصوص طائرات ويهانا الهندوسية كما تم وصفها في سامارانغا هو هذا الموضوع المتعلق بقوة الدفع الذي يعتمد على الطاقة الكامنة في الزئبق.

ومما يثير الدهشة أيضاً أن عنصر الزئبق يتبوّأ المكانة نفسها في علوم الأقدمين ولدى علماء الكيمياء أو كيمياء السحر في العصور الوسطى في أوروبا.

أعلن العالم الفيزيائي النووي البريطاني إدوارد نيفل داكوستا أندرد في خطابه في جامعة كامبردج في شهر تموز عام ١٩٤٦ بأن المكتشف الشهير لقوانين الجاذبية السير إسحق نيوتن كان على علم نسبي بموضوع سريّة الزئبق، وأضاف قائلاً مستشهداً بقول لورد أتابري الذي كان معاصراً لنيوتن: « يعلمنا التواضع أن نتحدث عن القدماء باحترام بالأخص عندما لا نشعر بالألفة الكافية بالنسبة لأعمالهم. إن نيوتن الذي عرفهم عملياً ظهراً عن قلب، كان يكن لهم احتراماً عظيماً وكان يعتبرهم رجالاً يتمتعون بالعبقرية

وبالذكاء المتفوق، وبفضل هذه العبقرية وهذا الذكاء توصلوا إلى تحقيق اكتشافات في كل حقل أبعد بكثير مما وصلنا إليه اليوم، وذلك استناداً إلى الأحكام التي نكونها من خلال آثار كتاباتهم. إن معظم الكتابات القديمة قد ضاعت وهي أكثر من الكتابات التي احتفظ بها وربما كانت اكتشافاتنا الحديثة أقل قيمة من الاكتشافات التي فقدناها».

وتابع أندرد قائلا مستشهداً بنيوتن: «نظراً للطريقة التي يتم بها تشرب الزئبق جاز الاعتقاد بأن هذه المادة يمكن إخفاؤها بواسطة مادة أخرى. وقد عرفوا هذه الطريقة قبلاً. بهذا جاز أن تكون هذه المعرفة مدخلاً لشيء أكثر نبلاً ولا يصح الإفشاء بسرّها دون التعرض لخطر عظيم بالنسبة للكون».

أما فيما يتعلق بهذا الخطر العظيم الذي يهدد العالم بخصوص مادة الزئبق.. فهذا أمر نجهله فعلاً. من الواضح بأن القدامى كانوا يدركون طريقة التطبيق العملي للزئبق. حديثاً، عثر المكتشفون السوفييت أثناء التنقيب في كهف قرب طشقند في منطقة أوزبك على عدد من القدور الفخارية المخروطية وكان كل قدر مختوماً بشكل محكم ويحتوي في داخله على نقطة واحدة من الزئبق.

إن وصف هذه القدور الملغزة قد نشر مع صورها في المجلة السوفييتية الدورية «التكنولوجي العصري». لا توجد أية دالّة توضيحية فيما يتعلق بأوعية الزئبق حيث كانت مخصصة للاستعمال ولكن يبدو بأنها وضعت بعناية فائقة كأنها كنز ومخصصة لاستعمال محدد، بحيث يتجاوز هذا الاستعمال حدود معرفتنا الحالية وكذلك معلوماتنا التكنولوجية. لقد كان سراً قد تم اكتشافه قديماً واستخدم واحتفظ به بواسطة الأقلية المختارة، ولكن يبدو بأننا فقدنا هذه المعرفة مرة أخرى وربما للأبد.

***





الفصل الخامس

الحرب النووية بين الشعوب البدائية

كان العالم مسرحاً لاضطراب كبير بعد انهيار الوحدة عند مركز العالم. تفيدنا الخرائط التي نفذها رسامو الخرائط في عصر النهضة بما يلي: سجلت بعثات خاصة بالدراسة الاستطلاعية وقد جابت الكرة الأرضية لتسجل التغيرات ذات الطالع المنحوس في القطب الشمالي والجنوبي من المناطق التي يكسوها الجليد فوق قممها العالية. وتشير كل مخطوطة من هذه المخطوطات التاريخية المقدسة إلى أن «أيوب» كان يعيش خلال هذه الحقبة، وتذكر قصته الأحوال المناخية أي أحوال التجمد وتشكل الجليد القادم من الشمال من المستويات السفلية للمحيطات ومن التبخر والتدفق المتطرف، كذلك من ذوبان الثلج. لقد اختبر هذه الظاهرات الاستثنائية بينما يعيش في عوص وهي مدينة تقع في شمالي بلاد العرب.

إن المناخ حالياً في هذه المنطقة الشاسعة قاحل وحار جداً، غير أنه أشار إلى فيضان الأنهار وهطول الأمطار الغزيرة وحتى تساقط الثلوج. أليس هذا أمراً غريباً حقاً؟. كلا لا يعتبر غريباً بالنسبة للاختصاصيين في علم المناخ. على أي حال بالنسبة لهم يرجع السبب إلى التفسير التالي: كانت هذه الأحوال المناخية تعتبر طبيعية في الشرق الأوسط خلال العصر الجليدي !.

إن حلول التغيرات المناخية والتجمد، وجب أن يولد حتماً تأثيراً مأساوياً على نمط المعيشة المتقدمة وعلى نمو وتطور مراكز الحضارة، وجاز أن يكون التدمير ناتجاً عن سبب آلي على الأقل بالنسبة للمراكز الثلاث. وكانت منطقة القطب الجنوبي أحد المراكز التي دمرها اجتياح جدران الجليد. ربما لن نتوصل إلى معرفة كل التفاصيل الخاصة بالمأساة

التي قضت على الحضارة وعلى الحياة البشرية في قارة أنتاركتيك (وهي منطقة القطب الجنوبي، متجمدة تماماً في الوقت الحاضر). إن التاريخ يلتزم الصمت بشكل مخيف بخصوص المناطق الأكثر برودة في الكرة الأرضية، مع أنه توجد عدة دلالات، من خلال مصادر أولية، بحيث تؤكد بأن منطقة القطب الجنوبي كانت فعلاً مأهولة بالسكان في حقبة من الزمن موغلة في القدم.

اكتشف فرانسيس مانزييريه الباحث الذي أشرف على بحث واسع جداً بخصوص الأساطير والحياة الفولكلورية المتعلقة بالسكان الأصليين في جزيرة الباسيفيك الأوسط، بأن الشعب البولينيزي كان يملك معرفة متطورة جداً بخصوص الملاحة (حركة السفن وعلم الجغرافيا). لقد كانوا على علم بالأماكن البعيدة أمثال نيوزيلندة وهاواي والجزيرة الشرقية وحتى الساحل الجنوبي الغربي لأميركا الجنوبية بالإضافة إلى المياه التي لا يؤمن أذاها الخاصة بممر «دريك **Drake**» التي تتجاوز حدودها الطرف الجنوبي من كاب هورن. وكان الشعب البولينيزي أيضاً معتاداً جداً على العيش في قارة الأنتاركتيك. واستناداً إلى أحاديثهم المروية كانت اليابسة في مرحلة من الزمن غير مكسوة بالجليد وكانت عدة أمم من الشعوب تعيش هناك. ويتحدث السكان الأصليون في أستراليا عن أنتاركتيكا قائلين: «إنها أرض الآلهة. وفي زمن مجهول غمرتها «المياه الباردة» وبلورات المها». إنه وصف جيد للجليد والثلج بلسان السكان الأصليين الذين لم يشاهدوا قط مثل هذه المواد في موطنهم الأم أي الصحراء.

لقد عثر مازييريه على رجل بولينيزي عجوز وينتمي إلى الجزيرة الشرقية فيري فيري فأخبره قائلاً: بأن وسط اليابسة الأرض الجنوبية كان سابقاً جرناً صخرياً كبيراً من اللون الأحمر. بالفعل تم اكتشاف علامة طريق بواسطة بعثة أمريكية والتي استطاعت أن تصل إلى قلب منطقة الأنتاركتيك. غير أن الجرف الصخري الأحمر يقع داخل هذه اليابسة على مسافات تبلغ عدة مئات من الأميال. هذا يعني بأنه لا يمكن مشاهدة ذلك من جهة الساحل. ويبدو الأمر مستحيلا بالنسبة للمواطن البولينيزي لاجتياز منطقة الإنتاركتيك في حالتها المتجمدة الحاضرة لرؤية الجرف الصخري الأحمر، ويبقى بعد ذلك حياً

ليتحدث عنه. وإذا استطاع أحد الأجداد الأولين من الشعب البولينيزي مشاهدة هذا الحدر التحصيني كما أشارت إليه الأسطورة، هذا يعني بأنه فعل ذلك لزاماً عندما كانت الأحوال المناخية في أنتاركتيكا مختلفة جذرياً.

هناك منطقة أخرى قد اكتسحها الجليد خلال العصر الجليدي، وهي المنطقة الأرتكتيكية (أي منطقة القطب الشمالي، بين القطب الشمالي ودائرة القطب الشمالي)، بالأخص في جزيرة غرينلند. تشير خريطة عصر النهضة إلى غرينلند المجردة من الجليد، وتعرف باسم خريطة الأخوين زينو عام ١٣٨٠ م.

لقد كانت هذه الخريطة وليدة سفر قام به الأخوان زينو من مدينة البندقية في أوائل القرن الرابع عشر. لقد دفعتهما رحلتهما الاستكشافية هذه افتراضاً إلى آيسلندا، وغرينلاند، وربما إلى مناطق أكثر بعداً مثل نوفاسكوتيا. لقد رسما خريطة المحيط الأطلسي الشمالي، وهذه الخريطة كانت مفقودة لمدة قرنين إلى أن تم اكتشافها بواسطة أحد أحفاد عائلة زينو.

تشير دراسة الرسم التوضيحي إلى أن الأخوين زينو لم يرسما هذه الخريطة الأصلية بيديهما، ذلك لأنهما وصلا إلى اليابسة في أيسلندا وغرينلاند بينما يشير المرسم التوضيحي بدقة إلى خط الطول وخط العرض ليس بالنسبة لمثل هذه المواقع بل بالنسبة للسويد والنرويج والدانمرك وساحل البلطيق الألماني واسكوتلندا وكذلك الأراضي المجاورة للبحر مثل شتلاند وجزر فارو. وتعتمد الخريطة أيضاً على المسقط القطبي، وهذا يعني بأنها كانت تتجاوز حدود مهارة علماء الجغرافيا في القرن الرابع عشر. كذلك يتبين لنا بأن مصوري الخريطة الأصلية كانوا على علم بالدرجات الطولانية الصحيحة لخط الطول بالنسبة للمحيط الأطلسي الشمالي بكامله. هكذا من المعقول بأن الخريطة قد تم تنفيذها بواسطة الأخوين زينو قبل سفرهما ثم استخدمت كدليل في أعمالهم الاستكشافية في الأراضي الشمالية، كذلك يمكن التأكد من هذا الرأي عندما يتبين لنا أن خريطة زينو تشير فعلاً إلى غرينلند وهي مجردة تماماً من الجليد. هذا يعني بأن مراجع الخريطة الأصلية كانت قديمة فعلاً. لقد تم وصف الجبال في الداخل وتم رسم الأنهار وهي تصب في البحر

حيث توجد حالياً عدة أنهار جليدية. لقد قام الكابتن ماللبري بدراسة حول خريطة بيري ريّس (الفصل الثالث) وأدت به هذه الدراسة إلى الاهتمام بخرائط أخرى تخص عهد النهضة ومن بينها خريطة الأخوين زينو. لقد لاحظ استناداً إلى هذه الخريطة وجود سهل واسع يمتد على طول منطقة غرينلند الداخلية ويتقاطع عند الوسط بواسطة الجبال. وهذا ما اكتشفه أيضاً بول إيميل فيكتور وهو عالم فرنسي كان مع البعثة القطبية ١٩٤٧-١٩٤٩ حيث أشار إلى هذه الحالة المسحية نفسها من خلال ظهور الأطراف الزلزالية.

فيما يتعلق بمنطقة الأنتكارتيك كونها مجردة من الجليد فيما مضى وغير مأهولة إننا نجد أساطير مماثلة متعلقة بشعب متحضر كان يعيش قديماً في الأراضي الشمالية، وهذه الأراضي أصبحت مدفونة الآن على عمق يبلغ الآلاف من الأقدام من الجليد. تتحدث الأساطير عن الثول Thule والنومينور Numinor والهيبربوريين، وهم سكان منطقة الأراكتيك في العصور الماضية. ويقول إيغرتون سايكس في كتابه «قاموس الميثولوجيا غير الكلاسيكية» ما فحواه أعتقد بأن أسطورة نورس Norse في فمبلفيت Fimbelvetr: الشتاء الراعب، التي تعلن عن الكوارث الملحمية للراغناروك وتدمير آلهة فالهالا إنما تعكس الواقع التاريخي التالي: المحو من الوجود لحضارة ما قبل التاريخ في المناطق الشمالية عن طريق كارثة العصر الجليدي.

بالطبع لقد أصيبت بقايا هذا الشعب الشمالي المتمدن بالتفسخ والانقراض تحت وطأة الملايين من الأطنان من الجليد المتحرك، ولكن يمكن الاعتقاد بأن بعضهم من هذا الشعب ظل حياً بأعجوبة لوجود أطلال كثيرة تجسد ثقافة رفيعة المستوى تخص عهد ما قبل التاريخ. ويبدو أن هذه الثقافة كانت موجودة فعلاً في المنطقة القطبية الشمالية (أراكتيك). وفي إيبيوتاك Ipiutak عند «بوينت هوب» في شمال ألاسكا توجد أطلال مكونة من ٨٠٠ بنية، ومنبسطة جميعاً استناداً إلى تخطيط دقيق بشكل كتل صخرية كبيرة وممرات مختلفة. هذا يعني بأن هذه المستوطنة كانت كافية لاحتواء عدة آلاف من البشر.

للأسف توجد هناك مصنوعات يدوية قليلة، أي المصنوعات التي تحدثنا عن مستعمرة إيبوتاك. جل ما نعرفه الآن أن هذه المستعمرة القديمة لم تكن مقتصرة على

وجود جماعة مختصة بالصيد. إننا نملك الدلائل التي تشير إلى وجود شعب كان يملك المعرفة في الرياضيات وفي علم الفلك تماماً كما شاهدنا ذلك لدى شعب المايا القديم. لقد أصيب علماء الآثار بالدهشة بإمكانية وجود مثل هذه المستعمرة بهذا الحجم المذكور، ذلك لأنها تقع على طبقة جامدة عند الجهة الشمالية البعيدة من الدائرة القطبية الشمالية حيث توجد حالياً جماعات صغيرة من سكان الأسكيمو الذين يعيشون كصيادين ويكتفون بالدخل الضئيل. هذا يعني بأن سكان مستوطنة إيبوتاك لم يتقنوا أعمالهم ولم يتوصلوا إلى المستوى الرفيع إلا إذا كان مناخ ألاسكا مختلفاً تماماً بالنسبة للمناخ الحالي. ويعتقد بأن الزمن الوحيد الذي ساد فيه المناخ الدافئ في هذه المنطقة إنما هو زمن بداية العصر الجليدي وما قبله.

من الممكن جداً أن تكون هذه الشعوب التي تنتمي إلى مركز الحضارة القطبية الشمالية الرفيعة قد استقرت هناك في مستعمرة ايبوتاك هروباً من الهجمة العنيفة للتجمد القطبي. وتشير قبور مستعمرة ايبوتاك إلى وجود سكان كانوا يتميزون بالصفات التالية: قامة طويلة، بشرة شقراء، يشبهون شعب كرومانيون في أوروبا.

ومنذ زمن غير بعيد اكتشف علماء الآثار الروس بقايا عدد من مستعمرات ما قبل التاريخ والتي تشبه كثيراً مستوطنات إيبوتاك. وتقع هذه المستوطنات في وسط شمال شرقي سيبيريا. هنا أيضاً يبدو المناخ عدائياً جداً بالنسبة لجميع أنماط الحياة. وعثر علماء الآثار في هذا المكان على بينة بخصوص سكان العصر الباليوليتيكي والنيوليتيكي وحتى العصر البرونزي.

وقد تبين لهم أن جميع هذه الشعوب عاشت في هذه المنطقة بصورة متعاقبة. في ياقوتيا، تم اكتشاف رسومات صخرية تخص العهد الأول من العصر الحجري (باليوليتيك)، وهي تشبه كثيراً الصور الزيتية الكهفية الموجودة في فرنسا وإسبانيا علماً بأن ثقافات ما قبل التاريخ والأرض يختلفان كل الاختلاف بين ياقوتيا وأوروبا الغربية، ولذلك لا يعقل أن يوجد أي تطور فني بينهما. لا توجد إلا رابطة واحدة بين سيبيريا وحضارة كريمانيون الأوروبية، وذلك عبر الشمال في اتجاه الموطن المشترك، كذلك المنشأ في المنطقة القطبية الشمالية.

إن المؤرخ ول ديورانت في كتابه «قصة الحضارة» قدّم التصريح التالي: «إن مجلدات ضخمة كتبت لعرض معرفتنا ولتخفي جهلنا فيما يتعلق بالإنسان البدائي.. لم تكن الثقافات البدائية بالضرورة تخص أجدادنا الأولين، ذلك لأننا نعلم بأنها ربما كانت البقايا المتدنية لثقافات أكثر تطوراً وقد اندثرت عندما انتهى أمر الزعامة البشرية في أعقاب حلول الجليد».

وهناك حضارة متطورة أيضاً، وهي الحضارة الثالثة التي ترجع إلى عهد ما بعد برج بابل، وقد دمر مركزها بسبب العصر الجليدي. وقد تم تحديد مركزها في الكاريبي. وفي عام ١٩٦٨م عثر على اكتشافات مدهشة قرب شواطئ المياه التي تحيط بمنطقة الكاريبي بالأخص في باهاما بانكس.

وتوجد على عمق يتراوح بين ٦ و ١٠٠قدماً، تعميرات صخرية عملاقة بعدد وافر، جدران مربعات كبيرة، صلبان وأنماط هندسية أخرى وحتى ممرات مقنطرة واهرامات. وقد تداخلت فيها أصداف متحجرة وجذور من التين الهندي. ومثل هذا التحجر يشير إلى عهدها القديم. وبين المكتشفات الأولى يوجد امتداد لجدار مكون من كتل صخرية يتراوح قياسها بين ١٨ و٢٠ و ١٠ أقدام، وتزن كل كتلة ٢٥ طناً. ويبدو بأن الجدار يحيط الجزر من شمالي وجنوبي بيميني Bimini ليكون أخيرًا مساقاً للماء (أي جداراً من التراب لحبس الماء ومنعه من الفيضان) وعلى طول الجدار البحري تم اكتشاف أعمدة محززة بحزوز طويلة وما تزال مثبتة في أماكنها الأصلية بينما اكتشفت أعمدة أخرى منطرحة أرضاً ضمن كومة مخلطة في قعر البحر وقد غمرتها الرمال. ولما ظهرت الأعمدة وهي مثبتة أصلاً على مسافات فاصلة مستقرة على طول الجدار الغارق تحت الماء، ويبدو أنها وضعت بهذا الشكل كي تكون رواقاً معمداً ومتواصلاً. ويشير الجدار والأعمدة إلى مستوى المهارة الهندسية الرفيع في ميدان البناء.

وليس بعيداً عن الجدار البحري في بيميني، اكتشف الغواصون صخرة ممر مقنطر على عمق ١٢ قدماً بينما يتراوح قياس القاعدة بين ١٤٠-١٨٠ قدماً، بالإضافة إلى صخرة دائرية عملاقة ومكونة من كتل صخرية تبلغ ١٢ قدماً، ويبدو بأنها كانت تستخدم كخزان



ماء عندما كانت فوق مستوى البحر.

كذلك تم اكتشاف تكوينات معمارية تحت الماء مشابهة لها في جزيرة اندروس قرب بانيكي. وفي عام ١٩٦٩ م التقط الطيارون من الفضاء صورا فوتوغرافية لشكل مستطيل يبلغ قياسه ٦٠× ١٠٠ قدماً وكانت رؤيته واضحة عبر المياه الهادئة. وكان الجانب الشرقي منفصلاً عن الزوايا الغربية. ومما أثار الدهشة بالنسبة لهذا الشكل المستطيل المغمور في المياه كونه نسخة طبق الأصل من حيث الحجم والتصميم لهيكل تارتل Turtle وهو معبد شعب المايا المقدس الذي اكتشف في أوكسمال في يوكاتان.

ويشير هذا الاكتشاف إلى النقطة التالية: لقد اثر الناجون الأحياء الذين كانوا ينتمون إلى مركز الحضارة الكاريبية على تطور ثقافات أمريكا الوسطى المبكرة وعلى ثقافة شعب ماوند بيلدرز Mound Builders.

وهناك أطلال أخرى غارقة في منطقة الكاريبي وتحتوي على جدار بحري ارتفاعه ثلاثون قدما ويلتزم خطاً مستقيماً لعدة أميال بعيداً عن فنزويلا قرب مصب نهر أورينوكو، أما نمطه الهندسي فهو أكروبولي. وترتبط هذه الأطلال بشوارع تغطي مسافات تعادل خمسة أفدنة على عمق ستة أقدام في المياه بعيداً عن الساحل الكوبي. وهناك بقايا لعمارات مغمورة في المياه بعيداً عن هسبنيولا، ويبلغ قياسها ٢٤٠ × ٨٠ قدماً بالإضافة إلى عدة دروب مرتفعة بمقياس ٣٠ ×١٠٠ قدماً وهي مطمورة تحت سطح الأرض التي تبتعد عن شواطئ كينتانارو ومكسيكو وبيليز والهندوراس البريطانية ثم تتابع وجهتها نحو البحر لعدة أميال متجهة نحو نقطة مجهولة. وهناك أيضاً جدار بحري يمتد على طول جرف مغمور بالمياه قرب «كاي لوبوس» بالإضافة إلى مربعات صخرية عملاقة ومستطيلة الشكل وصلبان. ويبدو بوضوح أنها من تصميم بشري، وتتجه جميعاً انحداراً نحو أورنتيج كي.

لقد سببت أطلال الكاريبي ارتباكاً شديداً بالنسبة لعلماء الآثار وللمؤرخين التقليديين ذلك لأن الهندسة المعمارية هذه إنما تتجاوز حدود إمكانيات الشعب الأمريندي أو الغزاة الأسبان. ومما يزيد الأمر ارتباكاً هو الافتراض التالي: جاز أن تكون

الجدران الملغزة هذه والأهرامات والهياكل قد تم تشييدها خلال العصر الجليدي.

ومن الظاهر بأن الحضارة الكاريبية قد تطورت عندما كانت مستويات المحيط في حدها الأدنى، وقد غمرتها المياه عندما اكتسحت مياه البحر الهائجة باهاما، بسبب ذوبان الأنهار الجليدية الشمالية. ومن المرجح أن حدوث الفيضان كان تدريجياً بالنسبة لعدة جدران هائلة العظم والمغمورة بالماء. ويبدو أن الجدران الترابية قد شيدت لحبس الماء ومنعه من الفيضان ولحماية بعض المساحات من هياج البحر. لكن هذه الجدران لم تكن كافية فاجتاحت مياه المحيط اليابسة، وهكذا اختفت الحضارة الكاريبية.

بينما انهارت ثلاثة مراكز لحضارة رفيعة المستوى وتخص عهد ما بعد برج بابل بسبب كارثة طبيعية، هناك أطلال ما تزال شاهدة على وجود خمسة مراكز دمرتها اليد البشرية. وقد بلغ التدمير درجة من الرعب بحيث لا نستطيع تخيله. ويمكن أن يشبه من حيث فظاعته نهاية الحرب العالمية الثانية.

ونجد الحديث عن مثل هذا الدمار العظيم الشامل في معظم الأعمال الهندوسية المقدسة «ماها بهاراتا». وهي قصيدة ملحمية مكونة من ٢٠٠ ألف سطراً، ويرجع تاريخها إلى ٥٠٠ ق.م، غير أن الأحداث الموصوفة في هذا الشعر الملحمي تشير إلى تاريخ حدوث الدمار ما بين ١٠٠٠- ٢٠٠٠ سنةقبل ذلك. وتصف القصيدة الملوك الآلهة الكبار الذين يمتطون ويمانا أو السيارات السماوية ويصفها الشاعر بالطريقة التالية: «عربات فضائية مزودة بجوانب مصفحة وبأجنحة».

عادة كانت تستعمل آلات وَيمانا للانتقال خلال الأوقات التي يسودها السلام، وكانت تستخدم أيضاً أثناء المعارك. وتصف ماهابهاراتا الأيام الثمانية عشر من الحرب التي اندلعت بين كورافا وبندافا. وكان هذان الشعبان يسكنان المناطق العليا في الغانج. ولم يمض وقت طويل على هذه الحرب حتى نشبت معركة ثانية ضد فريشني والداكا، وحدث ذلك في نفس المنطقة، وفي المعركتين كان شعب وَيمانا يطلق سلاحاً ذا قوة تدميرية هائلة. وتروي القصيدة الملحمية الهندوسية ما يلي: «بقي أدْواتان الشجاع راسخاً ثابتاً داخل آلته وَيمانا مجتازاً المياه، واستطاع أن يفلت من سلاح أغنيا. عندما وجه معلم

الابن ومؤدبه ضد أعدائه صاروخاً وهّاجاً من نار بلا دخان، ومصحوباً بقوة هائلة العِظم، وانهالت على المخلوقات بأسرها أسهم مشتعلة بكثافة كأنها رشاش فاحش الكبر، مستهدفاً العدو. برقت السماء وانهمرت منها بقوة نحو الأرض شهبٌ نجمية مصحوبة ببريق هائل وغمر جيش بندافا العرمرم ظلام دامس بسرعة خاطفة. هكذا اختفت جميع نقاط المحيط بين طيات الظلام. عندها هبّت عواصف هائجة، وبدأت الغيوم تزأر في أعلى السموات، وانتشر الغبار والحصى كرشات من المطر». «أخذت الطيور تنعق وتحشرج بصوتها وقد أصابها الجنون، وارتعدت الوحوش وانتفضت من جراء هذا التدمير. وبدت جميع العناصر مضطربة، وقد أصابتها الفوضى في الصميم. بدت الشمس كأنها تتأرجح في أعالي السموات. أخذت الأرض تهتز وقد لفحتها وكوتها حرارة عنيفة مريعة ناتجة عن هذا السلاح الرهيب. تحولت الفيلة إلى شعلة نيرانية وأخذت تركض يمنة ويسرة في هياج جنوني طالبة الحماية من هذا الرعب الشامل. وعلى امتداد مساحات شاسعة انهارت حيوانات أخرى وتكورت على الأرض ثم ماتت. أخذت المياه تغلي أما الكائنات التي كانت تعيش قربها فقد فارقت الحياة أيضاً. من جميع جهات المحيط انهمرت شعلة هائلة باستمرار وبوحشية. لقد انفجر مقذوف «أدواتان» بقوة الزوبعة، فانهار المحاربون الأعداء وتقوّضوا مثل الأشجار المحترقة بنار غاضبة هائجة. آلاف من الناقلات الحربية سقطت أرضاً في جميع الجهات».

إن وصف المعركة الثانية مخيفٌ أيضاً ومروّع مثل المعركة الأولى: «انطلق غوركا في الجو بآلته الطيّارة» وَبِهانا «القوية والسريعة ثم انقض على المدن الثلاثة التي تخص شعبي فريشني والداكا، وأطلق قذيفته الوحيدة المشحونة بطاقة تعادل طاقة الكون بأسره. عندها ارتفع عالياً عامود متوهج من الدخان والنار، وكان أشد توهجاً من عشرة آلاف شمس.

لقد انتصب عالياً بمهابته التي لا تضاهيها مهابة فكان هذا السلاح مجهولاً، وهو عبارة عن صاعقة حديدية مصحوبة بوميض شديد من البرق أشبه برسول عملاق للموت الذي حوَّل الجنس البشري بكامله إلى رماد (أي الجنس البشري الذي ينتمي إلى

فريشني وأنداكا). لقد احترقت الجثث بدرجة قوية بحيث أصبح التعرف عليها أمراً مستحيلاً. لقد تساقط الشعر والأظافر وتحطمت الأواني الخزفية بدون سبب. وأصيبت الطيور بالاضطراب والهلع وأخذت تدور في الجو تائهة ثم ماتت. وأصيبت المواد الغذائية بالتسمم. وفي سبيل النجاة أخذ المحاربون يرمون بأنفسهم في السواقي ليغتسلوا بالماء هم ومعداتهم. وبعد حدوث التدمير الشامل أخذ الملك كورو علماً (وهو ملك شعب يوديستيرا) بقدرة هذا السلاح الذي يعرف بالصاعقة الحديدية وبمجزرة فريشني».

تنسب هذه التعبيرات الوصفية فيما يبدو إلى خيال مفرط النشاط لحكيم هندوسي مجهول منذ زمن طويل. ولكن وجود هذه التفاصيل العديدة تجعلنا نعتقد بأنها منسوبة إلى تقرير شاهد عيان عن انفجار قنبلة ذرية، دون أن يتضمن أي خطأ. مثلاً: توهج الانفجار، ارتفاع عامود الدخان والنار، الغبار الذري، الحرارة الفائقة القوة، الأمواج الزلزالية العنيفة، مظهر الضحايا، وتأثيرات التسمم الإشعاعي.

يعتقد الباحثون الهندوسيون بأن الانفجارات الذرية القديمة قد حدثت إما عام ٣١٠٢ ق.م أو عام ٢٤٤٩ ق.م ويرجحون التاريخ الثاني، وذلك نظراً للشكل الفلكي العام الذي ذكر بصورة مفصلة والمرتبط بالمعارك التي ذكرت في القصيدة الملحمية ماهابهاراتا. وإذا كان التاريخ الثاني صحيحاً فهذا يعني استناداً إلى الترتيب الزمني التوراتي، لزم أن يكون تاريخ استخدام هذه الأسلحة الذرية حوالي ألف سنة بعد الطوفان تمشياً مع التأريخ الهندوسي التقليدي.

لم تندلع حرب بهاراتا بعد أجيال عديدة انطلاقاً من حكم «ماني» الذي استطاع أن ينجو من تدمير الطوفان العالمي مع عائلته في السفينة. وتماثل القصة الهندوسية قصة نوح والسفينة !.

عندما شرع الباحثون الأوروبيون في دراسة «ماهابهاراتا» بتمعن في القرن التاسع عشر خلال الحكم الامبراطوري للهند، اعتبروا أن هذه المراجع العديدة الخاصة بالآلة الطيارة والأسلحة ذات التدمير الناري المروّع ما هي إلا ضرباً من الغلو الشعري. وعلى

حدّ تعبير المعلق الذي ينتمي إلى العهد الفكتوري ف. ر. ديكشيتار إن كل شيء في هذا الأدب هو من صنع الخيال، ويجب أن نصرفه عن أذهاننا بسرعة لأنه غير واقعي. ولكن بحكم البحث الأولي المتعلق بالفيزياء الإشعاعية والنووية عند منعطف هذا العصر، مال بعض الباحثين إلى اعتبار مهابهاراتا وسائر الأساطير القديمة دلالة على وجود طاقات، أي الطاقات التي بدأ الإنسان العصري بتفهمها حديثاً.

نشر العالم الفيزيائي فريدريك صودي F.Soddy في كتابه «تأويل الراديوم» عام ١٩٠٩م كلاماً يتعلق بالروايات القديمة: «ألا نستشف من خلال قراءتها بعد التبرير في اعتقادنا بأن هناك سلالة منسية أولية من البشر قد بلغت ليس فقط مستوى المعرفة التي أدركناها حديثاً ولكنها قد بلغت أيضاً قوة الطاقة التي لم نملكها بعد؟. أعتقد بأنه كانت توجد حضارات في الماضي كانت تألف الطاقة الذرية وعندما أساءت استعمالها أصابها التدمير الشامل».

بالطبع منذ عام ١٩٤٥م، أدركنا حقيقة تأثيرات الطاقة التدميرية للقنبلة الذرية، وأدركنا كذلك مصداقية الأوصاف التي ذكرت في الملحمة الشعرية مهابهاراتا.. منذ هذا التاريخ بدت لنا هذه الأوصاف حقيقية بكل معنى الكلمة.

إن استعمال الأسلحة الذرية في الهند من ٤٤٠٠ سنة يستوجب معرفة الفيزياء النووية التي تنافس معرفتنا بالذات.

توجد بيّنة بالنسبة لهذه المعرفة محفوظة بين السجلات الهندوسية القديمة. مثلاً هناك عدة كتب سنسكريتية تحتوي على مراجع متعلقة بتقسيمات الزمن المرتبطة بحقبة شاسعة جداً. من ناحية، وفقاً للنصوص الهندية التي تعالج موضوع علم الكون (الكوزمولوجيا) يعتبر كالبا Kelpe أونهار براهما، المرحلة الزمنية التي تساوي ٤,٣٢ بليون سنة. ومن ناحية أخرى، استناداً إلى وصف ذكر في بيهات ستاكا نجد مرحباً يخص كشتا Keshte ويعادل مرحلة زمنية جزءاً من ٣٠٠ ألف من الثانية.

ويجهل الباحثون السنسكريتيون المعاصرون النقطة التالية: ما هو سبب وجود هذا التقسيم الزمني الشاسع والدقيق جداً في ذلك العصر القديم. جل ما يعرفونه أن القدامى

استعملوا هذه التقسيمات الزمنية في الماضي، أما هم فيجب عليهم الاحتفاظ بهذا العمل التقليدي المأثور، علماً بأن أية تقسيمات زمنية من أي نوع إنما تستوجب أصلاً قياس مدة زمنية معينة لشيء معين.

إن الظاهرة الوحيدة في الطبيعة التي يمكن قياسها استناداً إلى البلايين من السنين أو إلى أجزاء مليونية من الثانية، ليست سوى معدلات التهدم الخاصة بالغِيَر الإشعاعية الذريّة Radioisotope (والغيرة الإشعاعية هي شكل من الأشكال ذوات الإشعاع الذري لمادة بسيطة أو عنصر). وتتعلق هذه المعدلات أو النسب بعناصر شأن اليورانيوم ٢٣٨ مع «نصف عمر» يساوي٤,٥١ بليون سنة بالنسبة لجزئيات دون الذرة في الحجم، مثل K ميزون (أي جزئية أولية لها كتلة متوسطة بين الإلكترون والبروتون) والهيبرون. ويتم قياس نصف العمر استناداً إلى أجزاء مئات المليون، والبلايين والتريليون (مليون بليون)، ويصل القياس حتى إلى كسور الثانية الواحدة. إن طرائق التقسيم الزمني الهندوسي القديم والخاصة كذلك بالغِيَر الإشعاعية الذرية عند انحلالها، قد استعملت فيما يبدو في الجزء الأخير من هذه الحقبة المذكورة.

إذا كان الشعب الهندوسي القديم أو إذا كانت الحضارة المبكرة التي ورث منها الشعب الهندوسي التقسيمات الزمنية هذه، إذا كانت تملك التكنولوجيا القادرة على دراسة وقياس المادة النووية وشبه النووية، هذا يعني بأنها كانت قادرة على استعمال الطاقة الذرية.

توجد بقايا تؤكد بقوة بأن الحرب الذرية قد اندلعت فعلاً في الماضي السحيق. استناداً إلى مهابهاراتا، عندما اندلعت حرب بهاراتا وقد استعملت فيها الأسلحة الذرية وآلات وَيمانا، تدخل سكان يخصون عهد ما قبل التاريخ وذلك على طول نهر الغانج في شمال الهند. وهناك في هذه المنطقة بالذات بين نهر الغانج وجبال راج محل توجد عدة أطلال مفحمة والتي يمكن استكشافها أو التنقيب عنها. واستناداً إلى الدراسات التي حصلت حديثاً يتبين لنا بأن الأطلال المفحمة هذه لم تحرقها نار عادية، وفي حالات كثيرة تبدو لنا بشكل كتل عملاقة وقد انصهرت ببعضها وأصبحت مساحاتها مصابة بثقب

عميق، وتبدو كأنها قطعة من القصدير التي انقض عليها سيل من الفولاذ المصهور. كذلك يمكن مشاهدة مثل هذه الأطلال داخل غابات كثيفة في ديكن Diccen على مسافة أبعد من الأولى، وتبدو بأنها تنتمي إلى منشأ مبكر مشيرة إلى حدوث حرب قد سبقت الحرب التي ذكرتها مهابهاراتا وتشمل مساحة أوسع بكثير. لقد كانت الجدران محبضة (أي مفتوحة جامدة) وقد أصابها التآكل والانتخار وتصدعت من جراء حرارة هائلة القوة. مع ذلك، ظل عدد وافر من التعميرات منتصباً وتحولت مساحات من الأنان الصخري إلى زجاج: أي انصهرت ثم تبلورت. بهذا لا يمكن اعتبار الشعلة المحرقة أو الانفجار البركاني قادراً على توليد مثل هذه الحرارة الفائقة القوة، فلن تكون مثل هذه الحرارة كافية لتوليد مثل هذه الظاهرة الاستثنائية المذهلة. فقط إن الحرارة المنبثقة عن طاقة ذرية قادرة على أن تسبب مثل هذه الكارثة.

وعن نفس المنطقة ذكر باحث روسي ويدعى جوربُفسكي في كتابه «ألغاز الماضي القديم» أنه جرى اكتشاف هيكل بشري مقياس النشاط الإشعاعي فيه أكثر من خمسين مرة من المستوى العادي. وفي خارج الهند تم العثور على بقايا مماثلة ناتجة عن هذا الدمار النووي الشامل.

ويصف الباحث إريك فون فانش الأطلال المصهورة ذات البنية البرجية الهرمية (زقورات، ويوجد عادة مثل هذا البرج الهرمي في بلاد ما بين النهرين قديماً) والتي كانت تقع بعيداً عن مدينة بابل القديمة: يبدو أن النار قد قوّضت البرج وهدمته حتى آخر أساساته. وفي أجزاء مختلفة من الأطلال توجد كتل بنية وسوداء مصنوعة من الآجر وقد تحولت إلى مادة مزججة.. وحصل ذلك من جراء تلقيها حرارة شديدة جداً، ذلك لأنها صهرتها كلياً. وتبدو الأطلال بكاملها مثل جبل محروق.

وفي عام ١٩٥٢، بدأ علماء الآثار بالتنقيب في فلسطين، فعثروا على عمق ١٦ قدماً، على طبقة من الزجاج الأخضر المصهور وتبلغ سماكتها إنشاً واحداً وتغطي مساحة تساوي عدة مئات من الأقدام المربعة. إنها مصنوعة من الرمل البللوري المصهور (الكوارتز) مع اللون الأخضر المتغير إلى اللون الأسود ويشبه هذا المظهر طبقات الرمل

المزجج الذي خلفته التجارب الذرية في نيفادا عام ١٩٥٠م.

وقد تم اكتشاف قطعة أخرى من هذا الزجاج منذ خمس سنوات في شمالي العراق قرب مدينة بابل وقد انتشرت بشكل طبقة رقيقة إلى مسافة تحت مستويات زراعية بابلية وسومرية خاصة بالعصر الحجري القديم (نيوليتيك). وعند الجهة الجنوبية تبدو صحراء الجزيرة العربية بصخورها السوداء التي تشير إلى النقطة التالية: لقد كانت هذه الصخور معرضة لإشعاع فائق الحد، وقد لفحها هذا الإشعاع وجعلها سوداء اللون.

يوجد ٢٨ حقلاً من هذه الصخور المصابة بالتلف والتدمير، وتدعى حرّات، وتغطي مساحة ٧٠٠٠ ميلاً مربعاً. واكتشف المهندس البيون هارت في شمالي منطقة الصحارى مساحة فسيحة من الزجاج الأخضر، وتبين بأنها ناتجة عن انصهار ثاني أوكسيد السيلكون وتشبه من حيث المصدر الموقع الاختباري الذري الذي جرى في منطقة الرمال البيضاء. كذلك تم اكتشاف نماذج أخرى من التربة المزججة بين أطلال في مساحات مقفرة جداً في منطقة صحراء غوبي في منغوليا. ومما يثير الدهشة بصورة خاصة هي هذه الطبقات الأرضية التي عثر عليها في سينغ لانغ قرب الموقع الاختباري الذري الصيني، وتبين بأنه يوجد فرق ضئيل بين بقع المادة البللورية المصهورة التي خلفتها الانفجارات النووية الحديثة والبقع التي تنتمي إلى العصور التي سبقت العهد الصيني الذي امتلك فيه القوة النووية.

وفي مكان آخر توجد أبراج وحصون في أوروبا وكذلك في الجزر البريطانية وفي جزر لوفوتن بعيداً عن النرويج، حيث تحتوي على جدران مزججة وعلى صخور مصهورة بواسطة طاقة مجهولة وهي ممتدة على طول الجوانب الغربية. وهناك عدد وافر من البروج في اسكوتلندا ومن الحصون الغرانيتية الممتدة على طول ساحل إيرلندا تشير إلى أنها قد انصهرت حتى بلغ عمق الانصهار قدماً واحداً.

ولقد تم العثور على أهم بيّنة من بيّنات التدمير البشري الحاصل لدى الحضارات المتقدمة القديمة، وهذه البيّنة موجودة في كتاب تيبيتي بعنوان ستنزاس أوفتزيان، وقد ترجم هذا الكتاب في القرن الماضي ويرجع تاريخ الأصل إلى عدة آلاف من السنين.

ويصف ستنزاس أوفتزيان الدمار العظيم الشامل كما وصفته القصيدة الملحمية مهابهاراتا وقد قضى هذا الدمار على أمتين متحاربتين، وقد استعملت كل واحدة آلات طيارة ناقلة وأسلحة نارية ملتهبة. «كان الملك الكبير ذو الوجه المبهر زعيم جميع أصحاب الوجوه الصفراء، كان حزيناً إذ أدرك النوايا الشيطانية للملك ذي الوجه القاتم. فأرسل آلاته الجوية إلى جميع إخوانه الزعماء والى جميع الحكماء الأتقياء وذلك لنشر رسالته وتحضير الرجال أصحاب القانون الصالح ولمساعدتهم في الفرار عندما تكتسح المياه اليابسة.

كذلك آلهة الزوبعة اقتربوا من هذا الموعد. فكانت آلاتهم الحربية قريبة من الأرض. وبعد نهارين وليلة واحدة وصلت آلهة الوجه القاتم إلى هذه الأرض بالذات. لقد حكم عليها بالفناء عندما غزتها المياه. لقد حضّر آلهة العين القاتمة السلاح السحري أغنيسترا (ويدعى بالهندوسية أغنيا أي الصاروخ النووي)، وكانوا مطلعين على ثقافة عشتار (وهي أرفع معرفة سحرية). تعالوا واستعملوا معرفتكم. على كل إله ذي وجه مبهر أن يوقع في الشرك الآلة الجوية لكل إله ذي وجه قاتم لكي لا ينجو أحدهم. انقض الملك الكبير على الإله ذي الوجه المبهر، وبكى.

عندما اجتمع الملوك كانت مياه الأرض مضطربة. اجتازت الأمم الأراضي الجافة. لقد تجاوزت علامة المياه. عندئذ بلغ الملوك اليابسة الآمنة بواسطة آلاتهم االجوية ثم وصلوا إلى أراضي النار والمعدن.. وانهمرت الكواكب (هل هي الصواريخ النووية؟) على الأراضي التي تخص الإله ذي الوجه القاتم، وكان نائماً وقتذاك. وظلت الوحوش الناطقة (أجهزة الراديو !!) هادئة. وكانت الآلهة تنتظر الأوامر ولكن لم تصل إليها لأن أسيادها كانوا نائمين. ارتفعت المياه وغمرت الأودية... وكان يسكن في الأراضي المرتفعة الأشخاص الذين نجوا من الكارثة وهم الرجال أصحاب الوجوه الصفراء والعين المستقيمة».

إن ترجمة هذا النص قد تمت منذ قرن تقريباً، وهي تصف أنماط التدمير الذي بات مألوفاً منذ عام ١٩٤٥م. ويجدر التذكير بأن هذا التدمير الشامل الذي سببه الإنسان قد تم وصفه في هذا النص بالإضافة إلى وصف الانقلابات الطوفانية التي حدثت داخل مياه

المحيط. ويعتقد بأن هذا الطوفان المكثف قد نتج عن تدمير نووي شامل. ولم يكن ناتجاً عن فيضان قد سببه تغير فجائي في مستوى البحر، أي عن تغير ناتج عن ذوبان الأنهار الجليدية في العصر الجليدي. إذا كانت آلهة الوجه الأصفر تنتمي إلى سكان منغوليا الذين ارتبطوا بمركز حضارة غوبي الرفيعة المستوى القديمة، هذا يعني بأن الطوفان كان عبارة عن موجة مدّيّة عظيمة بحيث اكتسحت آسيا الشرقية وصولاً إلى سيبيريا، وذلك عند نهاية العصر الجليدي.

واستناداً إلى ستنزاس هناك مركز حضاري آخر رفيع المستوى وقد تم تصنيفه ضمن إطار آلهة الوجه القاتم، وكان يملك معرفة متقدمة بخصوص الطوفان الذي أنهك مركز غوبي، ولذلك قرر الاستفادة من هذا الموقف وأرادت تدمير الأشخاص الذين ظلوا أحياء بعد هذه الكارثة بواسطة سد نووي وهجوم جوي تقليدي. ويبدو بأن آلهة الوجه الأصفر قد ردوا عليهم بالمثل فقاموا بهجوم نووي مضاد، وبينما كانت قلة من آلهة الوجه الأصفر تفر هاربة من الطوفان ومن التدمير النووي يبدو بأن آلهة الوجه القاتم قد زالوا من الوجود كذلك حضارتهم. ويشير السطر الأخير من النص إلى وجود أحياء بعد الكارثة وهم أصحاب العين المستقيمة وينتمون إلى شعوب أوروبا والشرق الأوسط. هذا يعني بأن هذه الشعوب كانت متورطة في النزاع النووي، ذلك لأن بقايا التدمير النووي الموجودة في هذه المساحات الواسعة تشهد على صحة ما ذهبنا إليه.

لقد تم اكتشاف أهم قطعة ثبوتية بخصوص التدمير النووي في الماضي. لقد عثر عليها في الجزيرة الشرقية في المحيط الهادي بالإضافة إلى التماثيل المونوليتية العملاقة (أي التي صنعت من قطعة واحدة من الصخر) وإلى نمطها الكتابي المثير. تنطوي الجزيرة على منحوتة خشبية وحيدة من نوعها وتدعى «مو إي كافا كافا» وتمثل هذه المنحوتة رجلاً متشنجاً مع ملامح تشريحية غليظة، وقد برزت بشكل مفصل كل التفصيل.

يقول الأوروبيون الأولون الذين زاروا الجزيرة الشرقية: إن السكان الأصليين كانوا يتصرفون إزاء هذه التماثيل الصغيرة كما لو أنها لا تخصهم إطلاقاً. حتى في يومنا الحاضر يُنظر إلى هؤلاء الرجال الذين تم نحتهم بقياس مصغّر من قبل سكان جزيرة أيسلندة

الشرقية وكأنهم كائنات مخيفة ومتنافية مع المنطق.

. هناك أساطير نابعة من السكان الأصليين، وتنسب هذه التماثيل إلى الملك تواوكوي هو. تقول الأسطورة: ذات ليلة لمح الملك أمامه فجأة كائنين بشريين كان كل واحد منهما مشوهاً وقزمي الشكل، واعتقد الملك أنهما ينتميان إلى الأرواح التي تخص الأفراد الذين ينتمون إلى السلالة التي كانت تسكن الجزيرة قبل هؤلاء السكان الحاليين، علماًأن مثل هذا النموذج البشري لم يظهر مرة أخرى إطلاقاً، لكن هذا الظهور الفجائي خلف انطباعاً قوياً لدى الملك بحيث اضطر في الحال إلى نحت نسخة طبق الأصل عنهما. وتعتبر تماثيل كافاكافا الحديثة نسخة طبق الأصل عن التماثيل التي نحتها الملك، ويبدو أن أسلوب هذه المنحوتات لا ينتمي إلى النمط البولينيزي.

ويبدو أن الملامح الوجهية المنحوتة مثل الأنف الأعقف والعينان شاخصتان واللحية المربعة الصغيرة، إنما تنتمي إلى الشعب العبراني. ومما يلفت الأنظار بشكل خاص هو مظهر الجسم. إنه نحيل مهزول، والغدة الدرقية ناتئة، بالإضافة إلى أورام خبيثة إلى فم مزموم والى فقرة العنق المنخسفة والى فرجة مميزة قائمة بين سلسلة الظهر عند الجهة السفلية وبين الفقرة الظهرية. كل هذه الملامح تؤكد على وجود دلالات طبية بحيث تشير إلى تعرض الجسم لمقدار قوي من الإشعاع. وتمثل هذه المنحوتات كافا كافا بقايا ناتجة عن تدمير ناري ملتهب قد تم اكتشافه في الجزيرة ويوجد عند قدم منحدرات قمة رانو كاو تغضن وحفرة مستطيلة ضخمة في الأرض يبلغ طولها نصف ميل وعرضها مائتي ياردة. وقد ظهرت هذه الحفرة بوضوح على الأرض ذلك لأنها مكونة من حجر السبج والصخر الأسود المزجج. ولا يوجد مثل هذا الصخر في مكان آخر من العالم سوى هذه الجزيرة.

توجد على نفس الخط لهذا الأثر من الصخر المصهور فوهة بركان صغيرة على تلة، لمسافة تساوي الميل الواحد. إن فوهة البركان دائرية تماماً وتتميز بالخصوبة النباتية الموجودة بوفرة حولها. واستنادا إلى وجود الحفرة المستطيلة والى فوهة البركان جاز اعتبار الفكرة التالية: كان يوجد هنا على اليابسة في عهد ماض غير مسجل، قوة هائلة العظم، جاز أن تكون هذه القوة طبيعية من صنع الإنسان بالطبع. إن مثل هذا الاعتبار معرض

للتحديث والافتراض أن تماثيل كافا كافا التي تحمل ملامح الإشعاع الفائق الحد في هذه الجزيرة التي تنتمي إلى عهد ما قبل التاريخ تجعلنا نعتقد بأن التدمير قد حصل عن طريق الإنسان.

كذلك قارات العالم الجديد تملك عدة أمثلة متعلقة بالآثار العمرانية التي تخص عهد ما قبل التاريخ والتي دُمرت بواسطة حريق جائح شامل. بالفعل هناك قرب كوزكو في البيرو، قرب حصن الأنكا في سكساهياما توجد مساحة فسيحة تساوي ١٨ ألف ياردة مربعة من الجبل الصخري.. لقد انصهرت كلها وتحولت إلى مادة بللورية.

لم يحصل ذلك فقط بالنسبة للجبل بل انتشر ذلك وشمل الكتل الصخرية الغرانيتية المنصوبة والتي تخص الحصن بذاته، وتشير هذه الصخور إلى وجود تزجيج مماثل وقد نتج ذلك عن حدوث حرارة إشعاعية فائقة الحد.

إن البقايا الأثرية المزججة الأكثر عدداً موجودة في العالم الجديد، وهي موجودة في الولايات المتحدة الغربية. يعتبر المكتشف الأمريكي الكابتن إيف وليام وولكر أول من شاهد هذه الأطلال عام ١٨٥٠، والتي تقع في وادي الموت. لقد اكتشف مدينة تبلغ الميل طولاً مع خطوط من الشوارع ومواقع لتعميرات ما تزال بارزة للعيان حتى الآن. لقد عثر في الوسط على صخرة عملاقة يتراوح ارتفاعها بين ٢٠-٣٠ قدماً مع بقايا أثرية ذات بنية ضخمة، قائمة فوقها. وكانت الجهة الجنوبية من الصخرة العمارة مصهورة ومزججة. هذا ما جعل وولكر يؤكد بأن البركان كان مسؤولاً عن هذه الظاهرة الاستثنائية ولكن لا يوجد أي بركان في هذه المنطقة. بالإضافة إلى ذلك لا يمكن أن تسبب الحرارة التي تحدث داخل قشرة الأرض مثل هذا التمييع على سطح الصخرة. ويعلق مرافق للكابتن وولكر على هذا الاكتشاف الأولي قائلاً: إن المنطقة بأسرها القائمة بين أنهار جيلا وسان جوان مغمورة بالبقايا الأثرية. عادة توجد أطلال المدينة في المساحات الأكثر امتداداً وقد أصيبت بالاحتراق وأصبحت مزججة جزئياً، وباتت مليئة بالصخور المصهورة وفوهات البراكين التي سببتها النيران أي النيران التي كانت حارة جداً إلى درجة أن ميعت الصخور أو المعادن.

وتوجد أحجار مرصوفة ومنازل قد تمزقت شر تمزيق وأصيبت بتصدعات مريعة كما لو أنها تعرضت لهجوم أداة نارية جبارة مخصصة لشق الأرض بهذه الطريقة المريعة.

ولقد تم العثور على أطلال مزججة أخرى في أجزاء من كاليفورنيا الجنوبية وأريزونا وكولورادو، ويقال بأن صحراء موهاف تحتوي على عدة بقع دائرية من الزجاج المصهور.

وكانت حضارة مجهولة لما بعد الطوفان قد دمرت فعلاً بواسطة النار في المنطقة الغربية من أمريكا الشمالية. هذا يعني بأن مثل هذا الدمار العظيم الشامل وجب أن يظل محفوراً في ذاكرة الأشخاص الذين ظلوا أحياءً بعد هذا الدمار وظلت أخباره متواصلة وتتنقل من جيل إلى جيل بينما كان العالم ر. بيكر المختص بالسلالات البشرية، يشرف على دراسة الفلكلور القبلي الهندي الكندي التقى رجلاً حكيماً وحدثه عن الأسطورة التالية: كانت توجد عبادة طوطمية في كندا الشمالية قرب منطقة التندرا (وهو سهل واسع بسيط ليس عليه شجر في المناطق القطبية الشمالية)، وتقول الأسطورة «قبل انتشار البرد القادم من الشمال وبينما كانت منطقة التندرا معرضة للريح والبرد كانت غنية بالمحاصيل الزراعية. عندما كانت الغابات الكبيرة والمروج المزهرة هنا، جاءت الشياطين وجعلت من شعبنا عبيداً لهم وأرسلت الشباب منا كي تموت بين الصخور وتحت الأرض (المناجم؟)، ولكن وصل طائر الرعد، وجعل شعبنا حراً. ونعلم بأن المدن الرائعة التي تخص طائر الرعد إنما تقع ما وراء البحيرات الكبرى والأنهار عند الجهة الجنوبية. عدد كبير من شعبنا هجرنا ورأى هذه المدن البراقة وكان شاهداً على هذه المنازل الكبرى ولغز الرجال الذين حلقوا في السموات، ولكن عادت الشياطين وحل دمار رهيب. أما الرجال الذين رحلوا إلى الجهة الجنوبية فقد عادوا ليعلنوا بأن الحياة بكاملها في المدن قد تلاشت.. ولم يبق هناك سوى الصمت».

هذا كل ما يعرفه هنود الطوطمية حول هذا الموضوع، ولا يستطيعون إضافة أي شيء حول هذه الأحداث. إنها القصة التي رواها لهم أجدادهم الأولون.

يملك هنود هوبي الذين يسكنون الجهة الجنوبية الغربية نفس الرواية المأثورة، بيد أنها تقدم لنا نظرة عاجلة أخرى متعلقة بهذه الأحداث غير المسجلة. وتدعى هذه القصة

كوزَ لورسا وعصر العالم الثالث وهي محفوظة في كتاب لفرانك وترز بعنوان «كتاب الهوبي».

لقد صنع بعض الأشخاص الذين ينتمون إلى العالم الثالث آلة تدعى «باتوفوتا» وبفضل قواهم السحرية جعلوها تنطلق في الفضاء، وعلى متنها طار عدد وفير منهم إلى المدينة الكبيرة فهجموا عليها ثم عادوا بسرعة فائقة بحيث لم يعرف السكان من أين جاء المهاجمون. وبعد ذلك صنعت عدة أمم آلات مثل «باتوفوتا» وحلقوا عالياً وشنوا هجوما على بعضهم البعض، وهكذا ساد الفساد والتدمير شعب العالم الثالث وحل بهم ما حل بالشعوب التي سبقتهم.

تشير الأطلال في الولايات المتحدة الغربية إلى حدوث تدمير بواسطة الحرارة الإشعاعية فهي شهادة صامتة بأن هذه الأساطير تنطوي على عنصر واقعي حسّي.

بالإضافة إلى ذلك يوجد ترابط فكري بالنسبة لزوال المدن التي تخص عهد ما قبل التاريخ والرجال الذين حلقوا واجتازوا الفضاء والقصة الهندوسية التيبتية فيما يتعلق بالآلات الجوية الناقلة المزودة بالأسلحة النووية.

ومع انهيار المراكز التي كانت تخص عهد ما بعد برج بابل أي بين ٢٩٠٠ – ٢٨٠٠ ق.م دخل العالم مرة أخرى مرحلة مقتضبة من الاضطراب والانضباط بالنسبة للسكان الذين كانوا ينتمون إلى مراكز الحضارة السامية واستطاعوا أن يبقوا أحياء بعد الكارثة وجدوا أمامهم خيارين إما أن يبدأوا بتأسيس جديد لثقافتهم الخاصة وإما أن يهاجروا ويصبحوا أعضاء لثقافات أقل مستوى من ثقافتهم، لحضارات تخص العصر الحجري أو لحضارات قد انبثقت من البحر المتوسط والشرق الأوسط أي لمناطق كانت بمعظمها غير مصابة بالكوارث الطبيعية أو التي افتعلها الإنسان. أما الذين اعتمدوا على الخيار الأول فقد ظلوا أحياء وعاشوا كمزارعين بسطاء. يقول ريتشارد مونيه معلقاً في كتابه «أرض مستعمرة»: إن انهيار تقنية الحضارة المتفوقة قد ترك فرصة وجيزة لإنقاذ أي شيء ما عدا الأشياء الجوهرية. ربما حاول هؤلاء الذين نجوا من الكارثة إنقاذ بعض الأدوات الآلية الضرورية من بينها عدد ضئيل من الطائرات التي ساعدتهم في مواصلة الاتصال بغيرهم

من الأحياء. ومع مر الزمن أصبحت مثل هذه الآلات غير صالحة للعمل بالشكل المطلوب، منها ما أصيب بالتلف، ومنها ما افتقر إلى الطاقة. ومع تدمير التكنولوجيا أصبحت إمكانية صنع أجزاء الآلة غير ممكنة.. وفي النهاية أصبحت جميعاً ذكرى لسهم صغير غريب يرشق باليد ويطير في الفضاء والذي كان يستعمل ذات يوم آلة للسفر ولاجتياز الفضاء. ومع مرور الزمن والعصور أصبح مثل هذا الاعتقاد ضرباً من القصص الوهمية. أليس كذلك؟.

عندما نجا نوح وعائلته من الدمار الذي ينتمي إلى حضارة ما قبل الطوفان، قضوا مائة وعشرين سنة وهم يستعدون لذلك. وقد استطاعوا أثناء هذه المدة تجميع المعرفة الضرورية للعيش وللشروع في تأسيس ثقافة جديدة في عهد ما بعد الطوفان. لكن تدمير مراكز عهد ما بعد برج بابل، إنما حدث بسرعة وبدون إنذار، ولم يفسح المجال للاحتفاظ بالشيء الوفير من المعرفة. ومع انقراض البيئة التكنولوجية – المصادر التقنية والعمل المتجانس المتخصص بواسطة الرجال والآلات وجب أن تكون درجة الحضارة التي ظلت حية بعد هذه الكارثة محصورة جداً. وبدون الصناعة اضطر الأحياء الباقون إلى تركيز مجهوداتهم حول إنتاج الضروريات وتأسيس الاكتفاء الذاتي الزراعي بحيث بات هذا الاتجاه من أولى اهتماماتهم. وتكمن المأساة في النقطة التالية: عندما تلاشت المعرفة التي كانت تملكها الحضارة المتفوقة ظل أتباع هذه الحضارة، أي الذين عاشوا بعدها، مزارعين ليس إلا..

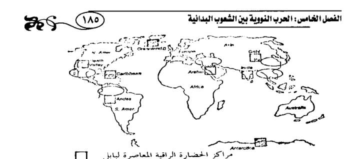
بات الآن بدهياً أن الأحياء الباقين من هذه المجزرة الذرية كانوا قد أسسوا فعلاً عدداً هاماً من المراكز الزراعية. منذ عقدين من الزمن فقط أكد علماء الآثار بأن الزراعة كانت تُمارَسُ في منطقة الهلال الخصيب في الشرق الأوسط (العراق – سوريا – لبنان – فلسطين – الأردن) وقد انتشرت من هناك حتماً هذه الثقافة الزراعية عبر العالم أجمع. لكن التنقيبات الحديثة في أقسام متنوعة من الكرة الأرضية قد غيرت رأساً على عقب هذا المفهوم المغلوط. إن البنية الجديدة تشير إلى وجود زراعة كبرى في الصين الشمالية الشرقية وفي آسيا الجنوبية الشرقية ومكسيكو والبيرو، وتعتبر هذه المناطق قديمة تماماً مثل الشرق الأوسط.

لقد سببت هذه الاكتشافات هلعاً كبيراً بين المؤرخين التقليديين ذلك لأنها تنطوي على أسئلة أكثر مما تنطوي على أجوبة. والسؤال الأكثر استغراباً هو التالي: لماذا ظهرت فجأة هذه المراكز الزراعية في جميع أنحاء العالم في الزمن نفسه تقريباً؟. جاز أن نعثر على الجواب ضمن مواقعها بالذات.

إن زراعة الشرق الأوسط قد ازدهرت ليس بعيداً عن تلك المساحات الشاسعة الموجودة في وقتنا الحاضر أي فلسطين والعراق والجزيرة العربية التي دمرت قديماً بواسطة النيران النووية. إن المراكز الزراعية الآسيوية والصينية إنما تقع على مسافة قصيرة من مراكز حضارة غوبي والحضارة الهندية بينما تقع المواقع الزراعية المكسيكية عند الجهة الجنوبية من أطلال وادي الموت ويقع مركز بيرو الزراعي في نفس الموقع الذي توجد فيه الواجهة المصهورة لساكسا هوياماν Sacsahuaman.

وقد تم حديثاً اكتشاف مركز زراعي في فنزويلا ليس بعيداً عن الأطلال المزججة في اطلال البرازيل وبسبب التدمير التام لهذه المراكز بصورة فجائية، جاز الاعتقاد بأن الأحياء الذين عاشوا بعد هذه الكارثة قد طوّروا بأنفسهم الجمعيات الزراعية التي كانوا ينتمون إليها وبزمن قصير، ويمكن مشاهدة نفس هذا التطور خلال تأريخ صناعة الخزفيات. واعتقد المؤرخون لسنوات عديدة بأن الشرق الأوسط كان موئل الصناعة الخزفية الأولية في العالم تماماً كما كان الموئل الأول في حقل الزراعة ومنذ ذلك الحين تم اكتشاف صناعة الخزفيات في اليابان تماماً كما حصل ذلك في الشرق الأوسط. لقد حاول العالم الأنثروبولوجي ج. أدمونسن تشييد قالب نظري وذلك لتحديد أثر الصناعة الخزفية الأولى في الشرق الأوسط واليابان بالإضافة إلى الاكتشافات التي تخص آسيا وإفريقيا، وتنتمي جميعاً إلى منشأ واحد مشترك.

إن المركز النظري الذي اكتشف هناك يدعى أولان باتور في منغوليا تحديداً في وسط موقع حضارة غوبي العليا.



أما الاختيار الثاني فكان يتعلق بأمر النزوح والمشاركة في المعرفة التي كانت تملكها السلالات الباقية حية مع الحضارات السُفلية في أوروبا والشرق الأوسط التي كانت غير متأثرة بالكارثة النووية وكارثة العصر الجليدي.

إن اندماج الحضارة العليا بالحضارة السفلى ولد حتماً نتائج عميقة. هذا ما نلمسه تماماً بالنسبة لتأريخ الثقافات المعروفة. لم يكن منشأ حضارات العهد الأول من العصر الحجري (الباليوتيك) من أوروبا، ولكن نتج ذلك بحكم توارد متعاقب انطلاقاً من الشمال وصولاً إلى الغرب. وهذا ما حصل أيضاً في سياق التواريخ الأسطورية الخاصة بالحضارات القديمة. ونجد في هذا المجال الترتيب التالي للأحداث:

١ – مرحلة أولية خاصة بحكم الملوك الآلهة الذين يتمتعون بمعرفة كبيرة (تمشياً مع مرحلة ما قبل بابل).

٢ – مرحلة الفوضى والتقهقر، وخلال ذلك نمت وازدهرت الثقافات البدائية لفترة وجيزة (ما بعد برج بابل).

٣ – حلول معالم ثقافية أجنبية وتفجّر فجائي في الهندسة المعمارية والتنظيم الاجتماعي والديني بحيث ظلت هذه المعالم لا تتغير نسبياً طيلة ألف سنة المتعاقبة.

للأسف لم يتعرف المؤرخون التقليديون إلى وجود هذه الأشجار الثقافية الأسطورية المثمرة، بل يؤكدون بدلاً من ذلك أن الحضارات القديمة كانت وليدة التطور البطيء والراسخ منذ بدايات العصر الحجري. إن النقطة التي بدت للمؤرخين مستحيلة من حيث التفسير والتوضيح هي التالية: لماذا لا تشير البينة الخاصة بعلم الآثار إلى مرحلة انتقالية بين الحضارات القديمة والأجداد الأولين البدائيين؟.

يقول فندرفير في هذا الصدد في كتابه «الأكوان الخفية»: لنأخذ المصريين مثالاً لذلك. إن مهارة تشييد الإأهرامات تستوجب على الأقل معرفة في علم الحساب وتقنيات الهندسة المعمارية والتحذلق في نقل المواد، وهذا كله يتطلب مرحلة تحضيرية طويلة الأمد. وللأسف لم تبدُ هذه المرحلة واضحة استناداً إلى دراسة علم الآثار. ويعتبر علماء الآثار أن المشكلة تكمن هنا في هذا المجال لكنهم لا يريدون القيام ببحث استقصائي حول أسباب هذه المشكلة. إنهم يقبلون فقط وبكل بساطة فكرة وجود حضارات أخرى. لم يذكروا شيئاً عن خلفية ما قبل التاريخ بالنسبة لهذه الحضارات التي جاز اعتبارها نتيجة لهذه المرحلة الزمنية التي غطت الآلاف من السنين القائمة بين العصر الحجري والأحقاب الزمنية الخاصة بالسلالة الحاكمة.

ويستحيل علينا قبول هذه الحجج. إننا نعتقد وربما شاركنا العلم في هذا الاعتقاد، بالأمر التالي: عند مرحلة معينة في الأحقاب المبكرة جداً من عهد ما قبل التاريخ، قد حصل احتكاك بين الشعوب القديمة وبين سلالة أقدم منها، وكانت تملك حضارة متقدمة وتاريخاً كان يمتد إلى مسافات خلفية فعلاً. يبدو بأنه يوجد شيء من الحقيقة بالنسبة لهذه القصص الخرافية والأساطير وجاز أن يكون قد وجدت على كوكبنا سلالة بشرية كانت تتمتع بحضارة رفيعة المستوى (تتميز بالتحذلق والمهارة) والتي زالت من الوجود، وذلك بسبب كارثة طبيعية واحدة أو أكثر. إن النظرية المقنعة الوحيدة هي التالية: كان الأشخاص الذين ظلوا أحياءً بعد الكوارث والذين كانوا ينتمون إلى هذه الحضارة مسؤولين عن المهارات التقنية وعن فن الكتابة، وكانت هذه التقنية وهذا الفن في حوزة الثقافات القديمة التي نقلت المعرفة إلى الشعب الذي عاش فيها بعد العصر الحجري.

في اعتقادنا لقد حدث ما يلي: في مكان ما على الأرض، انبثقت حضارة أو ربما عدة حضارات، وبحكم الأحوال المزدهرة جداً والملائمة والتي سبقت سائر الحضارات في هذا المضمار.. نعتقد بأن كارثة واحدة أو عدة كوارث طبيعية دمرت هذه الحضارة الأصلية، وقد وجد الأحياء بعد ذلك ملجأ لهم بين السكان الذين يعيشون في هذه المساحات الآمنة والتي ولدت فيها بعد الحضارات القديمة التي نعرفها في الوقت الحاضر. إنها النظرية الوحيدة التي تتجاوب مع كل الاعتراضات وتعطينا تفسيراً حول كيفية سد الفراغ القائم بين حضارة وأخرى ضمن نطاق الأساطير والحكايات الخرافية القديمة.

***



الفصل السادس

حل لغز رجل الكهف

لقد دمرت مراكز الحضارة الكونية الثمانية بعضها بعضاً، وبحكم هذا التدمير الشامل أخذ ينبض قلب الكوكب الأرضي بشدة وسرعة ألماً وخوفاً. لقد كان يمطر الموت من أعالي السموات في كل مكان، وكانت تنطلق الأسهم النارية الكثيفةوتتلبد في السماء غيوم مدمرة ومليئة بالنيران التي يقذفها سلاح «أغنيا» مولداً موجات إشعاعية من الموت، منتشراً في ساحات المعركة، فيتحول الرجال والآلات بحكم ذلك إلى أبخرة.

إن المعرفة التي احتفظت بعناية فائقة وجلبت ووصلت إلى هذه الحضارات المتحاربة عبر الطوفان، أصبحت الآن أداة للتدمير. لقد ساد الموت وانتشرت رائحة الجثث الكريهة المتفسخة بشكل لا يطاق، حيث كانت هذه المدن منتصبة ومزدهرة بكل اعتزاز. لقد رحلت إلى غير رجعة الوحدة الكونية وسادت محلها الفوضى.

وبحكم المعرفة المتصدعة والاتصالات المفقودة وعدم الثقة والكراهية التي أصبحت القاسم المشترك بين الأمم المتحاربة وبحكم عدم وجود تبادل الأفكار والمعتقدات، بحكم كل ذلك تلاشت إمكانية تدفق سيل الاختراع والتقدم التقني. بدا كأن يداً عملاقة قد ارتفعت عاليًا ودمرت فجأة جميع الأمم فاختطفت خيوط المعرفة وجذبتها إلى الوراء.

هكذا اضطر الكون أن يتغير مرة ثانية. اضطرت فئات صغيرة من الأحياء التي ما زالت تعاني من صدمات الرعب العنيف إلى التخلي عن هذا الكابوس المتعلق بالمدن المصهورة، تاركة إياها فريسة في قبضة الإشعاع الذري، وبدأت هناك حياة جديدة، في

الجبال والأدغال حيث لم يصلها الدمار الشامل. لقد التجأت إلى الكهوف والى الشقوق الصخرية. وبهذه الطريقة بدأ العيش الجديد بعيداً عن نعم وبركات المجتمع المشكوك فيه.

هكذا بدأت الحضارات المتصدعة البحث عن وسائل أخرى لترسيخ حياتها من جديد، فحاول الشعب خلال ذلك أن يستعيد بالذاكرة ما عُهِد إليه سابقاً بواسطة المدرجات (أي الأوراق المكتوب عليها) والصفائح المعدنية. وما تزال بقايا هذه الحضارات موجودة اليوم، ولقد ساهمت في هذا النزاع الذي عُرف باسم التطور.

إن الإطار الجديد للتأريخ المرتكز على الاكتشاف وترجمة المخطوطة، أي هذا الاكتشاف الذي يغطي نشاطات السلالة البشرية منذ الطوفان، إنما يشير إلى النقطة التالية: لم يكن يوجد فعلاً تعاقب تقدمي. لقد كانت حالات التطور الخاصة بالعصر الحجري وبثقافات مصر وبلاد العراق عبارة عن شعب متقطعة تخص العالم المتفكك الذي ينتمي إلى مرحلة ما بعد تشييد مركز عالم بابل.

كانت الحضارة البدائية المحدودة تعيش في نفس الوقت الذي عاشته الحضارة المتقدمة، وكانت كل واحدة على علم بوجود الأخرى.

● موت الإنسان القرد:

في سبيل تأكيد صحة نظريتهم، صنف العلماء منذ سنوات قليلة بقايا إنسان ما قبل التاريخ والتي تخص الهياكل العظمية المتنوعة، وهذه البقايا تمثل أوضاعاً متنوعة، ضمن نطاق خط الارتقاء الافتراضي انطلاقاً من الإنسان القرد وانتهاءً بالإنسان العصري. بيد أن اكتشافات حديثة إضافية قد أشارت إلى وجود واقع محيِّر وهو التالي: كانت القاعدة البشرية موجودة دائماً، ليس بوصفها ذرية لقرود أو كائنات بدائية ولكن بوصفها إنساناً، منذ بداية الزمن. وهذه الكائنات التي في اعتقادنا هي من سلالة الإنسان القرد كانت بكل بساطة كائنات بشرية وقد أصيبت بالانحطاط والفساد. وقد نشأت من الأصل البشري الرئيسي Human stock. يقول بجورن كورتن Bjorn Kurten مؤلف كتاب «ليس

من أصل القرود»: لقد بدا الأمر ممكناً في العقد الأخير للبرهنة بأن سلسلة النسب البشرية، جاز متابعتها إلى الوراء وصولا إلى الأزمنة السحيقة حيث كانت تحتفظ بطبيعتها الوحيدة. بالفعل جاز أن نشك في القول بأن جدنا الأول كان كما يقال قردًا. يبدو هذا الأمر رائعاً من حيث التفسير الخاص بعلم الحيوان. إن التناقضات القائمة بين القرود والبشر من الناحية التشريحية كبيرة جداً إلى درجة لا يمكن توفيقها بواسطة منشأ مشترك حديث نسبياً، كذلك فيما يتعلق بالطبيعة السلوكية ينطبق مثل هذا القول على عصر الاكتشاف، علماً بأنه ليس كل شخص مستعد أن يوافق على هذه الاستنتاجات.



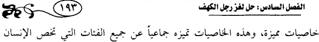
إن تطور الإنسان كما يُرى ذلك عبر التقهقر التكنولوجي إنما يشير إلى أن الإنسان لم يتقدم. بالأحرى لقد تراجع وتقهقر. ولمدة قرن تقريبا اعتقد العلماء المؤمنون بنظرية النشوء والارتقاء بأن إنسان نياندرتال إنما هو الجد الأول المباشر للإنسان العصري (وقد اكتشفت بقاياه الهيكلية الجزئية في أوروبا) وتم العثور أيضاً على اكتشافات اكثر حداثة تخص الإنسان النياندرتالي في الشرق الأوسط. ويعتبر هذا الإنسان أكثر تطوراً ويشبه تقريباً الإنسان العاقل Homo sapiens ظاهرياً. بيد د. ك. بورديك الجيولوجي من أريزونا مع مجموعة من الآثار المتحجرة خلفت في سرير نهر بالوكسي في تكساس لديناصور وإنسان بحجوم مخيفة. طبعات أقدام الإنسان ١٥ إنشاً للطول. وما له مغزى أكبر هو حقيقة أنهما اكتشفا بعد اكتشاف آثار الديناصور. وهذا يدل على أن الإنسان والديناصور كانا متعاصرين.

إن هذه الاكتشافات هي أقدم من الاكتشافات التي عثر عليها في أوروبا الغربية، مما دفع بالعلماء المختصين بعلم معايش الإنسان في الأزمان القديمة إلى الإقرار بأن الكائنات البشرية النياندرتالية الموجودة في أوروبا الغربية كانت تشكل خطوة إلى الوراء. وهناك التفسير الأكثر إقناعاً بخصوص تراجع وتقهقر الإنسان النياندري الأوروبي، وهو التالي: لقد قطع هذا الشعب بإرادته الشخصية علاقاته بمراكز الحضارة ثم وجد نفسه منفصلاً عن بقية الجنس البشري بسبب الأنهار الجليدية في العصر الجليدي التي غطت وشملت أوروبا الشمالية والوسطى. وبحكم هذه العزلة وهذه الأعداد المحدودة حصل تزاوج محصور بين الأقارب. استنادا إلى هذه الجملة الجينية المشتركة المحدودة، تضاعفت المعالم الجينية السيئة، وأدت إلى ولادات مشوّهة وتبدلات خلقية. ومن خلال هذه المعالم الجينية ولدت التركيبات المميزة لبقايا الإنسان النياندري في أوروبا الغربية.

يوجد هناك علماء مختصون بعلم معايش الإنسان في الأزمان القديمة بحيث يعتقدون بأن مثل هذا التفسير لا يطبق فقط على الإنسان النياندري ولكن أيضاً على بقية الكائنات البشرية التي تشبه القرد (أي التي تشبه الإنسان القرد البدائي). يقول هارولد ج. كوفن Harold G. Coffin وهو البروفسور الباحث في معهد الأبحاث المختصة بعلم الأرض في بيرانس سبرينس، ميتشيغان: ليس الإنسان النياندري ولا إنسان كرومنيون دعامتين مفيدتين جداً بالنسبة للنشوء والتطور، ذلك لأنهما يشبهان كثيرًا الكائنات البشرية العصرية. وهذا الأمر صحيح بالأخص منذ حدوث الاكتشاف الحديث والذي يعتبر الأوصاف التقليدية للإنسان النياندري، مرتكزة بقسمها الواسع على بقايا الهيكل النياندري للإنسان الذي كان يعاني من التهاب المفاصل المزمن الحاد.

هناك مقال بعنوان الحلات المرضية ووضعية الإنسان النياندري بقلم الباحثين وليام ستروس W. Straus و أ. كوف A. Cove يركز على هذا التقييم بشكل ملحوظ: «لا يوجد سبب معقول بالنسبة للإصرار التالي: إن وضعية الإنسان النياندري الذي يخص المرحلة الجليدية الرابعة تختلف بصورة واضحة عن الإنسان الحالي».

ثم يضيفان قائلين: «ولا ينكر بأن أطرافه كذلك جمجمته، تشير جميعاً إلى وجود



خاصيات مميزة، وهذه الخاصيات تميزه جماعياً عن جميع الفئات التي تخص الإنسان المعاصر».

وجاز القول بأن الرجل العجوز المصاب بالتهاب المفاصل الذي تم العثور عليه في منطقة لاشابيل أو سان إنما هو النموذج الأولي في وضعية الجسم الخاص بالإنسان النياندري الذي انتصب فعلاً واقفاً وسار وهو يحمل بين ضلوعه علة تحدّب العامود الفقري kyphosis. ولكن إذا كان الأمر كذلك وجب أن يكون الإنسان المعاصر مصاباً أيضاً من حيث الشكل العام بعلة مماثلة (أي بعلة التهاب المفاصل الخاصة بالعامود الفقري).

ولا يستطيع نظراً لحالته المرضية الظاهرة تأمين الصورة العلائقية للإنسان الذي يتمتع بالصحة والعافية، أي الإنسان النياندري السويّ الطبيعي.

ويوجد أيضاً بعض المختصّين بعلم معايش الإنسان في الأزمان القديمة الذين يعتقدون بأن مثل هذا التفسير، كذلك التفسير الآخر المتعلق بالمعالم الجينية المنحسرة (الراجعة إلى الخلف) إنما يمكن تطبيقهما ليس فقط على الإنسان النياندري وإنما على بقية الكائنات البشرية البدائية التي تشبه القرد Ape-men. هكذا توجد علتان مشتركتان ضمن نطاق الملامح الجينية المنحسرة، وهما: اضطرابات الغدة الصمّاء والغدّة الدرقية التي تؤثر في نمو العظام والأنسجة الأخرى والتي تسبب في نشوء مرض تضخم النهايات في الجسم acromegaly أكروميغالي ومرض الهُلاس. إن الأوصاف الطبية لهاتين العلتين تشبه فيها الأوصاف المرضية العصرية الحديثة تلك المتعلقة ببقايا الكائنات البشرية التي تشبه الإنسان القرد.

إن مثل هذه الأحوال تحدث نادراً بين السكان بدرجة عالية ضمن الاختيار النسلي ولكن كما أشير أعلاه جاز أن تصبح سائدة لدى الشعب الذي يعيش منعزلاً. بهذا يجدر التحدث في هذا السياق عن الأماكن التي وجدت فيها بقايا الكائنات البشرية البدائية التي تشبه الإنسان القرد. ونذكر فيما يلي النماذج الكبرى لهذا الإنسان القرد:

١ – الإنسان الشبيه بالقرد من جنس البشر القديم. كان موجوداً في أندونيسيا بيتيكانتروبوس pithecanthropus.

٢ – الإنسان القرد أو إنسان الصين البدائي من فصيلة الإنسان المنتصب القامة. وكان موجوداً في الصين الشرقية سينانتروبوس sinanthropus.

٣ – الإنسان القرد أوسترالوبيتكوس australopithecus.

٤ – الإنسان القرد النياندري البدائي. وكان موجوداً في القسم الغربي من أوروبا نياندرتال neandertal.

عندما ننظر إلى هذه الأماكن المحلية على ضوء التشتت السكاني انطلاقاً من جبل أرارات وصولاً إلى العهد الطوفاني يتبين لنا بأن جبل أرارات كان يشكل نقطة الانطلاق المركزية !! علماً بأن بقايا البشر البدائيين قد تم اكتشافها عند الجوانب الخارجية.

غالباً ما توجد بقايا هذه الكائنات التي ظلت حية بعد الكوارث بجوار المواد المستعملة التي كانت أكثر متانة شأن المادة الحجرية أو العظمية. ومن هنا جاء مصطلح «العصر الحجري». بيد أن هذا لا يعني أن هذه الكائنات البشرية قد استعملت لزاماً مثل هذه المواد. بالفعل توجد بينة بشأن السكان المجاورين المتحضرين، بحيث تشير بأنهم لم يتعرفوا فقط على هذه المواد بل كانوا يعملون بواسطة المعادن. صحيح أننا لم نكتشف حالياً الأدوات المعدنية بين بقايا العصر الحجري، ولكن الأمر يبدو مفهوماً بمعنى أن الأدوات المعدنية لا يمكنها أن تدوم إلا بعض آلاف السنين متى تعرضت إلى التقلبات المناخية عبر هذا الزمان الطويل.

في الواقع لقد عرف الأحياء الذين عاشوا بعد الكارثة قيمة المعدن، بالأخص عندما نكتشف هذه المناجم التي تعود إلى ما قبل التاريخ، والتي انتشرت عبر الكون بأسره.

توجد في جزيرة ألبا في البحر الأبيض المتوسط مناجم تحتوي على خام المعدن الحديدي، وقد ضاعت مصادرها في العصور القديمة. كذلك اليونانيون يعتبرون مثل هذه المناجم قديمة العهد، وفي اعتقادهم أنها منسوبة إلى الشعب البيلاسجي. وينتمي هذا الشعب إلى عهد ما قبل التاريخ وقد سكن قديماً شرقي البحر الأبيض المتوسط. وإلى ما بعد أوروبا تم حديثاً استكشاف عدد من المواقع التي ساهمت في إغناء معرفتنا بعمليات

المناجم التي تخص عهد ما قبل التاريخ. لقد أظهرت الأبحاث التنقيبية التي جرت عام ١٩٦٧ وعام ١٩٦٩ في كهف الأسد قرب ناغونيا في سوازيلاند في شمالي إفريقيا بأنه حصل منذ مدة طويلة قبل ظهور الجنس البشري الزنجي في بانتوس وقبل أن يستوطن سكان البوشمن وهوتنتوت هذه المنطقة، عندما كانت نماذج الإنسان النياندري المحلي منقرضة، شأن الإنسان الروديسي والبوسكوب وإنسان فلوريسباد، قبل كل ذلك كانت توجد ترسبات منجمية مختصة بحجر الدم وبالجواهر المعدنية التي تستخلص بالتعدين وبأنماط من خام المعدن الحديدي.

ولقد تم اكتشاف حجر الدم (خومهان = فلز معدني أحمر يحتوي على حمض أوكسيد الحديد) بجوار الإنسان النياندري في منطقة لاشابيل أو سان في فرنسا. ويرجع تاريخ هذه البقايا إلى نفس المرحلة التي تنتمي إليها مناجم ناغونيا. ويسود الاعتقاد اليوم بأن حجر الدم هذا كان يستخدم كمادة للتجميل، كذلك لأغراض طقوسية، بمعنى أنه كان يحل محل الدم البشري في الاحتفالات الجنائزية. لقد تم اكتشاف استخدام حجر الدم بهذه الطريقة المخصوصة في تاسمانيا بعيداً عن أستراليا الجنوبية وفي تيراديلفيغو في أمريكا الجنوبية.. هذا يعني بأن حجر الدم موفور دائماً في المناطق الساحلية. جاز أن يكون استخدام حجر الدم وربما المادة ذاتها قد تم تصديرها إلى منطقة بعيدة في أزمنة ما قبل التاريخ. مثل هذه التجارة الواسعة الانتشار تعتبر بالطبع غير متوافقة مع النظريات الحديثة المتعلقة ببدائية الإنسان الأولي.

ليس بعيداً عن منطقة ناغونيا في بوردركيف في شمالي إفريقيا أجريت تنقيبات عام ١٩٧٢ بإشراف أدريان بوشييه وبيتر بوما وتم اكتشاف حفر عميقة منجمية يعود تاريخها إلى عهد ما قبل التاريخ. وقد بلغ عمق البعض منها ٤٥ قدماً. هناك أيضاً تم استخراج حجر الدم وتم أيضاً اكتشاف بقايا لنماذج الإنسان النياندري وبقايا لنماذج حديثة تخص الإنسان البدائي. كذلك تم العثور على سكاكين ما تزال حادة بحيث تكفي لقطع الورق. وبدا واضحاً أن عمال المناجم كانوا يستخدمون علم الرياضيات وكانوا يسجلون معلوماتهم بواسطة نقوشات (باستعمال الحوامض) على قطعة عظام، وبدا واضحاً أن

المعدن الخام الحديدي كان يملك قيمة اقتصادية ملحوظة، هذا مما جعل الحفارين البدائيين يحتفظون بالآثار التي كانوا يصنعونها.

ومما يثير الدهشة بشكل ملحوظ هو اكتشاف منجم يخص عهد ما قبل التاريخ وذلك في شمالي أمريكا. توجد في سلسلة جبال كيونياو والجزيرة الملكية في ميتشغان وفي منطقة البحيرة العليا الغنية بالنحاس، معادن قديمة بحيث كانت مصادرها مجهولة تماماً حتى من السكان الهنود. هناك دلائل تشير إلى أن عدة آلاف من الأطنان من النحاس قد نقلت من هذا المكان منذ عهد مبكر جداً، بيد أنه لا توجد بقايا خاصة بالمصنوعات اليدوية، لتشير إلى مكان المناجم.

يقول كتاب «الآثار العتيقة الأمريكية» (مجلد ٢٥، ص ٢٥٨): «لا يوجد أي دليل لأية إقامة دائمة قرب هذه المناجم. لا توجد أية شارة بخصوص السكن، ولا يوجد أي هيكل عظمي حتى ولا قطعة عظام». جل ما يمكن معرفته هو أن المناجم التي تخص عهد ما قبل التاريخ، لا تستخدم فقط لاستخراج المعدن الخام ولكن لنقلها أيضاً إلى موقع بعيد. ذلك لأنه لم يتم اكتشاف أونصة واحدة (٣١,١ غراماً) من المعدن الخام عبر مسافة تبلغ آلف ميل من مواقع المنجم.

لقد حصل الاكتشاف الأول بالنسبة للآبار المنجمية، والتي تعود إلى عهد ما قبل التاريخ في عام ١٨٤٨ بواسطة س. أو. كناب S. O.Knapp وهو وكيل مؤسسة مينوسوتا للمناجم. لقد لاحظ وجود انكساف متواصل في التربة واستنتج حدساً بأن هذا الانكساف قد يكون نتيجة لتهدم وانحلال راسب معدني. وقاده مثل هذا الانكساف إلى مغارة، فتبين له أن مثل هذه المغارة إنما هي ناتجة عن حفر اصطناعي. وبعد إزاحة الأنقاض المتناثرة عن الموضع اكتشف عدة مطارق صخرية واكتشف عند قاع الحفرة راسباً من المعدن الخام مما يشير إلى أن عمال المناجم الأقدمين قد توقفوا عند هذا الحد في عملهم التنقيبي.

واكتشف كناب منجماً ثانياً على مسافة ٢,٥ ميلاً شرقي نهر أونتناغون، وهو حالياً مركز المنطقة النحاسية في ميتشيغان. كانت تقع هذه الحفرة العميقة في جدار صخري.

لقد بلغ التنقيب عمقاً يساوي ٢٦ قدماً، وتبين بأن هذه الحفرة كانت مليئة بالصلصال وبكتلة من النباتات المتداخلة والمتشابكة، وهذه دلالة على وجود منجم قديم جداً. وعلى عمق ١٨ قدماً اكتشف كناب كتلة منفصلة من النحاس وتزن ستة أطنان. وارتفعت هذه الكتلة على أعمدة خشبية وقطع على شكل إسفيني، بمقياس يبلغ خمسة أقدام، ويتراوح قياس قطر العامود الخشبي بين ٦ - ٨ إنشات، بينما يشير طرفه إلى وجود علامات لأداة قاطعة. وبدت الكتلة النحاسية مصقولة، وهناك قطع مجزأة. وقد تم ذلك لتسهيل عملية النقل. وتحتوي مثل هذه الحفرة المنجمية على كتل نحاسية أخرى وعلى الفحم الحجري وعلى بينة أخرى لوجود النار وعلى وجود مطرقة حجرية (مقراع) تزن ٣٦ رطلاً.

وفي الجزيرة الملكية قرب الشاطئ الشمالي للبحيرة العليا توجد تنقيبات بعيدة المدى وتعود إلى عهد ما قبل التاريخ، مع بعض المناجم التي يبلغ عمقها ستين قدماً. ولقد لاحظ الباحثون لدى مشاهدة منجم مفتوح بين مناجم الجزيرة بأن هذا المنجم قد تم استخدامه والتنقيب فيه على عمق يبلغ تسعة أقدام عبر صخرة صلبة، إزاء راسب معدني من النحاس تبلغ سماكته ١٨ إنشاً وقد تم اكتشافه في القاع. بالطبع كان عمال المناجم يتمتعون بذكاء رفيع ويتمتعون بخبرة تحديد موقع الرواسب المعدنية وبخبرة متابعة هذه الرواسب تحت الأرض، وذلك عندما يكون مجراها على السطح قد انقطع.

وهناك اكتشاف آخر أشد إثارة من الاكتشافات السابقة، أي من المناجم النحاسية الموجودة في ميتشيغان، ويرجع تاريخ هذا الاكتشاف إلى شهر شباط ١٩٥٤ ويُنسب عهده إلى العصر الفحمي الحجري.

خلال السنة الماضية، عثر عمال المناجم في منجم لايون كول في واتس (أيوتا) على نظام نفقي (أي خاص بممرات تحت الأرض)، ولم يعثروا هناك على أي تسجيل حديث. كانت هذه الممرات تحت الأرض قديمة جداً. بالفعل لقد بدت بقايا الفحم الحجري مؤكسدة إلى درجة قصوى بحيث لم تعد صالحة، كقيمة تجارية. وفي ١٣ آب / أغسطس ١٩٥٣ بدأ جون ويلسون (من دائرة الهندسة) وجيس (من دائرة الأنثروبولوجيا في جامعة إيوتا) في استكشاف مناجم الفحم الحجري التي تعود إلى عهد ما قبل التاريخ. لم

يعثرا فقط على أنفاق تحت الأرض ولكنهما اكتشفا حجرات من الفحم الحجري بحيث نقلت إلى هناك المواد قبل نقلها إلى سطح الأرض. ويتراوح ارتفاع الممرات تحت الأرض بين ٥ – ٦ أقدام وتمتد طولاً عدة مئات من الأقدام، وتتبعها طبقات من الفحم الحجري مماثلة للتخطيطات النموذجية المنجمية المعاصرة. وكان العالمان غير قادرين على اكتشاف المدخل السطحي لهذا النظام المنجمي القديم، لكنهما استطاعا تحديد ارتفاع هذا النفق بثمانية أقدام وتحديد العمق بـ ٨٥٠٠ قدماً، واستناداً إلى دراسة إحصائية لاحقة تبين بأنه لم تكن تستعمل هناك أيّة قبيلة هندية محلية الفحم الحجري. وشأن مناجم ميتشغان يبدو بأن الشعب الذي يخص عهد ما قبل التاريخ قد ملك تكنولوجيا استخدام المعادن الخام من المناجم. كذلك كان يملك وسائل نقل المواد إلى بعض الأماكن المجهولة.

- **تقنيات البناء الخاصة بإنسان العصر الحجري:**

إن عدم وجود المصنوعات اليدوية المعدنية القديمة، لا يعني بأن شعب العصر الحجري لم يستعمل المعادن كذلك. إن اكتشاف معظم بقايا إنسان الباليوليتيك في الكهوف تدل على وجود نمط وحيد من العيش بين رجال العصر الحجري. وتعتبر منطقة لو غراند بريسينيه le Grand-Pressigny في فرنسا المنطقة التي تملك أوفر عدداً والأكثر انتشاراً فيما يتعلق بالرسوبات الخاصة بالأدوات الحجرية. لقد تم العثور على الملايين من القضبان والأكوام من الأسقاط المختلفة التي تخص عصر الباليوتيك منتشرة على مساحة تبلغ ١٠ آلاف فداناً (ويساوي الفدان الانجليزي مساحة ٤٠٠٠متر مربع تقريباً) على عمق يتراوح بين ٣- ٦ أقدام، بيد أنه لا يوجد أي كهف في هذه المساحة. وفي منطقة شارو Charroux يوجد مركز آخر للأدوات ذو حجم كبير حيث يستطيع الإنسان حتى في يومنا هذا الحصول على فؤوس حجرية تنتمي إلى عهد ما قبل التاريخ، وقد انتشرت على مساحة تساوي ٢٥ فداناً. وعلى بعد ثلاثة أميال من موقع شارو، عند تلال نهر الشارونت، يوجد ٤٩ كهفاً. لكن التنقيبات قد أثبتت بأنه لا يوجد أي دليل بحيث يؤكد على أن هذه الكهوف كانت مسكناً للناس.

إن البيّنة التي تذهب إلى القول بأن سكان العصر الحجري كانوا يعيشون في منازل

مشيدة بشكل جيد إنما هي بيّنة زائفة وسطحية.

وظل الباحثون مرتبكين إزاء هذا الموضوع ولم يتوصلوا إلى تحديد نوعية الحياة وكيفية ازدهارها. في كهوف لاسكو Lascaus حيث توجد الرسومات الزيتية المجدلية، يستطيع الزائر رؤية ثقوب في الصخر، وهذه الثقوب تسند عارضات خشبية سقفية. ويبدو بأنها تشبه البنية التعميرية التي استعملها مايكل أنجلو بعد عدة آلاف من السنين. ويبدو أيضاً بأن هذه العوارض تحمل السقالة التي استعملها الفنانون في غرومانون Gro-magnon لتنفيذ أعمالهم على سقوف الكهف وعلى ارتفاع يتراوح بين ١٠-١٢ قدماً فوق أرض الكهف. وإن وجود هذه السقالة هو أمر مثير حقاً وهام، ذلك لأن البروفسور دوري تودوريسيو Doru Todericiu من جامعة بوخارست يعتقد بأن تاريخ الهندسة المعمارية يشير إلى أن السقالة لم تسبق زمنياً معرفة حرفة البناء. وإذا كان فنانو لاسكو يشيدون هذا النوع من السقالة، هذا يعني بأنه جاز أن يكونوا قادرين على تشييد الجدران أيضاً. ويضيف البروفسور تودوريسيو «عندما نفكر بذلك نكون قد فعلنا حسب الرأي التالي: لقد تم اختراع الشمعة قبل أن يعرف أي شخص كيف يوقد النار».

لقد تم اكتشاف نماذج عديدة من التعمير الحجري الذي يخص عهد ما قبل التاريخ، والتي تشير إلى درجة عالية من التحذلق والمهارة.

يناقش أبيه بروفي Abbe Breuil والبروفسور لانتييه Lantier في كتابهما «رجال عصر الحجر القديم» موضوع اكتشاف فرن في نُواي Noailles وينسب إلى عهد ما قبل التاريخ: «كان هذا الفرن مصنوعاً من أحجار مربعة ومثبتة في مكان بواسطة مواد الطين الطبشوري والرمل». وبكلمات أخرى، لقد تم تشييد فرن العصر الحجري باستعمال الأحجار التي تشبه الآجر وقد تم تطيينها بالإسمنت (اللياط) cement.

حتى في أوروبا الشرقية حيث لم يساهم السكان المبكرون في صنع الثقافة العالية للشعب المجدلي في فرنسا نجد هناك دلالات على وجود معرفة متميزة بالمهارة والخبرة في ميدان فن التعمير. لقد تم التنقيب حديثاً عن بقايا ثلاثة أكواخ، وهذه البقايا تخص تلك المرحلة المذكورة. وتم ذلك في فيستونيس عند المنحدرات السفلية في تلال بافلوف في

تشيكوسلوفاكيا. ويتراوح حجم الكوخ الأكبر بين ٣٠-٤٠ قدماً، وقد تم تغطية أرضه بجراشة من الحجر الكلسي وهو نمط خام من الإسمنت.

لقد تم تشييد الأكواخ الأصغر حجماً بنمط مماثل، مستعملين الجدران الدائرية المغطاة بالحجر الكلسي والطين. وتعتبر هذه الآثار الأقدم اكتشافاً بين سائر الجدران الأثرية الحقيقية التي ظلت باقية في العالم. ومما يثير الاهتمام بشأن موقع فيستونيس هو هذا التشييد الجيد لهذا الفرن المخصص للحرق والتيبيس والمعتمد على شكل كوّارة، والذي يحتوي على بقايا من الصلصال المقاوم للنار أو الحرارة البالغة.. لقد تم اكتشاف مثل هذا الفرن أو الأتون في أحد هذه الأكواخ، كذلك تم اكتشاف قطع لرؤوس منحوتة من الطين وترمز إلى رأس الثعلب وإلى دببن. هكذا يتبين لنا أن استخدام الصلصال المقاوم للنار لم يكن متجاوزاً للطاقة العقلية الخاصة بثقافة الباليوليتيك كما ساد الاعتقاد خطأً في السابق.

إن أهم ما يثير الدهشة والاضطراب والحيرة فعلاً هي هذه الاكتشافات المتعلقة بالتعمير الخاص بعهد ما قبل التاريخ وحضارته.في عام ١٩٦٥، بواسطة عالم الآثار دراغوسلاف سريجوفيك، وحصل ذلك في موقع يُعرف باسم ستارفيكو عند نهر الدانوب وعند الحدود اليوغوسلافية الرومانية. لقد جرى التنقيب في التنقيب في الضفة اليوغوسلافية، وهناك عثر سريجوفيك على آثار تنسب إلى طريق رومانية. وتم العثور تحت هذا الطريق على قطع من الخزفيات اليونانية، وكانت توجد بقربها بقايا عهد النيوليتيك وآثار من المصنوعات اليدوية الثقافية الخاصة بعصر الميزوليتيك.

وتعمق سريجوفيك في التنقيب إلى أن حصل على شيء لا ينتمي أصلاً إلى هذا المكان المألوف: لقد عثر على بقايا من أرض إسمنتية وكانت المواد عبارة عن خليط من الحجر الكلسي المحلي والرمل والماء. ويعتبر مثل هذا الخليط عملاً كيماوياً ومعمارياً بارعاً، وقد تم صنعه منذ عدة آلاف من السنين، قبل أوانه. لم توضع المساحات الإسمنتية بالصدفة، لكنها وضعت بعناية بشكل قطع عريضة مسطحة من الإسمنت وذلك لتشكيل أساسات المساكن. لقد تم تشييد عدة أساسات، وكل أساس متراكم على الآخر، مما يشير إلى أن هذه التعميرات قد تم تشييدها ثم تشييدها مرة أخرى خلال مرحلة غير محددة. بيد أنه يوجد

تماثل ملحوظ، وكان التخطيط النموذجي للمساكن في المراحل اللاحقة هو نفسه بالنسبة للمراحل السابقة. لم توجد بيّنة بخصوص التطوّر التدريجي من النمط البسيط إلى النمط المعقد. بالأحرى لقد بدت قرية ستارفيكو Starveco فجأة متميزة بالنضج الكامل، مزدهرة فعلاً، ثم أصابها التهدم والانحلال وأصبحت منعزلة في نفس حالتها المتقدمة.

بالإضافة إلى الأساسات تشير التعميرات في ستارفيكو الفردية إلى مرتبة عالية في فن الهندسة المعمارية. إنها تملك جميعاً جانباً واحداً أكثر اتساعاً حجماً، بالنسبة للجوانب الثلاث الأخرى، مع قياسات نسبية تساوي ٣: ١ أو ٤: ١. لقد كان تشكل الجانب الأكثر اتساعاً، يعادل ستين درجة بالنسبة لنطاق الدائرة. ودائماً يكون هذا الجانب الأكبر متجها نحو النهر، ولتأمين الرؤية المثالية لساكني البيت، بالنسبة لنهر الدانوب وللريف الجبلي ذي الروابي الكثيرة. وفي داخل كل مسكن، يتكرر النمط السكني عند فناء الموقد أو الفرن الذي تم تشييده بعناية بشكل قطع حجرية عريضة ويتم تحديد موقعه دائماً عند الطرف الشرقي من البيت أو الطرف الشمسي.

ولاحظ سريجوفيك بأن موقع فناء الموقد هام جداً، ذلك لأنه يقع عند المحور تماماً الخاص بالمثلث المتساوي الأضلاع وذلك عند امتداد خطوط البيت ويبدو الهدف الهندسي المعماري في هذا المجال غير واضح. ولكن تدخل المعرفة الخاصة بعلم الرياضيات والعلم الجيومتري واضح وملموس بحيث لا يمكن تجاهله. إن نفس هذه الدقة وهذا الترتيب الموجود في الهندسة المعمارية نجده أيضاً في طريقة تنظيم المساكن في موقع ستارفيكو. لقد امتدت التركيبات الهندسية استناداً إلى تخطيط منفرش كالمروحة ومنفتح نحو ضفة النهر. أما البنايات الأكبر حجماً، فقد كانت مخصصة للأفراد الذين ينتمون إلى طبقة اجتماعية أعلى أو إلى الهيئة الحاكمة، وكان موقعها متجهاً نحو المركز ومحاطاً بساحة عامة مبلطة. وفي اعتقاد سريجوفيك أنها كانت عبارة عن ساحة مكشوفة للبيع والشراء أو مكاناً خاصاً للاجتماع. كذلك يحتوي موقع ستارفيكو على عدد آخر من الميزات الثقافية. وقد ساد الاعتقاد سابقاً بأن هذه الخاصيات الثقافية قد نمت وتطورت بعد آلاف من السنين في الشرق الأوسط.

وراء فناء موقد كل بيت اكتشف العمال بقايا أماكن خاصة بمعبد لتقديم القرابين، وتمثل هذه البقايا معتقدات وممارسات دينية. فكان كل مكان للعبادة مؤلفاً من صخرة مسطحة وذلك لتقديم الضحية وحرقها. وتواجه هذه الصخرة صخرتين عاموديتين منتصبتين أو أكثر مصنوعتين من الحجر الرملي الأحمر. ولقد تم اكتشاف هذا الحجر الرملي في مَشْرَخ (اي عند نتوء ظاهر على سطح الأرض) في واد عميق طويل ويمتد عدة أميال. وهناك عدة أحجار تم نحتها بشكل خطوط متموجة وبشكل نافر، وينسب هذا النمط إلى أقدم النماذج في ميدان الهندسة الزخرفية المعمارية. وهناك اكتشاف آخر هام أيضاً، يتعلق بعشرين قطعة حجرية نحتية تمثل وجوهاً بشرية بالحجم الطبيعي. يتميز كل وجه بعينين جاحظتين وبفم فاغر وبأنف صغير، بينما تؤكد بعض التماثيل الأخرى على شكل الكتفين والذراعين والصدر. بهذا يعتبر النحاتون في ستارفيكو من أقدم الفنانين الذين اختصوا بالحجم الطبيعي وبالأعمال التشكيلية الحجرية اليدوية المعروفة في يومنا الحاضر.

يبين لنا مظهر الموقع هذا الحقيقة التالية: كان سكان ستارفيكو يتمتعون بصحة جيدة جداً. لم توجد بينهم حالات صحية شاذة ناتجة عن العظام المريضة أو المشوهة، وكانت النساء يتمتعن بالبنية القوية، وكان من الصعب التمييز بين بقايا الهيكل العظمي لهن والبقايا العظمية للرجال. كان الجنسان يعمران كثيراً، والبعض منهم قد بلغوا الثمانين. بالطبع مثل هذه المدة الحياتية تعتبر عالية بالنسبة لهؤلاء الأشخاص الذين سكنوا هذه المنطقة خلال العصر النيوليتيكي الأخير وخلال عهود اليونان والرومان حيث كان المعدل الأقصى للعمر خمسين سنة.

● الحياة الجماعية والتجارة:

من خلال الكهف والمساكن المشيدة أثناء العصر الحجري، بينة واضحة تشير إلى أن هؤلاء السكان كانوا يملكون مفاهيم خاصة بالتعاون الجماعي وبالاتصال المتبادل. في منطقة إيزي في منطقة الدوردون في فرنسا توجد عدة كهوف وملاجئ صخرية منظمة وملتفة حول بعضها كالعنقود، وكانت جميعها مأهولة في نفس الوقت. هذه دلالة على وجود تعاون مشترك بين ساكني الكهوف.

وقد بدأ هذا التعاون باكراً مع العهد الأوريغناسي عندما استوطن هذه المنطقة عدد قليل من الأفراد. وهناك عدد من المواقد التي تشير إلى تزايد السكان وذلك بحكم ازدياد عدد هذه المواقد وتشير أيضا إلى وجود متزايد من الوحدات الاجتماعية المعقدة. لقد تم اكتشاف مثل هذه الأنواع من الأدوات بحيث تشير إلى تخصص في العمل بصفة عامة وفي العمل المختص بالمواقع. لقد استخدم عدد من هذه المواقع بالصدفة، وكان اكتشاف الأدوات والعظام برهاناً على وجود قاسم مشترك بين الصيد في الربيع والتلهي في الصيف، وكانت هذه الأفكار مشتركة أيضاً بين موقع وآخر. عدة كهوف تملك الحفر الطويلة في الأرض، والتي تسيل منها المياه إلى الكهوف، وينتهي مطافها إلى خارج المأوى. وكانت جميعاً تلتزم تصميماً ملازماً وتعميراً مشابهاً. هذا يعني بأن الأفكار والمفاهيم كانت لزاماً مشتركة ومنتشرة عبر المساحة المأهولة كلها، وذلك استناداً إلى اكتشاف أشياء عديدة فيكهوف إيزي Les Eysies أمثال قطع غير متكاملة من أصداف البحر التي تشير إلى احتكاك مع المنطقة الساحلية التي تمتد مسافة مائة ميل.

وهناك دلائل أخرى تشير إلى أن رجال الكهف كانوا يملكون معرفة خاصة بالبحار، وكانوا يألفون السفر بحراً، وكما أشرنا إلى ذلك قبلاً. لقد ظهرت حضارة إنسان الكهف أولاًعلى طول السواحل الغربية من فرنسا وأسبانيا من جهة البحر. لقد عُثر في مونت غوديه على قطعة عظمية بشكل عصى وقد نقشت عليها أشكال تجسد تدفق نطفة الحوت للإلقاح مع فقمتين وبطريقة مفصلة جداً إلى درجة يمكن فيها تمييز الذكر من الأنثى. وتبعد منطقة مونت غوديه عن الساحل مسافة مائة ميل مما يشير إلى أن شخصاً ما كان يملك معرفة حول الحياة البحرية قد سجل ملاحظاته. ومثل هذا التسجيل قد انتقل إلى مسافة بعيدة عن مصدره الأساسي.

كذلك توجد في كهف نيرجا في منطقة مالاقا في جنوبي أسبانيا قرب سواحل البحر المتوسط وعلى جدار كهفي عميق لا يمكن الوصول إليه رسمة زيتية تمثل ثلاثة دلافين ذكران وأنثى. ويبدو بأن الرسام الذي خلق هذه الصورة يشبه الشخص الذي نحت الصورة المتعلقة بمني الحوت، أي لقد قام برحلة طويلة عبر هذا البحر الواسع وذلك

ليكون شاهداً على عمله وليسجل قصته.

يبدو أنهم قد سافروا بحراً، ولكن هل ابتعدوا كثيراً عن البحر في أسفارهم؟.

لقد تمّ اكتشاف البرهان على رحلاتهم البحرية في المناطق الساحلية عبر غربي البحر المتوسط في تونس وأشبيليا وإيطاليا ومراكش وجنوبي أسبانيا. بالأحرى لقد سافروا إلى أبعد من ذلك. إن الأدوات الأوريغنية وبقايا الهياكل العظمية التي تم اكتشافها في العالم الجديد تفيدنا بحقيقة هذا الأمر.

يشير البروفسور مايرز في مؤلفه «التاريخ القديم لكامبردج» (المجلد ١، ص ٤٨) إلى حالات التشابه البارزة للعيان القائمة بين جماجم أوريغناسيا التي اكتشفت في أوروبا والجماجم التي تعود لعصر ما قبل التاريخ والتي عثر عليها في لاقواسانتا Lagoa Santa وفي أماكن أخرى على طول ساحل شرقي أميركا الجنوبية. ويقول فاندرفير بأن أدوات حجر السَبَج التي تخصّ منطقة إنغور في جبال الأنديز قرب كيتو في الأكوادور إنما ترتبط حتماً بالتصميم الخاص بالأدوات التي تُنسب إلى سكان عصر الباليوليتيك الأعلى في فرنسا وأسبانيا.

كان رجل العصر الحجري يملك لزاماً معرفة هامة في الجغرافيا وفي الملاحة وذلك في سبيل الوصول إلى المناطق البعيدة للتعامل مع سكانها من الناحية التجارية.

● الخبرة والمهارة في الألبسة:

عندما يخطر في بال أي شخص رجل العصر الحجري يتصوّر عادة هذا الإنسان الذي يبدو له على حالته الطبيعية، فظاً وغير أنيق، يرتدي فقط جلد الحيوان، يشده حول خصره ويضعه على كتفه. هكذا ظل علماء الأنثروبولوجيا لعدة عقود من السنين ينظرون إلى رجل عصر ما قبل التاريخ بهذا المنظار. غير أنه تم اكتشاف في كهف قرب لوساك لو شاتو عام ١٩٣٧ بواسطة ليون بيريكارو Leon Pericaro وستيفان لووف Stephane Lwoff عدداً من الأحجار المنحوتة التي يعود تأريخها إلى العصر المجدلي. وتشير الأحجار المسطحة إلى رجال ونساء في أوضاع عرضية يرتدون الرداء والجزمة والحزام

والمعطف والقبعة. وهناك منحوتة تبين الجهة الجانبية لامرأة شابة، تبدو جالسة وتراقب شيئاً ما. ترتدي بذلة كاملة مع سترة ذات كمين قصيرين وجزمة وقبعة مزخرفة، وتنسدل القبعة بثقل فوق أذنها اليمنى لتلامس كتفها. أما الغرض الذي يبدو عند الجهة اليمنى تحت خصرها، فهو يشبه محفظة النقود العصرية. وهناك نماذج أخرى تظهر الرجال وهم يرتدون الطقم الجيد مع البنطال والمعطف بالإضافة إلى الحزام مع المشبك، ويبدون ملتحين وأصحاب شوارب مختزلة.



رسم فني للوحة محفورة وجدت في كهف قرب لوتاكليه – شاتو في فرنسا يرينا رسمًا لآنسة صغيرة تبدو مرتدية ملابسًا حديثة الطراز تشمل قبعة وتحمل حقيبة، يعود زمنها إلى الفترة المجدلينية من العصر الحجري (الباليوليت).

إن نقوشات منطقة لوساك تناقض كل شيء يتعلق بالمعتقد الخاص بالعهد الكلاسيكي لما قبل التأريخ. وبسرعة اعتبر علماء الأنثروبولوجيا هذه الرسومات ضرباً

من الخدعة والاحتيال. ولكن رغم هذه الأحكام المتسرعة صنفت هذه الصور الموجودة في مكانها غير المتوقع، عام ١٩٣٩، عندما بيّن إيبه بروي البراهين والأدلة بأن هؤلاء الأفراد الذين يرتدون الألبسة الجيدة كانوا يعيشون فعلاً في المرحلة المجدلية التي تخص عصر الباليوليتيك الأعلى. حالياً توجد معظم المنحوتات الحجرية في المكتبة المختصة بعصر ما قبل التاريخ في منطقة لو ساك لو شاتو وهناك عدد قليل من هذه المنحوتات معروض حالياً في متحف الإنسان في باريس، لكن الرسومات التي تعرض في الوقت الحاضر لا تبين الكثير مما ذهبنا إليه، ولا تتناقض كثيرا مع النظريات المتعارفة. لقد وضعت البقية جانباً ولا يستطيع مشاهدتها سوى بعثة خاصة والأفراد الذين يتمتعون بأوراق الاعتماد. ويسود الاعتقاد بأن هذه الصور سوف تسبب الإزعاج للرأي العام.

إن أنماط لوساك Lussac هي حتماً البيّنة الوحيدة التي تؤكد على مهارة وفن الألبسة في العصر الحجري. إن الرسومات الزيتية الكهفية التي تخص عهد ما قبل التاريخ التي تنسب إلى صحراء كالاهاري وإفريقيا الجنوبية الغربية إنما يعود تاريخها إلى مرحلة العصر الحجري، وتمثل هذه الرسومات رجالاً يتميزون بالبشرة الفاتحة اللون، ولهم لحية شقراء، والشعر مرتب استناداً إلى قصّة شعر محددة، ويلبسون الجزمات، أما البنطال فهو مزموم والقميص متعدد اللون بالإضافة إلى المعطف والقفازين. وفي مكان بعيد نحو الشمال تم اكتشاف بقايا إنسان باليوليتيك قرب مدينة موسكو، وتم ذلك بفضل البروفسور أوتو بدر Otto Bader من المؤسسة الإتنوغرافية التابعة لأكاديمية العلوم السوفييتية. كان إنسان فلاديمير شخصاً يخص عصر ما قبل التاريخ، يمارس صيد الأيل الأهلي والفيل الحفري (الماموث) وتشير بقايا ثيابه إلى أنه كان يرتدي الثياب الأنيقة. كان يلبس بنطالاً مصنوعاً من الفرو وقميصاً مزركشاً وسترة عملية جداً. لا توجد حالياً بقايا من هذا الثوب المذكور، ولكن يمكن تجميع أقسامه من خلال الرموز العاجية ومشابك الأحزمة التي ما تزال على حالتها.

- **الفن البدائي السابق جداً لأوانه:**

بلا شك، إن المظهر الأكثر عالمية وأهمية هو المظهر الخاص بحضارة العصر الحجري

من زاوية العمل الفني الذي وصل إلينا بأشكاله المتنوعة، يدخل الروعة في النفس وذلك نظراً للصور الزيتية المبرقشة الألوان التي تم اكتشافها في كهوف لاسكو والتيميرا وسواها من الكهوف في جنوبي فرنسا وشمال أسبانيا. لقد ظهر فن باليوليتيك أولاً مع قدوم فن كرومانيون خلال المرحلة الأوريغنسية، وأصبح أكثر بروزاً وأكثر انتشاراً في منطقة غرافيتيان. لقد تم اكتشاف التماثيل الصغيرة الأنثوية والتي تعرف باسم تماثيل فينوس، وهي منحوتات صغيرة بشكل دمى، القادمة من فرنسا وأوروبا وآسيا، كذلك من مكان بعيد جداً من سيبيريا. وانتشر هذا الفن في عصر النهضة بشكل مميز وتوزع إلى سلسلة من الأنماط، وانتشر كذلك في بلاد جنوب بحر قزوين.

إن فن كهف المجدل وطريقة خلق هذا الفن، تجسدان مدى المهارة التي تمتعت بها ثقافة هذا الشعب. فكان الرسم التخطيطي للحيوان أو لأي موضوع آخر هو الخطوة الأولى في تنفيذ الرسم الكهفي. وكان ذلك يتم إما بواسطة فحم الحطب أو بواسطة النقش بحجر الصوان. وكانت تعقب ذلك مرحلة تطبيق اللون، وكانت تنفذ هذه المرحلة بطرائق متنوعة: بواسطة الأصابع، أو فرشاة من الفراء، أو بواسطة الريش أو الأغصان الصغيرة المبقعة، أو بواسطة كفاشة خاصة للرسم (نبات شبيه بالطحلب) أو بواسطة نفخ الألوان الجافة عبر القصبة أو عبر أنبوب عظمي أو عن طريق فرك الألوان بعد مزجها بشحم الحيوان ثم تحويلها إلى أقلام للرسم. لقد تم اكتشاف عدد من هذه الأقلام في ألتميرا Altamira.

لقد كانت ألوان رجل الكهف الميسورة بين يديه محدودة. لم يستعمل الألوان الزرقاء أو الخضراء، لكنه استعمل اللون البنفسجي الأسود الإفرازي الذي كان يصنعه بواسطة حمض المنغنيز. وقد أشار التحليل الكيماوي بأنه استخدم في أغلب الأحيان الألوان التالية: الأصفر (من المغرة أي التراب الصلصالي، مثلاً أوكسيد الحديد) – الأحمر والبرتقالي (من أوكسيد الحديد ودم الجاموس البري) – والأسمر والأسود (من شحم الحيوان وفحم الحطب).

لقد أنجز الفنانون التأثير الناتج عن الأبعاد الثلاثة بشكل مدهش، وذلك عن طريق



استخدام الشكل العام الطبيعي للصخرة على جدران الكهف والسقوف. الثقبان الصغيران عينان شاخصتان للجاموس البري وبدت الشقوق الصخرية جروح الظبي المصاب، كذلك النتوءات الغريبة التكوين بدت وكأنها تجسد صورة الرأس أو الظهر لوحيد القرن المتوحش أو حيوان الماموث. حتى في يومنا الحاضر عندما ينظر أحدنا إلى هذه الأشكال الكهفية يبدو له من خلال هذا التناقض القائم بين الضوء والظل الناتج عن شكل الصخرة الطبيعي أن هذه الحيوانات المرسومة حية وتتنفس. إنها تقنية فريدة من نوعها في تأريخ الفن نظراً لهذا التأثير الانطباعي المؤثر.

لقد تبين من خلال تحليل دقيق لهذه الرسومات الكهفية بأن الرسم التخطيطي والتطبيق اللوني قد تم تنفيذهما بجرأة وبلمسات فنية واثقة دون ارتكاب أخطاء ظاهرة أو دون الحاجة إلى تصحيح، مما يؤكد بأن تنفيذ هذا الفن كان مرتبطاً بمعلمين مهرة، وقد اكتسبوا الثقة بالنفس والدقة في العمل بعد ممارسة دامت سنوات عديدة في التدرب والاختبار. لقد تم اكتشاف ١٣٧ قطعة من الأحجار العريضة في ليموي في جنوب غربي فرنسا، وتمثل رسومات تخطيطية ضعيفة ويرجع تأريخها إلى عصر الباليوليتيك. بيد أنه يظهر وسط كل رسم تخطيطي تفصيلات مرسومة من جديد، وقد تم تصحيحها بواسطة شخص آخر. طبعاً كان هذا الشخص فنياً، يتمتع بنضج أوفر.

وتشير الرسومات جميعها إلى يد الأستاذ المعلم التي ساهمت في تنفيذ عمل التلميذ: إنه المعلم الذي يدرب عين الفنان الناشئ في ميدان الملاحظة البصرية. يبدو الآن بأن ليموي **Limeuil** كانت مدرسة للفنانين لا يقتصر عملها على الرسامين التخطيطيين بل على الفنانين في الرسم الزيتي أيضاً. وفي الكهف الصغير المجاور ما يزال يوجد أنبوب عظمي مليء باللون الزيتي ومستعد كي ينفخ على جدار كهفي، وقد تم اكتشافه. كذلك تم اكتشاف باليت حجرية (لوحة ألوان الرسام) وما يزال اللون الترابي الصلصالي موجوداً عليها منتظراً استعمال الفرشاة.

لم ينقل هذا الفن بواسطة التعليم فقط، ولكن كانت الأفكار الفنية تنتقل من مكان لآخر، وأحياناً تجتاز مسافات بعيدة. في عام ١٩٠٣م وجدت صورة جدارية لجاموس

بري قديم وقد تم تنفيذها بشكل مميز. عثر عليها في كهف في منطقة دوردونيو في فرنسا. وبعد ٢٣ سنة عثر على حجر أوردواز في كهف آخر يبعد عن الأول ١٨٨ ميلاً، ويشير إلى رسم تخطيطي منقول من رسمة الجاموس البري. هذا يعني بأن شخصاً ما أعجب برسمة دوردوني فحصل على الرسم التخطيطي الأصلي من الفنان وحملها معه إلى بيته كذكرى، وربما استخدمها نموذجاً في عمله.

يقول روبرت سيلفربرغ R. Silverberg المختص بعهد ما قبل التاريخ واصفاً مهارة فن الباليوليتيك (أي الخاص بالعهد الأول من العصر الحجري): «تبدو الرسومات الكهفية مكدرة للخاطر بالنسبة لهؤلاء الأشخاص الذين يعتبرون رجل الدهر الرابع Quaternary man مخلوقاً تافهاً وليس سوى قرد» (الدهر الرابع هو أحدث الدهور في تاريخ الأرض).

ولا تشير هذه الرسومات إلى مهارة حرفية عظيمة وحسب، لكنها تشير أيضاً إلى مجموعة كاملة من الاستنتاجات كان الرجل البدائي يملك مجتمعاً منظماً مع الاستقرار والترتيب المحدد بالإضافة إلى الديانة والفن. كذلك يجدر التذكير بأن السكان الأولين في أوروبا الغربية قد بلغوا درجات عالية من الانجاز الفني بحيث لم يتوصل أحد إلى بلوغها قبل حلول العصر النصراني مما يبطل النظرية التي تقول بأن الإنسان الذي انبثق من البربرية كان ثابتاً لا يتحول وكان يلتزم خطاً صاعداً بشكل دائم.

يقول وليم ألبرايت في مؤلفه «من العصر الحجري حتى المسيحية»، وهو يجمل القول حول الفن الباليوليتيكي: «رغم أن عدد الأنماط والتقنيات والوسائل المتوفرة للفنان اليوم هي بالطبع أوفر بكثير من السابق، ولكن الأمر يبدو مريبًا فيما يتعلق بإمكانية الفنان الحالي. هل هي فعلاً أرفع مستوى من الإمكانيات التي كان يتمتع بها الفنان قديماً في أزمنة ما قبل التأريخ».

- **نماذج في علم الرياضيات وعلم الفلك (ما قبل التاريخ):**

لا نجد بين الرسومات الكهفية والمنحوتات الحجرية والعظمية المتنوعة التجسيد

الواقعي للطبيعة وللحياة اليومية وحسب، ولكننا نجد أيضاً العدد الوافر من الرموز التجريدية التي تُدعى الأنماط النشوئية (التي تنطوي على التعوّج والاستدارة)، والأنماط الدبوسية الشكل، وشعارات الأنساب، والظاهرة الفكية، ونشأة أوجه القمر (وهي الهلال والتربيع الأول والبدر والتربيع الأخير – المترجم).

إن النماذج الأكثر استغراباً هي النماذج المرتبطة بالترقيم الخاص بعهد ما قبل التاريخ، حيث تم العثور على ناتئة الفيل الحفري (في غونتزي Gontzi) في موقع باليوليتيكي (في العهد الأول من العصر الحجري) في غربي مدينة كييف في أوكرانيا. يظهر الترقيم حول حروف مساحة مسطحة وقد وضعت عليها علامات مدرّجة تشبه التقسيمات المرتكزة على مسطرة حديثة أو على مسطرة مزلاجية (أداة مسطرية عليها علامات لوغارتمية وفي وسطها قطعة تنزلج يميناً وشمالاً – المترجم). وتجتمع العلامات المميزة وفق خط أفقي مقسّم إلى مجموعات بواسطة شطحات توضع على مسافات محددة، أحياناً يمكن التعرف عليها وأحياناً لا يمكن فعل ذلك. بلا شك، كانت مهمة الرموز نقل الأفكار. هكذا جاز اعتبارها نمطاً من العصر الحجري الخاص بالكتابة بالصور الرمزية Pictograph writing. بكل بساطة تتكون هذه الرموز التجريدية من مجموعة من الخطوط والخموش أو النقاط، استناداً إلى نماذج مرسومة بدقة.

في البداية اعتبر كثيرون من المختصين بعهد ما قبل التأريخ هذه المجموعة ضرباً من أنماط زخرفية غير متقنة الصنع (على حالتها الطبيعية)، لكنها أصبحت اليوم معروفة، إذ أنها ترقيمية الطابع (وضع إشارات أو رموز اصطلاحية) مرتبطة بعلم الرياضيات ارتباطاً وثيقاً وفي غاية من الدقة، وتعتمد أنماطًا أخرى على طبيعة الترتيب الزمني مسجلة بهذه الطريقة. يوجد أيضاً عدد من الرموز أو الأشكال التي تظهر في اتجاه التعاقب مشيرة إلى حدث ما عند إحدى هذه المسافات المتتالية الفاصلة.

لقد حلل الباحث الأميركي ألكسندر مارشاك ترقيم غونتزي، وأيقن بأنه تسجيل مفصّل لأوجه القمر. أكثر من ذلك يشير الترقيم إلى كيفية استخدامه كآلة حاسبة. بهذا جاز التنبؤ بحدوث أوجه القمر. هكذا، إن عظمة غونتزي هي أداة علمية ذات مستوى

رفيع، مؤكدة بأن إنسان الباليوليتيك ليس فقط عالم رياضيات ومراقباً فلكياً، فهو أيضاً العالم الذي يطبق عملياً ما يلاحظه، والذي يخلق صيغة صالحة للعمل، هذه الصيغة التي تعكس تكرار ما شاهده وقاسه ذات مساء في السماء.

● **بيّنة الاتصال بحضارات أكثر تطوّراً – التقويم القمري العالمي:**

إن استخدام التقويم القمري المرتبط بحضارة العصر الحجري هو أمر بالغ الأهمية، ليس فقط من الناحية العلمية، ولكن كبرهنة على وجود اتصال قائم بين شعوب العصر الحجري وشعوب الحضارات القديمة المعروفة. لقد تبين من خلال أبحاث أركيولوجية حديثة، بأن كل واحدة تقريباً من الثقافات القديمة الخاصة بالشرق الأوسط وبالعالم الجديد، تملك عند مراحلها المتطورة المبكرة نظاماً أوّلياً في التقويم القمري.

كتب البروفسور ريتشارد أ. باركر Richard A. Parker في الصحيفة حول مصادر التقويم التي استخدمها **البلاط المصري**: «في بداية المرحلة الخاصة بالسلالة الحاكمة، تم استعمال النظام الشمسي والنجمي المرتكز على البزوغ الواقع في آن واحد للشمس وللنجم سيريوس (نجم الشعرى اليمانية) مرة واحدة في السنة». يفسر باركر ذلك بقوله: «وفقاً إلى رمزية عهد السلالة الحاكمة المبكرة والى تقاليدها الطقوسية أمكن وجود تقويم تقليدي أكثر قدماً، وكان ذا طابع قمري، ويرجع تأريخه إلى أزمنة ما قبل عهد السلالة الحاكمة وإلى البدايات المبكرة جداً للتأريخ المصري».

في بلاد العراق كانت التقويمات الأولى للدول المدنية السومرية قمرية أيضاً. يبدأ الشهر السومري متى أصبح القمر هلاليَّ الشكل، وتتنوع مدد الشهور تمشياً مع المرحلة القمرية، أي ٢٩ أو ٣٠ يوماً. ويوجد الانقطاع نفسه في سجلات العصر الحجري. كذلك كان التقويم القمري النظام التقويمي الأول لدى الشعب الهندوسي والصيني أيضاً. وفي الأمريكتين كان المستوطنون الأولون الأمريديون في القارتين معاً (الشمالية والجنوبية) يملكون تقويمات قمرية. مثلاً، كان شعب الإنكا يملك تقويماً شمسياً رسمياً ولكن كانت تقسيمات السنة تعتمد على ١٢ شهراً وتشير تلميحاً إلى التقليد المبكر الخاص بالتعداد القمري.

ويذهب المؤرخون إلى القول بأن وجود التأريخ القمري في العصر الحجري وكذلك لدى الحضارات الأولى يشير إلى مثل هذا التعاقب. هذا يعني بأن التعداد القمري قد تطور أولاً في العصر الحجري ثم انتقل تدريجياً عبر عشرات الآلاف من السنين حتى أدرك الثقافات المتمدنة الأولى. لكن المخطوطات التاريخية المقدسة تفيدنا بأن شعوب العصر الحجري وشعوب الحضارات القديمة قد ورثت بصورة مباشرة نظام التقويم القمري من حضارة أقدم منهما معاً.

في سفر التكوين ٧: ٨ نجد سجلاً ليوميات نوح حول الطوفان. إن أيام الأشهر وأطوال الزمن المتعلقة بنوح تعطي لمدة الأحداث مغزى محدوداً بحد ذاتها، ولكن عندما توضع هذه الحسابات ضمن إطار التقويم العبري الحالي !! نصبح قادرين على التفرد بمعطيات استدلالية مثيرة.

أولاً إن عشرة من تواريخ نوح المدونة تقع ضمن روزنامة السبت العبري (يوم السبت). ولا يمكن أن يكون مثل هذا الأمر عرضياً، ذلك أنه من المؤكد بأن المعلومات الاستدلالية كانت مرتكزة فعلاً على النظام التقويمي المماثل للتقويم العبري ! وظل هذا النظام فعلاً لا يتغير نسبياً من حيث البنية القاعدية لمدة ألف سنة. لزم أن يكون نوح قد وجد انسجاماً لذاته مع هذه الحركة الشمسية الظاهرة المتعقدة، ذلك لأنه دوَّن في يومياته مرور السنة الشمسية التي تعادل ٣٦٥ يوماً. لكن الأمر الأكثر إثارة هو كون التقويم العبري شأن التقويم الذي يستخدمه نوح مرتكزاً أصلاً على الحسبة القمرية التي تعادل ٣٥٤ يوماً، مما يجعلنا نعتقد بأن التقويم القمري له مصادره الحقيقية عند المرحلة الخاصة بعهد ما قبل الطوفان.

وفقاً لتدوين نوح، نعرف بأن هذا النظام كان مستخدماً مباشرة بعد الطوفان. وبلا شك لقد انتقل هذا الاستعمال إلى أبناء ذريته. ونتيجة للخيبة المخزية التي أصابت مدينة بابل ظل بعض أبناء هذه الذرية يتمتعون بحضارة رفيعة بينما فقد الآخرون ثقافتهم، لكن التقويم القمري كان ما زال محفوظاً بين الرجال البدائيين الذين ينتمون إلى عهد ما قبل التاريخ وحضارات ما بعد برج بابل.

● **الأحرف الأبجدية والمذكرات القديمة الموجودة في غير مكانها المألوف:**

جاز القول بأن البرهنة الأكثر أهمية بالنسبة للاتصالات القائمة بين ثقافة العصر الحجري وحضارات البحر المتوسط هي اكتشاف الكتابة الأثرية في غير مكانها المألوف بين البقايا الأثرية لعصر الباليوليتيك.

لقد تم العثور على عظمة للأيل الأهلي (الرنة) في كهف قرب روشبيرتيه في فرنسا. وتحتوي هذه العظمة على علامات تتجاوز حدود العمل الزخرفي، يبدو بأنها علامات تخص أحرف نمط كتابي محدد. للوهلة الأولى يعتقد المرء بأن هذه العلامات تمثل وجود لغة محكية خلال عصر الباليوليتيك. لكن تدخل عظمة الرنة يجعلنا نذهب إلى أبعد من ذلك. تشبه هذه الأحرف أو في بعض الحالات تماثل تماماً المخطوطة الملغزة تارتيسوس Tartessos وهي مدينة حضارة وجدت جنوبي أسبانيا، ويعتقد بأنها كانت مدينة ترشيش التوراتية. ومما يجعل تشابه هذه الكلمات مثيراً فعلاً هو الأمر التالي: يضع المؤرخون التقليديون المختصون بعهد ما قبل التاريخ عظمة الرنة ضمن مرحلة المجدلية، واستناداً إلى ترتيبهم الزمني يكون البعد الزمني معادلاً لحوالي ١٢٠٠٠سنة، وقد تم حديثاً تحديد الحضارة التارسيسية ضمن المرحلة القائمة بين ٢٥٠٠-٢٠٠٠ق.م. يوجد تباين واضح بخصوص هذا التأريخ، لأنه لا يبدو معقولاً بأن مثل تلك المخطوطة قد تطورت فعلاً وباتت على حالتها ولم تتغير إطلاقاً لزمن يعادل ١٠٠٠٠سنة. وتشير المخطوطتان أصلاً إلى أن الثقافات التي وجدت فيهما، هي ثقافات متزامنة، بدلاً من القول بأنها منفصلة بواسطة فراغ واسع من الزمن. وأصبح تاريخ ذروة حضارة تارتيسوس مترسخاً بصورة أفضل، وإذا حصل فعلاً احتكاك بين شعب الباليوليتيك وحضارة تارتيسوس يعني بأن هذين الشعبين قد وُجدا فعلاً في مرحلة واحدة.

وهناك مكتشفات أخرى تؤكد ذلك. إن عظام قرن الأيل الباليوليتيكي التي اكتشفت في لو ما دازيل في منطقة لو مادولين إنها تحتوي على شارات مماثلة لشارات المخطوطة الفينيقية التي يعود تأريخها إلى ألفي سنة قبل الميلاد. ومنطقة لو ما دازيل هي الموقع نفسه حيث تم اكتشاف الكثير من الحصى الصغيرة المكسوة بالصور الزيتية ويعود

تاريخها إلى المرحلة الأزيلية في العهد الميزوليتي. وتوجد على عدد من هذه الحصى إشارات ورموز، التي كان استخدامها منتشراً في منطقة البحر المتوسط ٣٠٠٠-٢٠٠٠ق.م.

توجد كذلك عدة حكايات متعلقة بوجود الرجال البدائيين الأحياء واتصالهم برجال متحضرين أيام زمانهم، استناداً إلى السجلات وأدب الحضارات القديمة. ويعتبر المؤرخون أن ملحمة جلجامش تنتمي إلى أقدم المعتقدات والعادات العرفية في التاريخ ومصدرها العراق، وتتحدث الملحمة عن قصة البطل جلجامش ومغامراته العديدة في العالم مباشرة بعد برج بابل !! وقد صاحبه في تجاربه العديدة، رفيق يدعى إنكيدو منذ نعومة أظفاره يعيش كالحيوان بين سائر الحيوانات. كان شعره طويلاً، وكانت أظافره وأسنانه قد نمت وتطورت لتجميع الأعشاب وأكلها ولم يكن يتمتع بحديث ذكي، تماماً كما كانت أحوال الأشخاص الذين عاشوا في عهد ما قبل التاريخ، الذين عرفوا بالانحطاط وفساد الحال. لقد عثر عليه ذات يوم بعض الأشخاص المتمدنين وأخذوه معهم أسيرا ولقنوه فنون حياة المدينة. ويجدر التذكير بأن خلفية إنكيدو لم تكن غير عادية. يبدو أن حياته البدائية إنما هي مرتبطة بالحدث اليومي، وساد الاعتقاد بأن أشخاصاً آخرين قد عاشوا في مثل ذلك الوقت في ظروف معيشية مماثلة. إن دور إنكيدو الوحيد في القصة هو كونه الإنسان النادر وجوده والذي ينتمي إلى هذه الأقلية من الرجال المتوحشين، الذين تكيفوا تماماً مع الحضارة السومرية عن طريق الائتلاف مع هذه الحضارة وحسن التوافق.

في الهند توجد قصة ملحمية أخرى وتدعى رامايانا، وتصف الجنس البشري الذي ساعد راما النبيل في حربه ضد مملكة رافانا في سيلان برجال القرد. بالإضافة إلى رامايانا ذكر وصف هذا الجنس في ماهابهاراتا أيضاً. لكن كليهما يعتبران هذا القرد قادراً على النكتة ويملك لغة ذكية ويتميز بشجاعة فائقة. وكان هذا القرد مشهوراً بمعرفته المتعلقة بالتلال والغابات (جغرافية) وبمعالجاته بواسطة النباتات النادرة (الطب الشعبي).

أما في الهند الحاضرة فيُعتبر هذا القرد شاعراً ينظم الأبيات الشعرية وينقشها على الصخرة. علماً بأن الأسطورة تنطوي على ذكرى الكائنات البشرية المتخلفة التي عملت في

المجال الصخري. كذلك هناك أمر هام، يجدر ذكره في هذا المجال، هو كون هانومان الذي يُعتبر حالياً إلهاً يعبده الملايين من الهندوس العابدين الذين يعيشون جنوبي شرقي الهند، أي تحديداً في المناطق التي هي أغنى المواقع بخصوص بقايا الباليوليتيك.

وهناك فكرة مثيرة فعلاً، وهي: يوجد عدد وفير من الهندوسيين الذين يعتقدون بأن البيتي Yety وهم رجال الثلج المخيفون الملغزون الذين أقاموا في مرتفعات جبال الهملايا الشاهقة، ينحدرون من ذرية هانومان ومن الشعب الذي يشبه القرد، لكنه شعب ذكي.

كذلك الصينيون القدامى، وصفوا الجنس البشري المتعلق بالرجال البدائيين الذين تعايشوا مع حضاراتهم الخاصة، لكنهم لم يصفوهم كأصدقاء لهم. ويسمُّون الأشخاص المتخلفين ماو – تسه Mao-Tse وفقاً للأطروحة الصينية شو – كينغ (القسم ٤، الفصل ٢٧، ص ٢٩١). وقد تم وصفهم بالشكل التالي: «جنس قديم ومنحرف وفد منذ زمن قديم. انعزل منذ قديم في العيش داخل الكهوف الصخرية، وما زال يوجد من ذريتهم في جوار كانتون». ويجدر التذكير بأن الأسنان العملاقة التي تخصّ جيغانثروبوس Giganthropus تم اكتشافها في هونغ – كونغ، على مسافة عدة أميال من كانتون. وتحدثنا أطروحة شو – كينغ عن ماو – تسه، قائلة «لقد أزعج الأرض وسبَّب لها الاضطراب، بحيث أصبحت ممتلئة بحوادث السلب والاغتصاب». أما الحاكم هوانغ – تي، وهو امبراطور السلالة الحاكمة الصينية الإلهية، فقد اعتبر مثل هذه الشعوب بلا فضيلة وأمر القائدين تشانغ و لهي Lhy بإبادتهم عن بكرة أبيهم. ربما هذه هي المجزرة الجماعية (أي الناتجة عن تدبير منظم لاستئصال شعب بكامله) التي سببت الاختفاء الفجائي لشعب سيننتروبيس وشعب جيغانتروبيس من السجل الصيني الباليونتولوجي.

يوجد وصف مماثل بشكل مثير لهذا الجنس البشري المتعلق بالرجال البدائيين في الكتاب المقدس وفي سفر النبي أيوب. بهذا كان شيخ القبيلة في عهد بعد الطوفان يصف هذا الشعب بالمتوحش وكان يرفض مشاركته في العيش. وقد وصف هؤلاء الرجال المتوحشين أنهم يعيشون في عزلة وفي جو متوحش، يأكلون الأعشاب وأوراق الشجر

وغالباً ما كانوا يلجأون إلى سرقة الطعام. كانوا مثل رجال ماو – تسه يقترفون السرقات والسلب والاغتصاب. وكان المتوحشون يقيمون بين الصخور وفوق الجرف الصخري، وكانوا يرسلون الشهيق أو النهيق مثل الحيوانات، وكان حديثهم مجرداً من الذكاء. لقد لعنهم النبي أيوب جميعاً واعتبرهم بلوى في الأرض، وقال عنهم أيضاً «الأولاد المغفلون». ويعتقد كثيرون من المعلقين بأن أيوب هو «جوباب Jobab » وهو الابن الثالث عشر ليقطان الذي مرَّ ذكره في سفر التكوين ١٠ (الخاص بسلسلة النسب). إذا كان هذا التثبت صحيحاً معناه أنَّ (أيوبَ) هو من ذرية نوح التي تنتمي إلى الجيل السادس ! وقد عاش حوالي عام ٢٦٩٨-٢٣٤٨ق.م. بهذه الطريقة يعتبر وجوده، كذلك وجود الشعب المتوحشمرتبطاً بمرحلة ما بعد برج بابل مباشرة !.

- **عناصر التكنولوجيا الدقيقة المعقدة من خلال ثقافات العصر الحجري:**

بالإضافة إلى الدلائل التي تؤكد على وجود احتكاك بين ثقافات العصر الحجري والحضارات القديمة المعروفة، هناك أيضاً أمثلة حسية بحيث تشير إلى النقطة التالية: كانت الشعوب البدائية (ما قبل التأريخ) تقيم اتصالات مع حضارات أخرى مجهولة، وذات مستوى حضاري متطور، وكانت تستفيد من معرفة مثل هذه الحضارات. وهناك عدد من الاكتشافات التي تشير إلى تنفيذ عمل جراحي دقيق ومعقد في أزمنة ما قبل التأريخ.

لقد فحص البروفسور جاغاريان Jagharian وهو أنتروبولوجي ومدير في مشفى العمليات الجراحية في المؤسسة الطبية يريفان في أرمينيا عدداً من الجماجم. وقد عثر عليها في الموقع القديم من اشتيكونو قرب بحيرة سيفان. وكان هذا الموقع مأهولاً بشعب ما قبل التأريخ ويدعى الحوريون، والذي سكن هناك قبل عام ٢٠٠٠ق.م.

تشير جمجمتان وقد فحصهما جاغاريان إلى وجود مهارة فائقة مختصة بالعمليات الجراحية للرأس. الجمجمة الأولى تخص امرأة، وقد ماتت وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها، ولقد عانت في شبابها من إصابة في رأسها التي سببت لها ثقباً يعادل ربع إنش في الجمجمة. بالطبع، إن مثل هذا الحادث عرّض نسيج االدماغ للخطر، وقد فقدت لزاماً

كمية كبيرة من الدم. وقد استطاع الطبيب الجراح البدائي (ما قبل التاريخ) إدخال سدادة لعظمة حيوان بمهارة، واستطاعت المرأة أن تظل حية بعد هذه العملية الجراحية الدقيقة. يمكن مشاهدة ذلك من خلال جمجمة المرأة، ذلك لأن عظمة جمجمتها قد نمت حول السدادة قبل أن تموت بعد سنوات لاحقة.

وهناك جمجمة تخص الشعب الحوري، وتشير إلى وجود عملية جراحية أكثر تعقيداً، وتخص الجمجمة امرأة أخرى، وكانت في الأربعين من عمرها عندما فارقت الحياة. لقد تلقت هذه المرأة ضربة على رأسها بواسطة غرض أقضم (كليل الحد)، ويبلغ قطره إنشاً واحداً، واستطاع أن يسبب ثقباً في الجمجمة، وجعل الطبقات الداخلية من عظمة الجمجمة تنشق على هيئة شظايا. استطاع الطبيب الجراح الذي كان يعيش في عهد يعود تاريخه إلى ٤٠٠٠ سنة مضت، أن يثقب بدقة حفرة أعرض حول الثقب الأول، لإخراج الشظايا التي اخترقت الدماغ. حتى في يومنا هذا تعتبر مثل هذه العملية صعبة للغاية. مع ذلك كانت العملية البدائية ناجحة. وتشير البيّنة الحسيّة بان هذه المرأةظلت حية بعد هذه العملية لمدة ١٥ سنة.

يقول البرفسور جاغاريان معلقاً بعد فحص الجمجمتين والأدوات الجراحية التي عثر عليها في الموقع الأرمني «لقد عثرنا على شفرات من حجر السَبَج في بحيرة سيفان وما تزال حادة جداً إلى درجة أنه يمكن استخدامها في يومنا الحاضر. ويعود تأريخها إلى ٤٠٠٠ سنة مضت. واستنادا إلى هذه الأدوات القديمة التي كان يستعملها الأطباء أقول إنهم كانوا أرفع مستوى تقنياً من الأطباء العصريين في وقتنا الحاضر».

ويُعتقد بأن الجراحة البدائية الدقيقة والمعقدة الخاصة بعهد ما قبل التاريخ هي أقدم من المكتشفات الحورية التي تم اكتشافها عام ١٩٦٩م، وذلك عندما تم اكتشاف ٣٠ هيكلاً عظمياً في كهف بآسيا الوسطى وذلك عن طريق بعثة روسية من الباحثين القادمين من جامعات لينين‌غراد وعشق أباد وبإشراف البروفسور ليونيد مارماجارجان Leonid Marmajarjan، ونقلت الهياكل العظمية ويعود تاريخ هذه البقايا إلى مرحلة باليوليتية مبكرة إلى جامعة عشق أباد حيث خضعت لبحث علمي واسع النطاق.

يقول تقرير من أكاديمية العلوم السوفييتية في نوفمبر ١٩٦٩: هناك عدد من الهياكل العظمية التي تخص آسيا الوسطى تشير إلى وجود علامات لطب جراحي وصل إلى درجة من الكمال.

تماماً كما هو الحال بشأن اكتشافات بحيرة سيفان، توجد هنا أيضاً عدة أمثلة للعمليات الجراحية الناجحة على الجمجمة. ولكن بعد فحص الهياكل العظمية أصيب العلماء السوفييت بالدهشة عندما وجدوا آثاراً لطب جراحي تكامل وبلغ مستوى من الدقة في مجال القلب. لقد تم تقطيع أضلاع الجسم بخبرة ملحوظة. والجدير بالملاحظة هو هذه الفتحة التي نفذها الجراح وظلت الأضلاع غير مقطوعة موضوعة على حدة عن طريق الفعل الانقباضي. وكانت كل خاصية تناسب حسب اللغة الحالية النافذة القلبية بحيث يستطيع الجراح تنفيذ عملية القلب المفتوح. وكان السمحاق (أي غشاء العظم) أو البقايا العظمية على الأضلاع المقطوعة تشير إلى المرضى قد ظلوا أحياء لمدة تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات بعد تنفيذ هذه العملية الجراحية الدقيقة جداً.

إن نجاح هذه الأمثلة البدائية (ما قبل التأريخ) الخاصة بجراحة الرأس والقلب إنما تؤكد على وجود حالات من التطور العلمي. وهذه الحالات لا تتجاوز فقط رؤية الثقافات الباليوليتية والنيوليتية ولكنها تتجاوز أيضاً حالات تطور معظم الحضارات القديمةوحتى الحديثة منها.

إن العمليات البدائية (ما قبل التأريخ) تستوجب معرفة حميمة من الناحية التشريحية، بالأخص فيما يتعلق بمعرفة الدورة الدموية والتحكم بها، كذلك بما يتعلق بالمفاهيم المتقدمة من الناحية الصحية، وفيما يتعلق أيضاً بالتخدير. تعتبر هذه النقاط حيوية، ذلك لأنه لا يمكن تحقيق أية عملية جراحية بدونها. وحتى القرن الأخير كانت التقنيات المستخدمة في هذه الحقول ما تزال على حالتها الطبيعية، وحتى فيما يتعلق بقطع ضلع من الجسم الناتجة عادة من تقيح أو تصدية. إن مما يثير الدهشة حقاً هي النقطة التالية: إننا لم نجد أية برهنة تتعلق بتطور هذه الممارسات الطبية المتقدمة في مجال ثقافات العصر الحجري حيث تم تحديد موقع الهياكل العظمية المعالجة جراحياً. لزم أن تكون المعرفة

الجراحية قد استوردت أو تكاملت بواسطة شعوب تتمتع بحضارة تقنية عالية، وكانت تلك الحضارة تعايش ثقافات العصر الحجري. ولا يبدو هذا الأمر غير قابل للتصديق، عندما نلاحظ كيف أن حضارة الكمبيوتر الحالي تعايش جنباً إلى جنب ثقافات بدائية للعصر الحجري كما هو الحال مع شعب غينيا الجديدة والسكان الأصليين في أوستراليا.

كذلك منذ آلاف السنين استعملت حضارات غير معروفة المعرفة الطبية وكانت وقتذاك متقدمة كمعرفتنا الحالية، واستطاعت أن تنقذ من الموت الآلاف من البدائيين في العصر الحجري وبالطريقة نفسها.

ما هي الأمراض التي كانت متفشية بين ذلك الشعب البدائي؟

إني متأكد بأننا لن نعرف أبداً العدد المتنوع من الأمراض التي أصابت الإنسان المبكر. ولكن المجموعة النادرة من التماثيل التي تخص المجموعة الخاصة للبروفسور أبنور ويسمن Abner Weisman وهو طبيب مختص بعلم أمراض النساء (في نيويورك) قد استطاعت أن تُلقي ضوءاً على جهلنا المتعلق بهذه المرحلة. يقول ويسمن: «عندما شرعت في تحضير مجموعتي هذه عام ١٩٤٤م كان معظم العلماء يعتقدون بأن علم وفن ما قبل العهد الكولومبي ليسا قديمين فعلا. لكن الاكتشافات التي أجريت أواخر ١٩٥٩م وبداية ١٩٦٠م بدلت هذه المفاهيم رأساً على عقب. إننا نعلم الآن بأنه كان يوجد منذ عدة آلاف من السنين قبل شعوب الأزتيك والأنكا والمايا أمم ذات حضارة عالية أخرى. وقد استوطنت ذلك الجزء من أمريكا. لم يصل إلينا ميراثها عن طريق اللغة المكتوبة، ولكنها تسربت إلى القرن العشرين بشكل تماثيل عديدة بحيث تحدثنا عن حالات متنوعة من الأمراض التي كان يعاني منها الشعب. جل ما كان يخبرون به هو بكل بساطة الخلل العقلي.

لقد تأملنا جيدًا مجموعة تماثيل. وفجأة انتابني شعور بالأسف للأمة التي تمثلها تماثيل تم اكتشافها حديثاً. إن أعراض العلل مثل السرطان والجدري والتهاب المفاصل إنما هي واضحة جدًا على هذه التماثيل المقولبة بالطين. سوء التغذية، وحالات التشوه والبعض من هذه الحالات بشعة للغاية، والحبل في مراحله المتعددة، وعمليات البتر، وحتى

عمليات الولادة القيصرية.. جميعاً تبدو موصوفة بطريقة دقيقة: «كثيرون من الخبراء يعتقدون بأن هذه التماثيل لم تستخدم لأغراض تعليمية ولكنها دفنت مع المتوفي وذلك للدلالة على سبب الموت. وإذا كان هذا الأمر صحيحاً هذا يعني بأن الأشياء لم تتبدل حقًّا». وأضاف ويسمن في نهاية الحديث «لكن تأريخهم الطبي انتقل فجأة إلينا وأصبح أقرب بكثير من سواه».

إن الأمر الأكثر غرابة بخصوص هذه المجموعة النقطة التالية: لا تشير هذه المجموعة إلى أمراض الأقدمين فقط ولكنها تزودنا بإرشادات خفيفة حول طريقته إدخال المرضى إلى المشفى. من الواضح بأن معظم المرضى كانوا يحتاجون إلى معالجة دقيقة، ذلك لأن معظم التماثيل كانت منطرحة على أسرّة لمشفى بدائي، وبعضها كانت مزودة بواقية للشمس، وبعضها الآخر ملقاة على أسرة حيث تبدو أقسام كاملة من الفرش منزاحة عن المرضى، وذلك للتخفيف من الضغط أو لتجنب علة القرح في الظهر. لقد جمع في ليما (عاصمة بيرو) دكتور جوزيه كابرينا وهو بروفسور في الأنثروبولوجيا والتأريخ في جامعة بيرو المئات من المنحوتات الحجرية التي تخص عهد ما قبل حضارة الأنكا والتي عثر عليها في منطقة الأنديز. وهذه المنحوتات تمثل المعرفة الطبية والتقنيات الجراحية المتطورة جداً إلى درجة جعلت من علماء الطب في وقتنا الحاضر ينظرون اليها بدهشة بالغة دون أن يجدوا حلاً لهذه الملابسات.

يبدو بأنها كانت مرمية ومنبوذة داخل صخرة قديمة جداً، وقد صنعها رجال مجهولون من الهنود. وتصف هذه المنحوتات عملية زرع القلب عن طريق استخدام تقنيات بحيث تبدو عصرية في وقتنا الحاضر. إنها تشير إلى عمليات قيصرية في الولادة، والى زرع الدماغ، وإلى أنماط أخرى في الطب الجراحي، أي هذه الأنماط التي لم ندركها إلا في الجيل الأخير. وهناك منحوتات حجرية أخرى تمثل صورة لعملية جراحية للقلب مأخوذة عن كتب، كذلك رسمة أخرى تشير إلى الأوعية الدموية والى الأطباء الجراحين وهم يعملون بواسطة أدواتهم الطبية. إن العلماء الذين فحصوا هذه المنحوتات الحجرية أو الذين التقطوا صوراً فوتوغرافية لها أصيبوا بالذهول ولم يجدوا حلاً لهذا الاكتشاف

الملغز.

يقول د. ستانتون ماكسي وهو طبيب ينتمي إلى الكلية الأمريكية للجراحة: «إن الوصف التفصيلي واضح في الصور الفوتوغرافية للمنحوتات الحجرية التي تمثل جراحة القلب. إن الأوعية الدموية السبعة الصادرة عن القلب إنما هي مقولبة بأمانة. يبدو العمل الكلي أشبه بعملية جراحية للقلب، ويبدو بأن الأطباء الجراحين قد استخدموا تقنيات تلائم معرفتنا العصرية».

هناك منحوتة أخرى تمثل الأطباء الجراحين وهم يجرون عملية جراحية لامرأة، حيث يبدو البطن والصدر وقد تم توسيعه مع تخليص الجنين بواسطة عملية قيصرية.



أحد تماثيل الأنكا يرينا عملية قيصرية مبيناً الحالة المتقدمة للعلاج الصحي في ألزمنة القديمة

إن مثل هذه المنحوتات االحجرية القديمة القادرة على تسجيل تقنيات جراحية حديثة هو أمر مذهل حقاً. لا بد بأن تلك الشعوب القديمة قد اتصلت بحضارة متطورة جداً، أي بحضارة لم تخطر في بالنا قط ولو من باب الخيال.

- **مَن قتل رمياً بالرصاص الرجل الروديسي؟**

يبدو بأن حدوث الاحتكاك بين الإنسان البدائي (ما قبل التاريخ) والأشخاص الذين يمثلون الحضارة المتطورة جداً إنما هو وليد التعايش السلمي. ولكن هناك نقطة أخرى يجدر بنا التحدث عنها في هذا السياق: بينما بعض الرجال البدائيين (ما قبل التاريخ) قد تم إنقاذهم من براثن الموت بواسطة الطب هناك أشخاص آخرون لم يحالفهم الحظ قد قتلتهم أسلحة متطورة.

يعرض متحف التاريخ الطبيعي في لندن جمجمة لإنسان نياندري اكتشفت قرب بروكن هل في روديسيا عام ١٩٢١م. يوجد عند الجانب الأيسر من الجمجمة ثقب مستدير تماماً. لا يوجد أي أثر لانفقاعات أو طقات متنشرة من نقطة واحدة، كما يحصل عادة عندما يسبب السهم أو الحربة. ثقب بهذا الشكل لا يمكن أن يحدث إلا عن طريق قذيفة ذات سرعة عالية شأن الرصاصة. لقد تحطمت جهة الجمجمة التي تواجه مباشرة الثقب من الطرف الآخر. ويبدو أنها اتجهت نحو الخارج مجتازة الجهة الداخلية. ومثل هذه الخاصية لوحظت لدى الضحايا في وقتنا الحاضر عندما أصيبوا بجروح في رأسهم بواسطة طلقات نارية عن طريق بندقية شديدة القوة. ليس بإمكان القذيفة البطيئة توليد مثل هذا الثقب حتى ولو كان صغيراً أو توليد الكسر في الجمجمة.

قال رجل ألماني مسؤول من برلين بأن إصابة جمجمة الرجل الروديسي لا يمكن أن تتم إلا بواسطة رصاصة. وإذا كانت الرصاصة أطلقت فعلاً على الرجل الروديسي، عندها جاز تقييم هذا الحدث على ضوء استنتاجين:

جاز أن تكون بقايا الروديسي غير قديمة كما ساد الاعتقاد، أي لا يعود تاريخها لأكثر من قرنين أو ثلاثة. وجاز أن يكون قد أصيب بطلقة نارية أطلقها مستعمر أوروبي أو مستكشف.

في الاحتمال الثاني أن العظام قديمة كما هو واضح، وقد أصيب بطلقة نارية بواسطة صياد أو محارب ينتمي إلى ثقافة قديمة جداً ومتقدمة للغاية.

إن الاستنتاج الثاني هو الأكثر معقولية، بالأخص عندما تم اكتشاف جمجمة الروديسي على عمق ستين قدماً تحت الأرض. ولا يمكن أن يحدث راسب أثري عند ذلك العمق إلا بعد مرور مرحلة تعادل عدة آلاف من السنين.

لقد أصيب الرجل الروديسي بقذيفة شديدة الاندفاع لكن الرصاصة التي قتلته قد أطلقها القاتل في مرحلة مبكرة من التاريخ البشري.

إن نتائج الفحص الخاص بجمجمة الروديسي ليست البينة الوحيدة التي تؤكد بأن شخصاً ما أو حتى بعض (الدول) قد امتلكت البنادق الشديدة القوة أو قطعاً من السلاح المماثلة في الماضي السحيق. يتضمن المتحف الخاص بعلم معايش الإنسان القديم في موسكو مصنوعة يدوية، وتؤيد هذه المصنوعة مثل هذا الاستنتاج: إنها جمجمة جاموس أوربي منقرض، وهو نموذج من الجاموس البري الأميركي وهو منقرض أيضاً. لقد تم اكتشاف الجمجمة في الجهة الغربية من نهر لينا. ويعتقد بأن عمره يناهز عدة آلاف من السنين. ومما لفت انتباه البروفسور قسطنطين فليروف وهو قيّم متحف موسكو مع زملائه هو الأمر التالي: لقد اخترق جبين جمجمة الجاموس الأوروبي المنقرض ثقب صغير مستدير. ويبدو الثقب مصقولاً ولا يحتوي على طقات أو انفقاعات منتشرة من نقطة واحدة. هذا يعني أن هذه الحالة تشير إلى وجود قذيفة قد اخترقت جمجمة الحيوان باندفاع قوي جداً. ولا شك أن الجاموس الأوروبي كان حياً عندما أطلقت عليه الرصاصة. ويشير إلى ذلك التكلس الحاصل حول الفتحة. بيد أن المسافة بين الصياد والحيوان كانت بعيدة جداً بحيث لم تسبب جرحًا قاتلاً. لقد ظل الحيوان حياً بعد إصابته بهذا الجرح، ولقد مات بعد سنوات عديدة نتيجة لأسباب أخرى. لكن عظامه دامت عبر العصور. بقيت معها حية تلك البرهنة المتعلقة بالمهارة التدميرية لشعب متطور ومتقدم.

***





آثار البنائين التذكارية
(التي يكتنفها الغموض والأسرار)

خلال الخمس والعشرين السنة الأخيرة، وبالأخص في العقد الأخير، أُثيرت أسئلة جدية بشكل متواصل حول مصداقية نظرية التطور. لم تنبثق هذه الأسئلة من مجالات البحث البيولوجي وعلم الوراثة الباليونتولوجيا (علم معايش الإنسان القديم) والجيولوجيا، ولكنها انبثقت أيضاً من علم الآثار والعلم الذي يتعامل مع المنتجات المبكرة للإنسان. وفي جميع أقطار العالم في كل قارة تقريباً توجد بقايا لعمارات ضخمة صخرية. ورغم أنها ظلت قبلة أنظار الناس لآلاف من السنين أصبحت الآن خاضعة لفحص دقيق من قبل رجال العلم وذلك في سبيل سبر أغوار أسرارها المتعلقة بالأهداف وبطبيعة التعمير.

إن الشيء الذي حصل عليه هؤلاء الرجال هي هذه الكتلة الضخمة من المتناقضات.

إن الرؤية الشعبية التاريخية في وقتنا الحاضر هي التالية: نبدأ بالوجود الحيواني ونتزلق عبر مدة زمنية غير محددة وصولاً إلى المخلوق الذي يشبه الإنسان (الذي يملك طبائع بشرية ذات نمط بشري Humenoid) ثم نجتاز مرة أخرى المراحل المتعاقبة المرتبطة بصناعة الأدوات غير متقنة الصنع (أو الأدوات التي هي على حالتها الطبيعية) وتدعى هذه المرحلة الأخيرة بمرحلة العصر الحجري. وبعد ذلك، ينتهي بنا المطاف إلى بلوغ الحضارة في مصر والعراق، عبر منهجية طويلة أخرى معتمدة على طريقة التجربة والخطأ، الممزوجة بالاستنباط الثقافي وعملية الاستيعاب.

هل يبدو مثل هذا الأمر بعيد المنال؟. أجل، إنه كذلك. إنها الرؤية التقليدية للتاريخ

تبدو أكثر وأكثر معرَّضة للتحدي. إن العمارات الضخمة التي خلفها أجدادنا الأولون تشير حتما إلى وجود تكنولوجي متقدم في الماضي الموغل في القدَم وهذه التكنولوجيا تنافس مستوانا التقني الحالي أو تتفوق عليه. بهذا لا يصح لنا التقيد بالمفهوم المعتمد على نظرية التطور البطيء والتدرج في الفنون والمعرفة، أي المفهوم المرتبط بنظرية النشوء والارتقاء.

بالطبع لقد تكونت صيغ عديدة من النظريات حديثاً وذلك لتفسير منشأ العمارات القديمة. ولكن لا يمكن العثور على تفسير مقنع إلا إذا ارتبطت تلك النظريات بتلك الإنجازات الخاصة بتكنولوجيا عهد ما قبل الطوفان التي ظلت حية حتى عهد ما بعد الطوفان. لم يكن الرجل المبكر (أو الوّلي) قرداً بالطبع. كان يملك معرفة متطورة بشكل جيد في الرياضيات والهندسة المعمارية، وكان ينتمي إلى مرتبة اجتماعية بحيث كان قادرًا على تسخير مجهوداته في سبيل تعمير المدن وفي سبيل تنظيم الحضارات. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الإنجازات المدهشة التي وصلت اليها الأجيال الأولى، أي هذه الأجيال التي ظلت حية بعد كارثة الطوفان (برج بابل، الدراسات الاستطلاعية الكونية، الطاقة الذرية، الطيران..الخ) جاز لنا أن نتساءل بإعجاب: كم كانت متقدمة تلك الأنماط الخاصة بالأعمال التكنولوجية والبنيوية، وكم كانت بارعة وعظيمة خلال العهود التي سبقت الطوفان ولولاها ما حصلت هذه الإنجازات المذهلة.. أي هذه الأنماط المتقدمة التي ابتلعتها للأسف مياه الطوفان.

- **حل لغز ستونهنج** Stonehenge:

لا تتخلى العصور القديمة بسهولة عن أسرارها، ويتوجب سبر أغوار هذه الأسرار بصورة متواصلة. ويجب القيام بمحاولات لاستخراج هذه البقايا الدقيقة من المعرفة التي ظلت حية والتي تسمح لنا بالحصول على تلميحة خاصة بإنجازات أجدادنا الأولين. لكن الاكتشافات التي حصلنا عليها حالياً إنما تزيد رغبتنا في تعميق التنقيب عن هذه الأسرار أكثر وأكثر. ويصبح اللغز أكبر كثافة عندما نحاول إزاحة غشاوة الغموض عن هذه العمارات الحجرية التي تناهز المئات والمنتشرة عبر العالم والتي تقع عند تقاطع

الخطوط المرجية. هذه العمارات البدائية (ما قبل التاريخ) التي صنعها الإنسان وقد انتصبت عالياً لأجل غرض محدد عن طريق جنس بشري يتمتع بذكاء عظيم. ومن أكثر الآثار غرابة وإدهاشاً هو الأثر المعروف باسم ستونهنج. هذه الساحة الصخرية الصغيرة الملغزة التي تنتصب عالياً في مكان منعزل على ساحل سالزبوري في جنوبي إنكلترا.

منذ القرن السابع عشر، كتاب وعلماءٌ قلبوا أوجه النظر وتساءلوا كثيراً حول مقصد ستونهنج في تشييدها بهذا الشكل، وقد طرحت على بساط البحث عدة نظريات لتفسير مصادرها. جاز القول بأن جيرالد هوكنز Gerald Hawkins هو الشخص الذي استطاع أن يحل لغز هذه الحلقة من الصخور. فهو فلكي ومؤرخ يعتقد بأن هذه البنية إنما هي مخصصة للقيام بدور الآلة الحاسبة السماوية العملاقة. وبعد سنوات عديدة من البحث والمراقبة بشكل دقيق، توصل هوكنز إلى البرهنة، بمساعدة الكمبيوتر، إلى النتيجة التالية: إن الصخور المنصوبة ستونهنج أو الفسحات القائمة بينها إنما هي مراكز للمراقبة تشير إلى نقاط مخصوصة حول بزوغ وغروب الشمس والقمر والكواكب في أزمنة متنوعة من السنة. ولقد أظهرت حساباته النقطة التالية: عن طريق استخدام المرصد ستونهنج يمكن التنبؤ بدقة عن الظاهرة السماوية الاستثنائية. إن ستونهنج هو فعلاً أداة علمية ذات مرتبة عالية جداً.

لقد أظهر فحص دقيق بأن المحور قد جرت عليه ثلاث موجات مميزة من التعمير منذ مئات عديدة من السنين، وذلك تمشياً مع حاجات المجتمع المتطور. إن القطع المصنوعة من فحم الحطب والمستخرجة من مناجم مليئة بالرسوبات الطبشورية والمعروفة باسم أوبري هولز Aubrey Holes، إنما تنسب إلى عنصر الكربون ١٤ الذي يعود تاريخه إلى ٢٠٠٠سنة قبل الميلاد بزيادة أو أقل من ٢٧٥ سنة. وقد تم نقل مواد أخرى من حفر مختلفة ويتراوح تاريخها بين ٢٢٠٠-٢١٠٠ ق.م، مما يفترض بأن صخور ستونهنج قد تم تشييدها عند بداية الألف سنة بعد الطوفان. وتعرف مرحلة التعمير الثانية باسم ستونهنج الثاني، ولم تبدأ هذه المرحلة إلا بعد مئات عديدة من السنين، أي بعد إنجاز تعمير ستونهنج، علماً بأن المرحلة الأولى قد أرست بنيان القاعدة العلمية

والفلكية وكانت الخاصية الرئيسة في تجديد البناء معتمدة على حجر الميغاليت أو الأحجار العريضة من نوع الجندل (وهو حجر ضخم من نوع أحجار أثر تاريخي كالهرم في مصر). وهناك العديد من الدحاريج (أي المصنوعة من أغصان الأشجار الضخمة) وقد شيدت عالياً ويبلغ عددها ٨٢ ويبلغ وزنها خمسة أطنان. وقد شيدت حول مركز يرتبط بنظام حفري محدد حيث تثبت صخور بمقياس ستة أقدام منفصلة وتبلغ ٥٣ قدماً ابتداءً من مركز المحور. ويبدو بأن الصخور تشكل دائرة مزدوجة مع نمط يشبه أشعة الدولاب. وكل حلقة صخرية منفتحة نحو الجهة الشمالية الشرقية بحيث تواجه شروق الشمس في منتصف الصيف بينما تستعمل الصخور المزدوجة كمجموعة لنقاط رصدية مخصصة للفلكيين الأقدمين.

في الواقع إنَّ أمر استخدام هذه الأدوات يشكل لغزاً حقيقياً. ولكن بالأحرى كيف تمّ نقل هذه الصخور العملاقة إلى سهل سالزبوري في الموقع الأول؟.

لقد كان كل عالم آثار يصرح عن نظرية مختلفة بعد فحص صخور ستونهنج. ولم يتوصل أحد إلى تفسير النقطة التالية: كيف استطاع البناؤون نقل ثمانين صخرة من الصخور التي تبلغ خمسة أطنان عبر مسافة ٢٤٠ ميلاً، بعد اجتياز اليابسة والمياه، قدوماً من جبل بريسكولي Prescelly في ويلز وصولاً إلى موقع البناء؟. لم يحدث مثل هذا أبداً عن طريق أي شعب بدائي (خاص بعهد ما قبل التاريخ).

إن صخور ستونهنج الثالث تزيد الأمر ارتباكاً وغموضاً، ذلك لأنه بعد قرن من تأريخ تشييد المرحلة الثانية أي بين ١٨٠٠-١٧٠٠ ق.م أضيف إلى هذا البناء٢١ صخرة أو أكثر، والبعض منها يتراوح وزنها بين ٤٠ - ٥٠ طناً. وهذا الأمر، جعل اللغز أكثر تعقيداً، لأن منشأ هذه الصخور هو مارلبورو داونز التي تمتد على مسافة عشرين ميلاً شمالاً.

لقد ساد الاعتقاد نظرياً بأن هذه الصخور الضخمة قد تم نقلها بواسطة الجر على زلوجات كبيرة خشبية (التي تم نقلها عن طريق التدحرج). استناداً إلى ذلك، جاز اعتبار النظرية التالية: استوجب الاستعانة بعدد يتراوح بين ٨٠٠ - ١٠٠٠ رجل لدفع كل

صخرة، بالإضافة إلى ١٠٠ رجل لتحضير الممر وتوجيه الزلوجات وتحريكها من الجهة الخلفية. حتى ولو استعان البناؤون بهذه القدرة البشرية بصورة فعالة، هذا يعني بأن تعمير ستونهنج قد تطلب سبع سنوات لنقل جميع الصخور.

● أين يقع قانون الجاذبية؟

هل كانت توجد وسيلة أخرى؟ هل جاز القول إن العلم الذي ظل قائماً بعد الطوفان يتضمن نهجاً يتغلب على قانون الجاذبية؟.

لم نحصل على برهنة وافية في هذا الصدد، ولكن يوجد مصدر متوسطي وربما قدم لنا حلاً بديلاً لهذا اللغز.

يقول المؤرخ جيوفري Geoffrey من مونماوث وهو بريطاني من القرن الثاني عشر في كتابه "تأريخ النظام البريطاني" في حديثه عن الأسطورة المتعلقة بهذه الصخور الضخمة التي تخص تعميرات ستونهنج وحول مصدرها وكيف وصلت إلى ذلك المكان: تحت قيادة أثر بندراغون Uther Pendragon وهو والد الملك آرثر احتلت قوة عسكرية المنطقة حيث توجد حالياً هذه الصخور، صخور النصب التذكارية، وكانت هذه القوة مكونة من ١٥ ألف بريتاني. وبعد أن استقروا هناك بدأوا بتنفيذ مهمة نقل الصخور الضخمة، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل رغم استعمالهم الحبال الكبيرة الغليظة والأسلاك الفولاذية وسلالم التسلق.. الخ.

لم يستطع جيش من الرجال تحريك هذه الصخور العملاقة حتى ولا قيد أنملة. فجأة سمعوا جلجلة لضحكة هازئة. اقترب منهم ميرلين الحكيم، وكان يرافق هذه البعثة العسكرية، وطلب منهم الوقوف جانباً، وبدأ باستعمال آلاته حيث رفع إليها الصخور بخفة وسهولة. فأصيب الجميع بدهشة بالغة. وبواسطة هذه الآلات الخاصة، تم نقل الصخور وتثبيتها عالياً في ستونهنج. هكذا أثبت ميرلين بأن المهارة تتغلب على القوة.

بالطبع إن قصة جيوفري خرافية، لكنها تحتوي على عنصر من الحقيقة. إن القوة في حالتها الطبيعية سوف تستوجب لوحدها كميات هائلة من الطاقة البشرية لنقل هذه

الصخور حتى ولو كان هذا الأمر ممكناً. لقد تم زحزحة الصخور ونقلها فعلاً بطريقة خاصة مجهولة بالنسبة لنا، وجاز أن تشير آلات ميرلين إلى نمط معين من الآلة البدائية (التي تخص عهد ما قبل التاريخ) والتي تضمن قوة الرفع المطلوبة. والواقع أن آلات الرفع الحديثة، وهي عبارة عن هياكل طويلة (وكل هيكل مزود بذراع واحد مديد) وأجهزة الشيْل تكاد ألا تقدر على تحريك هذه الصخور العملاقة.

إن زحزحة صخور ستونهنج الضخمة كانت مشكلة فعلاً وإن رفعها وتثبيتها في مواقعها المحددة هو أمر أكثر تعقيداً، ذلك لأن المرصد الفلكي بكامله لم يتم تشييده على تربة مستوية بل على مساحة منحدرة. وتشير القياسات رغم وجود هذا الانحراف على أن مثل هذا التركيز استطاع أن يعوض بواسطة البنائين، أي عن هذا الانحراف، بتوافق تعميري يبلغ درجة مذهلة من حيث الدقة.

يقول جيرالد هوكنز معلقاً في كتابه «ما وراء ستونهنج»: «إن مثل هذه الدقة في التركيز هي فعلاً مدهشة. إن رفع الجندل بهذه الطريقة استناداً إلى خط أفقي.. لهي مهمة في غاية الصعوبة. وإن غرس تلك الكتلة الضخمة في التربة إلى عمق محدود بحيث يكون رأس هذه الكتلة متوافقاً مع الخط العامودي ملتزماً الدقة التامة التي تصل إلى بعض الإنشات.. إن مثل هذا الإنجاز ليتطلب فعلاً بعداً عظيماً من المهارة».

كيف تم ذلك فعلاً؟. إذا ترسخت الصخرة بعد الانتصاب إلى مسافة عميقة، هذا يعني بأنها أصبحت منحرفة عن الاصطفاف العامودي، وإلاَّ كيف تم رفع هذه الصخرة؟. بالطبع، وإذا لم تثبت هذه الصخرة بمقدار بعيد بشكل كاف عندها يصبح البناء مضطراً لتحطيم الرأس لخفضه وتحقيق الارتفاع المطلوب ولكن رأس الصخرة غير مهشم.. هذا يعني بأن الإنجاز تم بواسطة تقنية مجهولة. ويبدو أن صخور ستونهنج قد رُفعت بدقة مدهشة، تم ذلك استناداً إلى رؤية المسَّاح تمشياً مع مجموعة دراساته المعتمدة على النسب المتحولة.

يقول هوكنز: «إذا طلب من بناء معاصر القيام بهذه المهمة لن يكون قادراً على تنفيذ ذلك بدون شريط القياس بالياردات Yard tape وفادن البناء Plumb line وميزان

السواء Spirit levels مع التقيد بارتفاعات خطوط البصر والاعتماد على المخططات الهندسية التي تشير إلى الشكل الخارجي للأرض بالإضافة إلى التصميم الخاص بكل صخرة وبكل حفرة متطابقة معها.

من الواضح بأن البنائين القدامى كانوا يتمتعون بالفطنة والبصيرة (بنائين ستونهنج)، وقد استعملوا فعلاً الأدوات والآلات التي تتميز بالدقة والفعالية، وهي تشبه في هذا المجال الأدوات والآلات الموجودة في وقتنا الحاضر.

● **الصخور والأفلاك:**

منذ أن اهتم رجال العلم عبر عدة قرون بصخور ستونهنج فاحصين متسائلين، ظهرت نظريات عديدة، وكلها تهدف إلى توضيح مقصد هذا التعمير الهندسي. وعندما شرع هوكنز في دراسته استقى قصته من رؤية هندسية معمارية. لقد استدار حول هذا البناء التذكاري الضخم ولاحظ وجود ممرات قوسية، وكانت معظمها ضيقة جداً، ويتراوح مقياسها بين قدم واحد وقدمين عرضاً. وعندما يوجه المشاهد نظره عبر ممرين مصطفين، ينحصر نظره لزاماً متجهاً نحو زاوية صغيرة جداً. يبدو أن البنائين هدفوا إلى حدود حقل رؤية المشاهد وذلك لإفساح المجال لرؤية ظاهرة مخصوصة معينة. ويبدو أن تثبيت الصخور والممرات القوسية في مكان محدد، يهدف إلى تركيز الاهتمام بالشيء الذي يجب مشاهدته. فجأة خطرت فكرة ببال هوكنز وهي التالية: إن هذه الخطوط المنظورة ربما تحتوي على مدلول فلكي. وفي سبيل اختبار نظريته بدأ بتسجيل دقيق لجميع الخطوط المصطفة المنظورة عبر الممرات القوسية.

وعندما انتهى من مهمته الأولى التفت إلى الكمبيوتر وبدأ بتشييد الطريقة التي تبدو فيها السماء ليلاً، في زمن يتراوح بين ٢٠٠٠- ٢٥٠٠ سنة، وسجل بصورة خاصة الموضع الذي تحدث فيه هذه الظاهرة الفلكية المتوافقة مع الشمس والقمر. بعد ذلك أصبح الأمر متوقفاً على برمجة الكمبيوتر وذلك للتحقق من النقطة التالية: هل هذا الاصطفاف المنظوري في ستونهنج؟ وهل مواقع الظواهر الفلكية تتوافق مع بعضها؟.

لقد كانت النتيجة مذهلة حقاً، وتبين بأن الإثني عشرة صخرة في ستونهنج تشير

استناداً إلى هذا الاصطفاف إلى مواقع فلكية هامة خاصة بالقمر وبدقة ملحوظة، بينها تشير ١٢ صخرة أخرى ضمن هذا الاصطفاف إلى مواقع فلكية هامة خاصة بالشمس وبدقة تامة. وبعد الاستعانة بالكمبيوتر اكتشف هوكنز بأن هذا الاصطفاف الخاص بصخور ستونهنج قد تم تخطيطه بدقة استناداً إلى الحساب الاحتمالي، ولم يتجاوز الخطأ في الحساب الاحتمالي أكثر من نسبة واحد في عشرة مليون.

لا يوجد أي شك في هذا المجال. لقد تم تشييد ستونهنج وتم استخدامه كمرصد فلكي في العصر الحجري !.

إن هذه الصخرة البطارية هي في الواقع بقايا كمبيوتر فلكي أثري، وبفضله استطاع سكان ستونهنج التنبؤ والتسجيل بدرجة من الدقة لم يسبق لها مثيل الأنماط المتكررة في السماء وحالات الكسوف والخسوف. وكانوا قادرين أيضاً على احتساب الأوقات والفصول بخصوص زرع وحصاد الحنطة. وبعد تثبيت ورفع هذه الصخور الضخمة التي تزن خمسين طناً أصبحت ستونهنج تُستخدم لهذه الأغراض لمدة ٥٠٠ سنة قبل أن تُنبذ نهائياً. بيد أن عملية الكمبيوتر الصخرية الأخرى استمرت في الأداء رغم كونها أصغر حجماً. لقد انتشرت حلقات صخرية أخرى عبر بريطانيا. صحيح أنها ليست مثيرة من حيث الحجم ولكنها تعادل الصخور الأخرى أهمية بالنسبة لمجتمع البنائين. لم تكن ستونهنج التصور الوحيد لكن حجمها كان مذهلاً وفوق العادة.

لقد أشرف البروفسور الكسندر ثومس من جامعة أكسفورد حديثاً على دراسة مسحيَّة مفصَّلة تشمل ٦٠٠ دائرة صخرية ميغاليتية، وقد أثبتت المناهج المستخدمة في هذه الدراسة بأن هذه الدوائر الصخرية تم تشييدها وتثبيتها عالياً خلال زمان يتراوح بين ٢٢٠٠ – ١٥٠٠ ق.م. وهنا أيضاً كما هو الحال بشأن ستونهنج إن هذا التحديد الزمني يتوافق مع المعلومات الفلكية.

ولكن توجد اكتشافات أخرى، بينت الدراسة كذلك بأن هناك عدة دوائر صخرية قد شيّدت بدقة فائقة، ولا يمكن أن يقوم بهذا العمل إلا مساحون يتمتعون بدرجة عالية من التقنية المسحية. مثلاً قرب ستونهنج توجد صخور أفيبوري Avebury، ولقد تم

تشييدها وفق دقة علمية تقترب من واحد في الألف بينما يوجد خطأ هندسي بخصوص صخور بينماينماور Penmaenmawr فقط بنسبة واحد في ألف وخمسمائة. وتوجد مثل هذه الدقة وبمثل هذا المقياس الصغير لدى عدد وافر من الصخور التي تملك علامات القدح والحلقة. ولقد تم نحت هذه العلامات بدقة تامة وبنسبة إنش واحد في عدة آلاف !.

هل دقة الصنعة هذه بدائية الصفة؟. يصعب علينا تصديق ذلك. لقد تم إنجاز هذا العمل بواسطة شعب متكامل جدا إذ تبين بعد فحص ٦٠٠ حلقة بأن البنائين المختصين بالحجارة الميغاليثية كانوا يبسطون الأنماط الهندسية المتنوعة أرضاً، استناداً إلى وحدة طولية دقيقة. وتعرف هذه الوحدة في وقتنا الحاضر باسم اليارد الميغاليثي (٢٧٢٠ قدماً). إن تناسق هذه الوحدة القديمة في المجال القياسي تفترض وجود سلطة مركزية واحدة وقد أشرفت على تخطيط وتوجيه تعمير جميع الحلقات. وختم البروفسور تومس: كانت هذه الوحدة تستخدم من أدنى بريطانيا حتى أقصاها. لا يعقل اكتشاف أي فرق بين القيم التي تحددها الدوائر الأسكتلندية عن طريق الفحص الإحصائي. لزم حتماً وجود مقر إدارة عامة، ومن هناك كانت ترسل القصبات النموذجية (لقياس الطول). ولم يوجد اختلاف بين القياس الطولي في القصبات في أسكوتلندا بالنسبة للقصبات المستخدمة في انكلترا أكثر من ٠,٠٣ إنشاً. وإذا كانت كل جماعة تستعمل طول القصبة التي تخص جيرانها، حتى الجهة الجنوبية، سوف يتراكم الخطأ وسوف تكون نسبته أعلى من ذلك بكثير.

وفي هذا الصدد يقول البروفسور تومس إن تصميم القطاعات الضرورية التي تم الحصول عليها بواسطة تفقير العقل أو استناداً إلى عملية تجريبية معقدة، يستوجب أصلاً خبرة ذهنية رفيعة المستوى. لم يولد هذا النظام الضروري من لا شيء وبلا سبب، لا بد من وجود مدرسة أو نظام خاص بالبرهنة المرتبطة بعلم الرياضيات. مثل هذا الرأي إنما تؤيده هذه التصاميم المدهشة التي نجدها عند مشاهدة الحلقات الصخرية المعقدة.

لقد أصيب بالذهول لدى اكتشافه هذه الحقيقة. علماً بأن مثل هذا الإنجاز شأن

الأشكال البيضية والإهليليجية والدائرية إنما تعتمد على مثلثات فيثاغورث. وقد ساد الاعتقاد بأن هذا المفهوم قد نشأ عند اليونان، بيد أن الواقع أثبت بأنه دخل التاريخ قبل فيثاغورث بحوالي ١٥٠٠ سنة.

- **معرفة القمر المنحرف (أو المترجرج) منذ ٤٠٠٠ سنة:**

جاز القول بأن أهم مواقع للدائرة الصخرية الميغاليثية الأكثر إثارة هي كالرنيش Callernish التي تقع في منطقة لويس من جزيرة أوترهبرايت الشمالية التي تملك بالإضافة إلى علامات الطريق البدائية (ما قبل التاريخ) جادة وقد تم تحديدها بالصخور. إنها الجادة الصخرية التي أصبحت النقطة البؤرية للاكتشاف الحديث.

ويبدو لنا من جهة كالرنيش بأن غروب القمر في وسط الصيف إنما يحدث فوق قمة كليشام. وتشير نقاط الجادة مباشرة إلى الجبل. وبما أن الخيوط المعقدة لكالرنيش تمتد فقط بمقدار ١,٣ درجة جنوباً، استطاع المراقبون المختصون بالمواقع الميغاليثية رؤية ظاهرة مستغربة: في كل ١٨ أو ١٩ سنة يظهر القمر ساكناً ومستقراً بمقدار يعادل درجة واحدة فوق خط الأفق. إن هذه الدورة السنوية الثامنة عشر / التاسعة عشر إنما هي بالطبع نفس الدورة التي تم تسجيلها في ستونهنج. لقد تم اصطفاف صخور الجادة بطريقة محددة بحيث كان الفلكيون البدائيون (ما قبل التاريخ) قادرين على مراقبة ما يعرف باسم انحراف القمر (أو ترجّح القمر) — مدى ترجح التمويجة لانحراف القمر في أوضاعه النهائية.

قبل اكتشاف كالرنيش ساد الاعتقاد بأن هذه الظاهرة لم يتم اكتشافها قبل القرن السادس عشر بواسطة تيتشو براهي Tycho Brahe. إن المرحلة الزمنية لترجح القمر تساوي ١٧٣ يوماً، ويبلغ الترجح مداه الأقصى فوراً قبل موسم خسوف القمر. ويبدو الآن بأن البنائين في كالرنيش كانوا يملكون الكمبيوتر الوحيد المصنوع من الصخر وذلك للتنبؤ بحالات الخسوف القمري.

هناك نقطة أخرى في غاية الأهمية، وهي النقطة التالية: إن جميع الصخور المصطفة في كالرنيش هي نفسها التي تم اكتشافها في ستونهنج بالإضافة إلى أحجار الرصد الرئيسة

التي تم تشييدها استناداً إلى نمط هندسي مماثل. يقع تعمير كالرنيش على ارتفاع محدد بحيث يبدو القمر وهو ينساب فوق الأفق، كذلك مرصد ستونهنج يقع في نقطة حيث تظهر الأوضاع النهائية للقمر عند الزوايا المتوافقة تماماً مع زوايا الشمس.

ويتبين لنا أيضا بأن كالرنيش وستونهنج قد استخدم كلاهما نفس الوحدة القياسية القاعدية بخصوص البنية الهندسية، وكان البناءون منتبهين إلى الفوارق القائمة بينهما فيما يتعلق بالظاهرة الفلكية التي يمكن مراقبتها من خلال البنيتين.

بالطبع إن مثل هذه المعرفة بخصوص الفوارق تؤدي بهؤلاء البدائيين بمعرفة تقويس وحجم الأرض.

● **مواقع ميغاليثية أخرى في بريطانيا:**

رغم أن البنائين كانوا ينفذون المشاريع العمرانية الضخمة التي تؤهلهم في رصد مسار الأجسام الفلكية، جاز القول بأن مثل هذه المحاولة كانت الوحيدة وكانت لا تخلو من الصعوبة. وبينما كان يتم تشييد ستونهنج وكالرنيش كانت هناك مشاريع أخرى يهتم بها البناؤون أنفسهم.

إن أهم السمات المشتركة بينها هو تشييد كومة طويلة المدى من التراب والحجارة فوق القبر أو كومة الضريح. ويمكن العثور على هذه الآثار بكثرة في منطقة سالزبوري في إنكلترا وبالأخص في ويست كنت التي تبعد ١٦ ميلاً شمالي ستونهنج. لقد تم تشييدها منذ عهد قديم، أي قبل ٢٠٠٠سنة قبل الميلاد. ويبلغ طول هذه التلة ٣٥٠ قدماً، ويتراوح عرضها بين ٧٥ قدماً شرقاً و ٥٠ قدماً غرباً، ويصل طرفها إلى ضريح عرضه ٣٥ قدماً وطوله ٤٣ قدماً وارتفاعه ٨ أقدام. المدخل صخور عديدة ضخمة وتزن كل واحدة حوالي عشرين طناً. وتبين أيضاً بأن هذه الكومة الخاصة بالقبور والموجودة في ويست كينت إنما هي من أقدم الآثار في بريطانيا (أي بخصوص تشييد كومة الضريح)، وذلك استناداً إلى تفحص التقنيات التي استخدمت لتنفيذها. ومع ذلك، يشير مثل هذا الإنجاز إلى مهارات تعميرية ذات مستوى رفيع جداً.

إن اكتشاف مثل هذه الآثار المتعلقة بتشييد أكوام ترابية ضريحية، قد أثارت الدهشة والإعجاب بكل معنى الكلمة لأنه ساد الاعتقاد بأن البريطانيين الأولين كانوا منعزلين عن بقية سكان العالم. غير أن اتصالاتهم بالقارة ومنطقة البحر المتوسط كانت أعظم بكثير من اتصال البريطانيين في العصور العديدة اللاحقة. لقد تم اكتشاف بقايا في القبور مثل الدبابيس البرونزية (من بوهيميا) وخرزات من الخزف المزجّج (من مصر) والعنبر (من البلطيق).

لقد تجاوز البناؤون الدوائر الصخرية أو الأكوام الضريحية، ذلك لأنه يوجد ما وراء ويست كينت أكبر كومة ضريحية اصطناعية في أوروبا، وهي سيلبوري هيل Silbury hill. ويعتبر سبب وجودها لغزاً حتى الآن، رغم محاولات العلماء العديدة اكتشاف هذا اللغز. وقد تبيّن لهم بأنها مستندة في تشييدها إلى دقة تعميرية فائقة. إن شكلها مخروطي ويبلغ ارتفاعها ١٣٠ قدما بينما يبلغ قطر قاعدتها الدائرية ٢٠٠ ياردة، وتغطي مساحة ٥,٥ فداناً، ويبلغ حجمها ٤٠٥ آلاف قدماً مكعباً. وقد استوجب تشييدها أكثر من مليوني ساعة عمل بشري. هذا يعني بأنها استوجبت زمناً يفوق زمن تعمير ستونهينج.

هناك عدة تفسيرات حول انتصاب هذه البنية الكتلوية. يعتقد بعضهم بأنها تلة جنائزية عملاقة. في الواقع لم يعثر أثناء التنقيبات في قمة هذا البناء وعند جوانبه على أي نوع من البقايا الجنائزية أو الخاصة بالهياكل العظمية. إن النظرية السائدة حالياً هي التي تعتبر هذه التلة الكبيرة مثل ستونهينج مخصصة لقياس الظاهرات الفلكية. ومن المحتمل أنه وُجد هناك عامود طويل وكبير، وضع على قمة التل واستخدم لاحتساب طول السنة استناداً إلى قياس ظله. علماً بأن جميع التعميرات الأثرية التي تم تشييدها في تلك المرحلة، إنما كانت مرتبطة ارتباطاً واضحاً بالأرصاد الفلكية، غير أنه يوجد على الأقل استثناء واحد. إن هذا البناء الأثري، يتميز ليس فقط بسبب ارتفاعه العظيم ولكن بسبب طوله. إنه من أعظم الأعمال الهندسية البارعة التي تم إنجازها على أيدي بنائي العصر الميغاليثي البريطاني.

يوجد طريق عام بدائي مدهش (ما قبل التاريخ) ويعرف باسم اكنيلدوي، ويمتد من

سهل سالزبوري ابتداء من الطرف الجنوبي من الدائرة الصخرية إفبوري وصولاً إلى شمالي شرقي نورفولك على مسافة ٢٠٠ ميل. ويمتد هذا الطريق العام بشكل مستقيم على تربة مستوية وتتبع بدقة الشكل العام للأرض المكسوة بالتلال. وتفوق هذه الطريق في عمرانها أي طريق أخرى شيدها الرومان. والمعلوم أنها سبقت الرومان بألفي سنة. بهذا المعنى لماذا البناؤون الذين ينتمون إلى العصر الميغاليثي يحتاجون إلى طريق عام، علماً بأن علماء الآثار يعتقدون بأنهم لا يملكون حتى الدولاب.

● **أوروبا – إفريقيا – والشرق الأوسطدون استثناء:**

لقد كانت الاتصالات جيدة بين إنكلترا وسكان القارة. وكانت الطرق العامة والطرق البحرية دائمة الحركة ومليئة بالمسافرين، ذلك لأن بقايا الآثار الميغاليثية لم تكن مقتصرة على جزر بريطانيا. لقد عثر عليها منتشرة عبر الكوكب الأرضي. جاز أن تكون منطقة ستونهينج النقطة البؤرية لهذا النشاط. من ذلك المكان انتشر البناؤون والمهندسون المعماريون وعلماء الفلك في سائر أرجاء العالم مخلفين وراءهم الآثار التعميرية التذكارية، في حلهم وترحالهم. توجد عدة مواقع ميغاليثية، انطلاقاً من شائل في إنكلترا وصولاً إلى بريتانيا في فرنسا. كذلك تم العثور على مثل هذه الآثار في كيرلسكان وكرماريو. بالفعل على مسافة ٣٢٥٠ ياردة يوجد تقريباً ٣٠٠٠ نصب حجري عامودي (منهير). وأغلب هذه النصب الحجرية تم تشييدها في صفوف متراصة ومتجهة نحو مواقع خاصة بالقبور، وتجابه طلوع الشمس في منتصف الصيف. لقد أصبحت مخلفات زعماء هذه المنطقة جزءاً من الأرض، لكن قبورهم تظل شهادة على عظمتهم. وفي كل مكان من منطقة بريتانيا (فرنسا) توجد آثار ميغاليثية أخرى، وقد تم تشييدها بواسطة الصخور المنصوبة الأكبر حجماً في أوروبا الغربية. للأسف لقد دُمّر النصب الحجري العامودي (المانهير) في جزيرة ميلون Melon خلال الحرب العالمية الثانية، وكان يبلغ وزنه ٩٠ طناً. أما أكبر مانهير فهو موجود في فيريتون في لو كمارياكر. لقد حطمته الصاعقة في القرن الثامن عشر، وكان ارتفاعه يساوي ٦٧ قدماً وكان يزن ٨٣ طناً.

ولكن ليست بريطانيا وفرنسا هما البلدان الوحيدان، حيث خلف البناؤون آثاراً في

أراضيها. توجد بنية هامة جداً خاصة بالعمل السالف للأقدمين ما وراء حدود بريتانيا وذلك عند سواحل ألمانيا وهولندا وإسكندنافيا والبرتغال وإسبانيا وجزر الباليريك وكورسيكا وسردينيا وصقلية ومالطة.

إن مواقع القبور والدوائر الصخرية تشهد جميعاً على مهارة البنائين. لقد تم العثور على آثارهم حتى في **إفريقيا الشمالية وفي الشرق الأوسط** مما يفيدنا بتشردهم البعيد المدى وبانتشار حضارتهم. في **مراكش** توجد أحجار الدولمن (والدولمن قبر من قبور ما قبل التاريخ من حجر عريض منبسط فوق نصائب قائمة من الصخر حول القبر). لقد عثر عليها في منطقة القبائل، وتم العثور على دائرة صخرية قرب طنجة. كذلك تم اكتشاف عدد من صخور الدولمن في **الجزائر** بينما يوجد المئات من الدوائر الصخرية والصخور المنصوبة في **ليبيا وسوريا والأردن ولبنان**. جميعاً تشهد على حضور البنائين في زمن واحد. ثم هناك **مصر** حيث تمتد على طول نهر النيل أرض أمون رع التي تخص منطقة ريفية رملية وقد انتشرت فيها بقايا قبور دولمن التي تميز هذه المواقع بصناعة خاصة. إذ هناك كان يدفن الشعب القديم موتاه. وكانت لها بالنتيجة علاقة مع قبور الفراعنة.

توجد في **الشرق الأوسط** ثلاثة مواقع هامة، وذلك لصفتها العلمية المتقدمة وللمهارة الهندسية الظاهرة من خلال التعمير الهندسي. في **بعلبك** في لبنان شيّد الرومان هيكلهم الرائع، وهو هيكل الشمس. الهيكل الذي جعل بسبب عظمته سائر الهياكل صغيرة حقيرة نظراً إلى روعته وضخامته، إذ تم تشييده على مسطبة ضخمة يعود عهدها إلى ما قبل التاريخ. وتعتبر هذه المسطبة من أعظم الأعمال الهندسية التي لم يظهر لها مثيل في التاريخ. إنها مصنوعة من صخور فردية وتبلغ كل واحدة ٨٢ قدماً طولاً و ٥٠ قدماً سماكة. ويتراوح وزنها بين ١٢٠٠-١٥٠٠ طناً (كل صخرة). وبين الصخور المقطعة لأجل المسطبة توجد الصخرة الأكبر حجماً، ولم تنقل إلى الموقع المطلوب ولكنها تركت هناك في المقلع الذي يبعد عن هيكل بعلبك نصف ميل. ويسمى هذا الحجر حجر الجنوب، ويزن أكثر من ٢٠٠٠طناً، ولا توجد رافعة في العالم أو أي جهاز رفع آخر في أيامنا الحاضرة بمقدوره زحزحة ورفع هذه الكتل الصخرية الهائلة العِظم في هيكل

بعلبك، بيد أنه تم تقطيعها وتجميعها معاً بدقة مدهشة إلى درجة لا يستطيع المرء إدخال شفرة السكين بين الكتلتين.

وهناك موقع آخر يتميز بالأهمية وبالروعة ويقع على **مرتفعات الجولان** في سوريا العربية.

لقد اكتشف علماء الآثار حديثاً في الجولان خمس حلقات صخرية عملاقة، ويعتقد أنها تعود إلى ألف سنة أقدم من صخور ستونهنج. ويشير الخط الممتد عبر المنطقة حيث تنتشر الحلقات الصخرية إلى الجهة الشمالية الحقيقية. وساد الاعتقاد بأن تحديد الجهة الشمالية الحقيقية يتطلب مهارات هندسية فائقة. وكانوا يعتبرون أن الأقدمين غير قادرين على تحديد مثل هذا الاتجاه، وذلك لعدم إمكانية الوثوق بعلامات الجهات المختلفة التي تجاور الصخور البازلتية.

أما الموقع الثالث فإنه يتجه شمالاً نحو ميتزامور في **أرمينيا** حيث اكتشفه العالم الروسي ك. ميغوتشيان. ويقول العالم الروسي بعد اكتشافه هذا الموقع: إنه أقدم مصنع للمعادن في العالم من حيث حجمه وفعاليته. واكتشف بقربه أنماطاً هندسية. وقد تم حفرها في صخرة بركانية. وتشير إلى ظاهرات فلكية متنوعة. وهناك خط مميز يشير إلى نقطة على خط الأفق حيث بزغ كوكب سيريوس بين ٢٦٠٠-٢٥٠٠ ق.م.

ومما يثير الدهشة حقاً هو وجود موقع ميتزامور على بعد ١٥ ميلا من جبل أرارات وهو الموقع الأرضي الأسطوري والتاريخي الذي يخص الأشخاص الذين ظلوا أحياء بعد الكارثة الكونية والذين ينتمون إلى حضارة ما قبل الطوفان.

- **هل وصل البناؤون في العهد الميغاليثي إلى أمريكا؟**

مع مرور الزمن، أصبح الجدل حول هوية مكتشف أميركا أكثر إثارة واستغراباً، واحتدمت معارك كلامية لسنوات عديدة بين مؤرخين مشهورين، ومناقشات فكرية طويلة الأمد، بالإضافة إلى مقالات في المجلات. كل ذلك، في سبيل الوصول إلى حل نهائي لهذا اللغز المحيّر.

هل هو كولومبوس؟ أم ليف إريكسون؟. وقد طرحت على بساط المناقشة أسماءٌ أخرى، لكنها سرعان ما نبذت، ولم يعد يهتم بها أحد.

ربما يكمن الجواب في مكان آخر.. في موقع «ميستري هيل» في «شمالي سالم» نيوهامبشاير، حيث تنتصب عالياً، وبكل اعتزاز، ٢٢ صخرة ضخمة على قمة تلة يبلغ ارتفاعها ٢٠٠ قدماً. أما منشأ ومدلول هذا الموقع، فقد غشاهما الظلام. لكن عمر هذا المكان الأثري يمكن التعرف عليه. لقد استطاعت اختبارات الكربون ١٤ (وهو إشعاعي) تحديد تأريخ منطقة «ميستري هيل» الذي يتراوح بين ١٢٢٥ و ٨٠٠ قبل الميلاد. وذلك قبل وصول القبائل الهندية التي استوطنت هذه الناحية بمدة طويلة، إنما يوجد شَرْمٌ زمني، وذلك بحكم وجود تعميرات جندلية (ميغاليثية) كما هو الحال في جنوبي أوروبا. لقد تعرضت منطقة «ميستري هيل» لتدمير جزئي في خلال القرنين الماضيين الثامن عشر والتاسع عشر، عندما انتزع مبنى حجري من مكانه، واستخدم لتشييد شبكة مجارير في الجوار.

لقد استخدمت صخور «ميستري هيل» بشكل نظامي متطور في مجالات الممرات تحت الأرض وتعميرات المنهير والدولمن. كذلك تبين حديثاً بأنها تلتزم اصطفافاً فلكياً محدداً. مثلاً، في كل سنة، من اليوم الأول لفصل الشتاء، تبزغ الشمس مباشرة فوق «ونتر مونوليت»، وذلك من خلال إلقاء نظرة من وسط التلة.

هل ترك البناؤون بصماتهم على الشواطئ الرملية عند الساحل الشرقي من أميركا قبل أي شخص آخر؟. يظل التأريخ صامتاً، عندما يطرح عليه مثل هذا السؤال، لكن التلة قد شيَّدها شخص ما، وهي شبيهة للمواقع الميغاليثية في أوروبا، ولم يحصل مثل هذا التشابه بالصدفة.

بيد أن منطقة ميستري هيل ليست نسيجاً وحدها، ذلك لأن مواقع أخرى في الأمريكيتين تحتوي على آثار بدائية (ما قبل التأريخ) أيضاً. اكتشف عالم الآثار ف. أ. ميتشل هِدْجِس جدار أرض محوَّطة، وهو قديم العهد، يبلغ طوله ٨٠٠ ياردة، بالإضافة إلى صخرتين منصوبتين ضخمتين. ويشبه هذا الأثر التعميرات الصخرية في ستونهنج.

يبلغ ارتفاع الصخرة ٧ أقدام تقريباً، وقطرها يساوي ٢,٥ قدماً. كذلك تم اكتشاف العدد الوافر من الصخور المنحوتة بشكل مستغرب. وتبدو أقدم عهداً من حضارات المايا والتولتك والأزتك. وهناك أيضاً اكتشاف آخر مثير للدهشة. حصل ذلك في منطقة لافنتا في فيلاهرموزا في المكسيك حيث توجد صخور المنهير والأجران في اصطفاف واحد. وتشبه إلى حد بعيد مجموعة الصخور المصطفة بشكل مماثل في بريتانيا. وتم اكتشاف صخور المنهير وسواها من الصخور المنحوتة بشكل غير متقن قرب الحصن البدائي (ما قبل التاريخ) في «سكساهويامن» في البيرو. الآثار أيضاً تشبه إلى حد بعيد الآثار التذكارية في أوروبا!.

للأسف لم يهتم المؤرخون التقليديون إلا قليلاً بهذه المواقع الميغاليثية الهامة التي تم اكتشافها في العالم الجديد، علماً بأن الاقتناع بمصداقيتها سوف يؤدي إلى إحراج أصحاب النظريات التقليدية القديمة الذين يرفضون أصلاً التخلي عنها. بكل بساطة يرفضون الواقع التالي: لقد اجتازت فعلاً السلالة البشرية البدائية (ما قبل التاريخ) مثل سلالة الإنسان الميغاليثي المحيط الأطلسي وخلفت آثاراً في أمريكا، بينما لا يستطيع شعب متمدن آخر القيام بمثل هذا الاجتياز.

بمثل هذه الرؤية الضيّقة ينظر المؤرخون إلى الآثار التي تم اكتشافها في آسيا والمحيط الهادي، علماً بأنها بقايا لنشاطات البنائين التي ظهرت في معظم المناطق التي لم يتوقع وجود مثل هذه الآثار في أراضيها.

في الهند تنتشر صخور الدولمن على مساحة تمتد من نهر نِرْبودها حتى كاب كومورين. وفي أدغال نيرمول في الهند الوسطى تم العثور على ٢٠٠٠ أثراً من الآثار التذكارية التي كانت متوارية منذ دهور. وتم العثور على ٢٢٠٠ أثراً في دكا Dacca. كذلك تم العثور على مخلفات أثرية مماثلة في الصين وكوريا وحتى في اليابان. وقد ازداد لغز أعمال البنائين تعقيداً كلما اتسعت الحدود الجغرافية لهذه الآثار. تم العثور على بقايا هيكل ضخم ويُدعى ميتالامين ويواجه بزوغ الشمس (في منتصف الصيف). وتشير الدلائل بأن سكان جزيرة بوناب Ponappe كانوا يناهزون المليونين. أما الآثار التاريخية هذه، فهي شبيهة للآثار

الموجودة في أوروبا وأميركا، وهي مكونة من كتل صخرية ضخمة، وتزن كل واحدة ١٥ طناً. لقد تم نقل الكتل الصخرية من مقلع الأحجار عن مسافة تساوي ٢٠ ميلا تقريباً. ولم يستطع أحد معرفة الطريقة التي استخدمت لإنجاز هذا العمل المذهل !.

هل كان الملاحون بنائين أيضاً؟. يلتزم التأريخ الصمت إزاء هذا التساؤل، لكن الواقع الحسّي يفيد بأن البقايا الأثرية الموجودة على مسافة ٣ آلاف ميلاً من جنوبي شرقي جزيرة بوناب في مالدن في جزر لاين إنما هي الفئة الثانية للآثار المعمارية التي تشبه أصلاً آثار متالامين !! بيد أنه يوجد خرق هام. إن آثار مالدن هي مرتبطة بخط الساحل الصخري المستوعر بواسطة عدد من الطرق العامة المرصوفة بأحجار البازلت (وهي أحجار قاسية داكنة بركانية الأصل). إن مثل هذا الموقف أذهل العلماء وجعلهم عاجزين عن إيجاد حل حاسم لهذا اللغز المحيّر.

ويصيح علم الآثار بنبرة يائسة: «لا يمكن أن تكون هذه الآثار طرقات عامة ! هؤلاء الشعوب لم يملكوا دولاباً !!».

آه ! هل هذا صحيح؟. فهناك آثار أخرى خلفها البناؤون في سواها من جزر الباسفيك، ولكن ما تزال معظمها خاضعة للفحص والاحتفار. على أي حال، نستطيع القول دون أدنى تردد بان أشهر وأعظم الآثار التذكارية في الباسيفيك والتي يكتنفها الأسرار والغموض بشكل مهيب إنما هي هذه التماثيل الغريبة التي تنتصب بصمت هادئ مسالم على صخرة منعزلة.. وتدعى «جزيرة عيد الفصح Easter Island».

- **عدم قدرة حل لغز (الوجوه الصخرية):**

يوجد عدد قليل من القصص السرية الاكتشافية التي تثير البلبلة والارتباك، شأن تلك القصة المتعلقة بالعالم الغربي. حدث ذلك صباح عيد الفصح عام ١٧٢٢م عندما عثر المستكشف الألماني جان روغفين على بقعة صغيرة قرب بحيرة فسيحة في المحيط الهادي. لم يستطع تحديد ذلك على خرائط الملاحين. لقد عمّد اكتشافه الجديد (أي هذه البقعة الصغيرة) باسم «إيستر لاند» أي «أرض عيد الفصح». كان يتوقع اكتشاف كنز ما.

لذلك أرسى سفينته في هذا المكان المنعزل. ثم اجتاز مسافة بضع مئات من الياردات متجهاً نحو الشاطئ الصخري. ولكن تبيّن له بعد فترة وجيزة بأن هذه الجزيرة البركانية إنما هي جرداء. لا توجد أشجار ولا حيوانات (ناشئة فيها). لكنه عثر فقط على بعض قطع من القماش داخل كهوف قرب شواطئ الجزيرة. بدت له ماحلة وموحشة، بيد أنها تنطوي على لغز لا يباريه شيء في أي مكان آخر من المحيط الهادي المترامي الأطراف.

فجأة وقع بصره على مئات من الوجوه الصخرية وقد نتأت من الأرض، وبدت ملامح الوجه خرساء، جامدة، وبدا الأنف مستقيماً، حاداً، والفم مزموماً، والعينان منقورتين غائرتين، والجبين منخفضاً. لقد انتشرت على أرض صخرية وتبعثرت حول مروج من الأعشاب المتبددة، بينما تحدّق بتجهّم وألم من أعلى المنحدرات البركانية.

من صنع هذه الوجوه الغريبة؟ من جاء بها إلى هذا المكان؟ ما هو المغزى الكامن وراء هذا العمل؟. بلا شك، أخذ روغفين يتأملها مع فريقه الاستكشافي بدهشة بالغة.

إنه لمشهد غريب ونادر الوجود. فعلاً.. بالتأكيد.

ليست هذه التماثيل من النوع الذي يمكن نقله إلى أمستردام كغنيمة سفر استكشافي! كانت هذه الوجوه الصخرية الواجمة محاطة بهالة غامضة راعبة كأنها من عالم الغيب، لها هيلة في نفس الناظر إليها، وفيها ما يحدث الخوف كالخوف من الأشباح والجن. بالإضافة إلى عبارات الكمد والكآبة المرتسمة على هذه الوجوه الملغزة. ولا عجب أن أصبحت حديث المستكشف الألماني وسائر البحارة أثناء سفر العودة إلى الوطن الأم.

لقد انقضت الآن على هذه القصة أكثر من ٢٥٠ سنة، وأصبح اسم جان روغفين اسماً مكتوباً على صفحات كتب التأريخ. لكن سر التماثيل الصامتة ما زال لغزاً بلا حل !.

إن اللغز الذي يكتنف تماثيل جزيرة عيد الفصح لا ينتج عن السؤال التالي: ماذا تمثل هذه الوجوه؟، ولكنه ناتج عن ذلك التساؤل الآخر: كيف تم نقل هذه الصخور من مقلع الحجارة حتى طرف البركان رانوراراكو علماً بأن هذه المسافة تبلغ خمسة أميال؟.

في عام ١٩٥٦ زار جزيرة إيستر المستكشف النرويجي ثور هيردال الذي ذاع صيته

بفضل بعثته المعروفة كونيكي. وهناك أشرف على تنقيبات واسعة النطاق بخصوص التماثيل وتأريخها. وحاول أن يكتشف الطريقة التي استعملها البناؤون في نقل وتثبيت هذه الرؤوس الصخرية العملاقة. وكان مقتنعاً أن البنائين كانوا يملكون الطاقة البشرية في حالتها الطبيعية وليس إلا. لذلك اتصل باثني عشر شخصاً من السكان الأصليين في الجزيرة، وطلب منهم استخدام قوتهم العضلية لتحريك الرأس الصخري. ظل هذا الفريق من العمال يجهد نفسه لمدة ١٨ يوماً مستخدماً طريقة البحارة (هيا.. هيا ارفع. وهو هتاف البحارة وهم ينتشلون المرساة من الماء) إلى أن توصلوا أخيراً وبعد جهد جهيد إلى نقل إحدى هذه الرؤوس. واعتبر المستكشف النرويجي هذه النتيجة جواباً لسؤاله. بهذا ذكرت عدة صحف علمية نتائج أعماله واعتبرته قد وصل فعلاً إلى حل في صدد هذا اللغز.

ولكن هل كرر فعلاً العملية نفسها؟ هل كان عمله نسخة طبق الأصل فعلاً؟.

توجد عدة اعتراضات بالنسبة لتجربة هيردال. غاب عن بال الأكثرية من المختصين بهذا الموضوع بأن التمثال الذي اختاره رجال هيردال لتنفيذ هذا المشروع لم يكن المعيار القياسي بالنسبة لتمثال جزيرة إيستر، ذلك لأن وزن كل رأس من رؤوس الجزيرة يتراوح بين ٣٥-٥٠ طناً، بينما الرأس الذي تم نقله بواسطة ١٢ رجلاً من سكان الجزيرة يتراوح وزنه بين ١٠- ١٥ طناً. هكذا، لا يعتبر اعتبار النتيجة مثلاً نموذجياً. من الناحية الثانية، لقد تم نقل الصخرة التي اختارها هيردال إلى مسافة أقل من مائة قدم مجتازين أرضاً رملية ناعمة أي الأرض التي تخص منطقة أناكينا Anakena حيث كان يوجد التمثال. يوجد تناقض واضح بين تربة أناكينا وبقية تربة الجزيرة، ذلك لأن المساحة التي اجتازها الحمالون لنقل الرؤوس الصخرية إنما تتكون من أرض صخرية بركانية، فهي قاسية وغير مستوية.

وإذا كانت هذه الرؤوس قد تم جرُّها فعلاً عبر هذه المساحة التي اقترحها، هذا يعني بأن التماثيل الصخرية لزم أن تخلف وراءها آثار الخراب أو الأخاديد الطويلة التي سببتها هذه الصخور الضخمة الثقيلة. ولكن في الواقع لا وجود لأي أثر يتعلق بهذه العلامات المذكورة.

إن نمط المعدَّات المستخدمة في نقل الصخور، إنما يمثل مشكلة أخرى. لقد استخدم السكان الأصليون الذين اختارهم هيردال الحبال والأعمدة الخشبية وذلك لرفع وتحريك التمثال. ولكن لا يوجد أصلاً في هذه الجزيرة أي نوع من الخشب. عادة تنبت على الجزيرة أشجار الجميز، وذلك لأن بعض السكان الأوروبيين الأقدمين الذين سكنوا هناك قد حملوها معهم. إن سجلات جان روغفين لا تشير إلى وجود أشجار، كذلك الكابتن كوك يتحدث إلى افتقار الجزيرة إلى أشجار عند وصوله إليها. وإذا كان البناؤون قد استخدموا فعلاً الخشب فهذا يعني بأنهم استوردوه من أقرب غابة مجاورة، أي بمقدار ٢٥٠٠ ميلاً. أما بالنسبة للحبال لقد استعمل فريق هيردال في تجربته حبالاً صلبة لا تلين ومصنوعة جيداً وهي من صنع أوروبا. وكان هذا النوع المتين مفيداً بالنسبة لهم، ولحسن حظهم لم يستعملوا الحبال التي كان يصنعها السكان الأصليون من قصبات مغروسة في الطبيعة من جزيرة إيستر، لأنها بالتأكيد لم تكن قوية ولا متينة. بالطبع لم تكن لتصلح لمثل هذه المهمة. كما أن نقل رأس صخري واحد فوق أرض مسطحة ومستوية إنما تختلف طبيعتها بالنسبة لنقل الرؤوس الأخرى إذ لم يكن يعلم هيردال كيف تم نقل الرؤوس الأخرى التي اضطر الحمالون لنقلها فوق جرف صخري، وقد عانوا الأمرين لتنفيذ مثل هذا العمل الشاق. في الواقع يوجد في مقلع رانوراراكو عشرون طناً من التماثيل تم نحت هذه التماثيل قرب فوهة البركان. ثم توجد رؤوس لتماثيل أخرى في الجهة السفلية من البركان أي على مسافة ٣٠٠ قدماً. تم تنفيذ هذه المهمة دون أن يترك العمال أي أثر لذلك. إن الرؤوس الصخرية المثبتة على جوانب الجرف الصخري (آهو – ريريكي) هو أفضل مثال لهذه العملية. هنا يتجه انحدار الوجه الصخري لمسافة ألف قدم بشكل مستقيم نحو البحر، وغالباً ما تكون الرياح عند هذه القمة قوية جداً لدرجة أنها تقذف بالإنسان بعيداً عند هبوبها، بينما تكون تيارات البحر السفلية هائجة وغدّارة بحيث لا يستطيع أي مركب الاقتراب من هذا الصخر، بيد أنه توجد مسطبة ذات ارتفاع يبلغ ٦٠٠ قدماً موضوعة على جدار جرف صخري وتحمل هذه المسطبة علامات تخص ٢٥ طناً من التماثيل. وهذه الأطنان من التماثيل هي بقايا لصخور مطروحة حالياً في قاع المحيط.

لقد استطاع هيردال نقل رأس واحد صغير لكنه لم يستطع تأمين الجواب الذي يتوافق مع الاختبار العلمي. ولكنه لم يكن الأول الذي أصابه الفشل. ففي القرن التاسع عشر زارت جزيرة إيستر السفينة الفرنسية «لا فلور»، لنقل أحد التماثيل إلى باريس. لقد جاءت بخمسمائة رجل لنقل تمثال يبلغ طوله سبعة أقدام ونصف، وهو أصغر رأس في الجزيرة. ويبدو في وقتنا الحاضر مصاباً بالرضرضة ومكسراً بسبب هذه المحنة، ويمكن مشاهدته في متحف الإنسان.

رغم نقل هذين الرأسين، ما زال التساؤل حول هذا اللغز المحيّر مطروحاً: كيف استطاع البناؤون في جزيرة إيستر قطع ونقل ورفع هذه الرؤوس العملاقة بما فيها الرؤوس التي بلغ حجمها بناية مؤلفة من سبعة طوابق؟.

لقد وُجدت عدة نظريات حول الشخص الذي أوجد هذه الرؤوس الصخرية المهيبة، والذي استطاع أن يرفعها في جزيرة إيستر، ولكن لا يوجد أي جواب واضح. لقد نُسِبَ مصدرُها تقريباً إلى كل شخص ينتمي إلى الأشخاص الذين ظلوا أحياء، أي الأشخاص الذين انتسبوا إلى القارات المفقودة في مو Mu والموريا Lemuria وصولاً إلى قبائل البدو في بولينيزيا الذين يُعتقد أنهم نحتوا التماثيل التي تجسّد المخلوقات الممسوخة المونوليتية.

ولكن، أين يكمن الجواب بالتحديد؟!.

ربما نجد الجواب لدى مجموعة من التعميرات الصخرية التي اكتشفها العدد القليل من المستكشفين والباحثين. وهذه التعميرات تبلغ العدد ٣٩ وهي موجودة في جزيرة إيستر في أورونغو Orongo. وكل بنية معمارية تلتزم شكلاً بيضياً، ويبلغ قياسها ٧ ياردة طولاً و ٢ ياردة عرضاً، ويغطيها سقف دائري ويعلوها سقف دائري واطئ. ويوجد أساس هذه الصخور تحت المساحة المستعملة، وتلحقها حلقات من الكتل الصخرية، بحيث تتجه كل حلقة نحو النقطة المركزية حيث تلتقي الجوانب ضمن سقف دائري. إن فرانسيس مازيري أحد الخبراء الغربيين الذي زار الموقع ووصف هذه الآثار تأثر بنقطة واحدة: إن هذه التعميرات الصخرية هي مماثلة من حيث الشكل ومن حيث البنية

الهندسية لتلك التعميرات التي شيدها البناؤون في منطقة البحر الأبيض المتوسط. بالنسبة لهؤلاء الأشخاص الذين يستغربون مثل هذه العلاقة، فهذه هي خاصية أخرى، تبين بأن هذه الآثار لها ارتباط بالتركيبات الهندسية الأوروبية. توجد في موقع أورونغو مخلفات تخص مرصداً شمسياً صغيراً، ويتكون من صخرة منصوبة أو أكثر من صخرة. وكان المراقبون الأقدمون يستخدمونه لاحتساب حركات الشمس. هل كان هذا العمل بداية للعمل الخاص بصخور ستونهنج الذي قد أهمل لاحقاً؟.

لا توجد بيّنة حاسمة، بمعنى أنه لا يمكن التأكد بأن الرجال البدائيين (ما قبل التاريخ) الذين شيّدوا صخور ستونهنج كانوا هم أيضاً المسؤولين عن نحت هذه الرؤوس الصخرية في جزيرة إيستر. ولكن استناداً إلى هذه الأطلال جاز اعتبار الموقعين متوازيين ليس فقط لأنهما مصنوعان من كتل صخرية فقط، ولكن لأن تقنيات التعمير هي مماثلة من حيث طبيعتها المتقدمة.

- **ماذا جرى في تياهواناكو Tiahuanaco؟**

هناك على مسافة ٢٠٠٠ ميل شمال شرقي جزيرة إيستر، عند مرتفعات جبال الأنديز في البيرو، وعلى الشواطئ الرائعة المنظر لبحيرة تيتيكاكا، تنتصب عالياً بقايا مدينة ذات أبعاد قياسية مذهلة، ولا أحد يعرف حقيقة مصدرها. حتى هؤلاء الأحياء الهنود الأقدمين لا يستطيعون التحدث عن تأريخها، ولا عجب إن لزموا الصمت عندما سألهم الغزاة الأسبان حول هذا الموضوع (بعد خوض معركة دموية في هذه المنطقة عام ١٥٤٩م). أياً كان أصل المهندسين، فهم بالتأكيد لا يمتون بصلة مع أيّ واحد من هؤلاء الهنود، ذلك لأن العنصر الغريب واضح جداً من خلال نمط التراكيب المعمارية وكون هذه التماثيل التي تخص «تياهوياناكو» تمثل رجالاً غير عاديين (لهم هيئة غريبة فعلاً) ولهم لحى تختلف عن اللحى التي تتوافق مع وجوه الهنود.

إن المجتمع الذي طوَّر منطقة «تياهويوناكو» بأسرها كان يملك الإمكانيات الكبيرة التي أذهلت الغزاة. إن علماء الآثار الذين درسوا هذا الموقع منذ اكتشافه بواسطة الأسبان استطاعوا أن يستكشفوا خاصياتٍ كان يُعتقد بأنها غير معروفة لدى الأقدمين.

إن أكابانا Akapana أو تلة الذبائح، وهو أحد الهياكل الثلاثة الهامة، وهو عبارة عن هرم أجلح (مجزوم الرأس) يبلغ ارتفاعه ١٦٧ قدماً ويبلغ قياس قاعدته ٤٩٦× ٦٥٠ قدماً، أما الجوانب المتداعية لهذه البنية الضخمة فهي مربعة الشكل بصورة متكاملة تماماً مع الخوافق أو الجهات الأصلية الأربعة (وهي الشرق والشمال والغرب والجنوب) مما يؤكد على وجود خاصية مشتركة مع سائر العمارات الضخمة التي تم العثور عليها في العالم أجمع بما فيها الهرم الأكبر في الجيزة.

إن عمليات السلب المدمر الذي قام به الغزاة الأسبان قدمت دلالات توضيحية بحيث يمكن استخدامها كمفاتيح لكشف هذه الأسرار المتعلقة بالسكان القدامى علماً بأن كوارث الزمن قد قامت بتنفيذ ما تبقى من هذا العمل. تبدو لنا اليوم المساحات الجانبية لهيكل أكابانا غير مستوية ومتصدعة. إن القطع الصخرية العريضة المسطحة التي خصصت لوقاية هذه التلة قد انتزعت واستخدمت في تنفيذ مشاريع تعميرية أخرى، وهناك درج حجري ضخم كان قديماً يلتف حول التلة قد لقي نفس المصير إذ أصبح ضحية لتخريب همجي ومخز. اليوم لم يبق في هذا الهيكل سوى عدد قليل من الدرجات.

إن نظام الخزان االذي استعمل سابقاً وكان يعلو هيكل أكابانا إنما يشير إلى الدرجة العالية من التطور لدى البنائين. ما تزال تلك التلة تشير إلى الدقة الهندسية الفائقة في التصميم وبالأخص فيما يتعلق بتشييد القنوات الحجرية والأنابيب الخاصة بالمياه، وقد تم تشييدها استنادا إلى نمط تدرجي وذلك لصيانة الهيكل من فيضان المياه. لقد عثر على أنابيب مماثلة منتشرة عبر منطقة تياهواياناكو مما يجعلنا نعتقد بأن المدينة كانت تمتلك شبكة من مصارف المياه الكاملة والإمدادات بالماء أو شبكة المجاري.

على بعد ١٠٠٠ قدم شمالي أكابانا يوجد هيكل كوريكنشا أو هيكل الشمس. ويرتكز على مصطبة صخرية يبلغ ارتفاعها عشرة أقدام. ويبلغ مقياس القاعدة ٤٤٠ ×٣٩٠ قدماً. ويتكون من كتل صخرية، ويتراوح وزن كل كتلة بين ١٠٠-٢٠٠ طناً. وقد تم تشييد جدران الهيكل بكتل صخرية حيث يبلغ وزن كل واحدة ٦٠ طناً بينما تزن كل درجة من هذا الدرج الحجري ٥٠ طناً. وهناك وحدات تركيبية مكونة من ٢٠٠ طناً من

الكتل الصخرية، وتنبسط بشكل غير منظم في مكانها الطبيعي.

بهذا تعتبر منطقة تياهوياناكو المكان الذي تلتقي فيه التناقضات والأشياء المستحيلة. إن الأشياء التي لا يمكن حدوثها قد حدثت هنا فعلاً. من المذهل حقاً وجود مثل هذه المدينة: إن العاصمة هذه قد تم تشييدها فوق مستوى البحر وعلى ارتفاع ١٣٠٠٠ قدماً ويكون ضغط الهواء عند ذلك الارتفاع ٨ باوند فقط في الإنش المربع قياساً إلى ١٥ باونداً (رطلاً) عند مستوى البحر. إن الهواء الفقير بالأوكسجين الرقيق يجفف الحلق والأنف، وحتى أقل إجهادٍ بمقدوره أن يسبب الغثيان والصداع وأحياناً النوبة القلبية. بالإضافة إلى ذلك لا يمكن أن تنمو هناك على هذا الارتفاع أي نوع من حبات الزرع. هذا يعني أنه لم يكن يوجد غذاء محلي لتأمين الطعام لهذا الفريق الضخم من العمال. رغم ذلك، وتحت هذه الظروف العدائية والتي تهدد الحياة نفسها، استطاع البناؤون أن يستخدموا المئات من هذه القطع الصخرية العريضة المسطحة والتي يبلغ وزن كل واحدة منها ٢٠٠ طناً، استطاعوا تثبيتها جميعاً في مواقعها المحددة مسبقاً.

لقد تم اكتشاف مواقع المقلع الحجري في جزيرة في بحيرة تيتيكاكا، لكنها كانت قرب الشاطئ الذي يقابل كوريكانشا. بهذا كانوا مضطرين لنقل الصخرة عبر مسافات تتراوح بين ٣٠ -٩٠ ميلاً. إن تحرك الأشياء الكتلوية الثقيلة جداً في الهواء الخفيف من حيث الكثافة، والتي تنقل عبر هذه المسافات الطويلة، هو أمر غير ممكن بالنسبة للقوة العضلية. ولكن رغم ذلك تم نقل الصخور. وقد وجدت مكانها الثابت في تياهوياناكو. إذا كانت الطاقة العضلية غير كافية لإنجاز هذا العمل الضخم إذا ما هو الشيء الذي تم استخدامه فعلاً؟.

● **لغز قلاع منطقة الأنديز:**

لا تعتبر منطقة تياهوياناكو الوحيدة من نوعها، ذلك لأنه يوجد العديد من القلاع في أرض الأنديز ذات تصميم مماثل، وكلها سبقت تأريخياً عصر شعب الأنكا القدامى. ولكن هذه المرحلة الزمنية ما تزال مجهولة بالنسبة لنا.

في تشيلي توجد ٢٣٣ كتلة صخرية، وقد رُكزت هندسياً بشكل مدرج مسرحي

Amphitheatre. وتلتزم الكتل الصخرية شكلاً مستطيلاً، والبعض منها يبلغ عرضاً ١٢ قدما وارتفاعا ١٦ قدما، ويتراوح طولها بين ٢٠-٣٠ قدما بينما يبلغ وزنها عدة مئات من الأطنان. كما هو الحال في تياهوياناكو لقد تم العثور على منصات صخرية عملاقة، كذلك تم العثور على منصات مماثلة بين الأطلال وكل واحدة يبلغ وزنها عشرة أطنان.

وجاز الاعتقاد أن أهم اكتشاف تمَّ فعلاً في منطقة الإنلاد ريلادو El Enladrillado، وهو عبارة عن ثلاثة صخور منصوبة عند محور سهل مرتفع، وكل صخرة يتراوح قطرها بين ثلاثة وأربعة أقدام. وتشير القياسات إلى أن صخرتين منها مصطفتان تماماً وفقاً لجهة الشمال المغناطيسي بينما تشير الصخرة الثالثة إلى طلوع الشمس في منتصف الصيف. هل كان هؤلاء البناؤون أنفسهم في هذا المكان أيضاً؟.

عند الجهة الشمالية في أولانتيتامبو Ollantaitambo في البيرو توجد قلاع أخرى تنتمي إلى ما قبل شعب الأنكا. وتتكون جدرانها الصخرية من كتل ضخمة، ويتراوح وزن كل واحدة ما بين ١٥٠-٢٥٠ طناً. ومعظم هذه الكتل مصنوعة من حجر الأنديزيت Andesite حيث تقع مقالعها عند قمة جبل يبعد مسافة سبعة أميال. على أي حال، لقد نحت وثبت الصخرة الضخمة بناؤون مجهولون في أولانتيتامبو على ارتفاع عشرة آلاف قدم (مستخدمين أدوات العمل بحيث لا نستطيع تحديد طبيعتها إلا حدساً، جاز أن تكون من الأدوات القادرة على اختراق مثل هذه الصخرة الصلبة جداً) ثم نزلوا بهذه الكتل التي يبلغ وزنها ٢٠٠ طناً نحو سفح الجبل، ثم يجتازون النهر الذي ينساب في وادٍ ضيق عميق ويمتد طوله ٢٠٠٠ قدماً ثم يرفعون مرة أخرى هذه الكتل في اتجاه سفح جبل آخر ليضعوها أخيراً ضمن مساحة القلاع.

في هذا الصدد يقول العالم بالآثار القديمة حيات فيريل Hyatt Verril (وهو من أمريكا الجنوبية) لا يستطيع أي فريق من الرجال، ومهما تضاعف عدده، أكانوا هنوداً أو غير ذلك من إنجاز مثل هذا العمل العظيم البارع بواسطة أدوات صخرية فقط أو بواسطة أدوات معدنية خام (في حالتها الطبيعية) والحبال والدحاريج والقدرة العضلية. ويضيف فيريل موضحاً: **لا يتعلق الموضوع بالمهارة والصبر والزمن. إنه من المستحيل**

البشري. هل من المعقول أن يوجد نمط أعلى من التكنولوجيا البدائية (ما قبل التاريخ) قد استخدمها البناؤون بينما نحن لا نعرف شيئاً عنها؟!.

إن من أشد الأمور غرابة بخصوص لغز قلاع الأنديز هو حصن ساكساهيومان الذي يقع في ضواحي العاصمة كوزكو (وهي عاصمة الأنكا القديمة). إنه يقع على سفح جبل اصطناعي ويبلغ ارتفاعه ١٢٠٠٠ قدماً ويتكون من ثلاثة خطوط خارجية من الجدران العملاقة ويبلغ الطول ١٥٠٠ قدماً والعرض ٥٤ قدمًا، وتحيط بمساحة مبلطة حيث تحتوي على بنية صخرية دائرية ويُعتقد بأنها التقويم الشمسي. وتحتوي الأطلال على خزان مياه سعته مقدار ٥٠ ألف غالون وصهاريج للتخزين وألواح مائلة لإنزال البضائع أو إصعادها، وقلاعاً وحجرات تحت سطح الأرض.

إن المبنى الحجري في ساكساهيومان عمل ملفت للنظر حقاً. إن عمال الحجارة يظهرون هنا براعة فائقة في تركيز الكتل الحجرية التي يتراوح وزن كل واحدة منها بين ٥٠-٣٠٠ طناً، ووضعها ضمن أنماط مُعقدة. مثلاً هناك الكتلة الصخرية الموجودة في أحد الجدران الخارجية، وتم تقطيع جوانبها بدقة بحيث تتلاءم تماماً وتتوافق مع ١٢ كتلة صخرية أخرى، وهناك كتل صخرية أخرى تم تقطيعها إلى ١٠ جوانب و ١٢ وحتى ٣٦ جانباً. بيد أن جميع هذه الكتل متداخلة ببعضها بدقة مدهشة بحيث لا يستطيع المرء إدخال أية أداة بينها. وأهم من ذاك وذاك هو الواقع التالي: إن جميع البناء الهندسي الصخري هذا في سكساهيومان قد تم تشييده بدون مادة الإسمنت أو اللياط.

كذلك يظل لغز الحصون تماماً كما هو الحال بالنسبة للغز القلاع المذكورة، يظل أمر نقل صخور سكساهيومان محيرًا وبدون جواب حتى الآن. إن منطقة سكساهيومان تطرح علينا ألغازاً عديدة. وهذا ما جعل أقلية من المؤرخين التقليديين يهتمون بها وتكريس الدراسة المتواصلة وذلك بسبب طبيعتها المستحيلة.

وعلى بعد بضع مئات من الياردات عن المجموعة التعميرية لسكساهيومان توجد كتلة صخرية وحيدة تم نحتها من سفح الجبل، وتم نقلها لمسافة محددة قبل التخلي عنها. يبدو بأن زلزالاً أرضياً أوقف مثل هذا العمل بالنسبة للحمالين، ذلك لأن الصخرة كانت

مقلوبة رأساً على عقب وقد تحطمت في أماكن عديدة. إنها تحتوي على درجات ومصاطب وثقوب ووهاد أخرى، وتمثل مهارة فائقة من حيث الدقة في التقطيع والتضبيط. وهذا يعني أنها كانت مخصصة كي تكون جزءًا من الحصن المنشود. إنما يبدو الأمر مستحيلاً فيما يتعلق بالكتلة الصخرية كونها تبلغ حجماً يعادل منزلاً من خمسة طوابق ويبلغ وزنها ٢٠ ألف طناً تقريباً. في وقتنا الحاضر لا نملك أية أداة آلية تستطيع زحزحة مثل هذا الوزن أو نقله إلى أية مسافة معينة. ويشير الواقع إلى أن البنائين الذين عملوا في سكساهيومان استطاعوا أن يحركوا وينقلوا مثل هذه الكتلة الصخرية العملاقة نظراً لبراعتهم وتفوقهم التكنولوجي.. تلك البراعة التي لم نبلغ مستواها بعد.

- **خطوط وادي نازكا NAZCA:**

تنطوي منطقة الأنديز على عدة آثار تعميرية قديمة مدهشة حقاً، وليست مبنية جميعاً بالصخور التي تم نقلها عبر مسافات لا يتصورها العقل. هناك في مكان غير بعيد عن المحيط الهادي في تلال البيرو عند أسفل الجبل من منطقة الأنديز وعلى مسافة ٢٥٠ ميلاً جنوبي ليما تقع المدينة التأريخية نازكا. إنها تتميز بأهمية أثرية بالغة، بيد أن قيمتها الحقيقية لا تقتصر على رفاة الموتى بل تتعداها إلى ما يحتويه الوادي: يوجد قطاع في أرض صحراوية تبلغ طولا ٣٧ ميلا ويبلغ عرضها ميلًا واحدًا. هناك تغطي كل فدان في وادي نازكا رسومات ضخمة وقد تركت في هذا المكان ونبذت على أرض صحراوية. فهي عبارة عن خطوط مرسومة في جميع الاتجاهات. فسحات متطاولة، أشكال حلزونية، خطوط متعرجة، طيور، عناكب، قرود، حيات، أسماك.. الخ. ويتبين بأن هذه الخطوط وهذه الأشكال ظلت على حالتها الطبيعية لحقبة طويلة جداً دامت عدة قرون، علماً بأن معظم المسافرين الذين قاموا بهذه السفرة الطويلة الشاقة عبر هذا الوادي لم ينتبهوا إلى هذه الرسومات، ربما لأن الحصى من الغرانيت التي كانت تغطيها جعلتها مخفية عن الأعين.

لزم انتظار عام ١٩٣٩م حتى ينتبه الناس إلى وجود رسومات نازكا، وذلك عندما حدثت أول رحلة تجارية بالطائرة فوق منطقة الأنديز. وعن طريق الرؤية الجويةاستطاع

المرء تحديد هذا الموقع. لقد كانت غير واضحة على الأرض ولكنها بدت واضحة من الجو. لقد كانت واضحة بشكل كاف بحيث استطاع رواد الفضاء على متن سكايلاب Skylab التي كانت تدور حول الأرض على ارتفاع ٢٧٠ ميلاً أن يشاهدوها بجلاء تام. بيد أنه لا يوجد جبل عال أو هضبة أو أية نقطة طبيعية أخرى مرتفعة عن الأرض قرب هذا المكان بحيث يستطيع الفنانون في نازكا رؤية هذه الرسومات من زاوية المنظور الحقيقي. إذاً لماذا تم صنعها؟. هل تخدم هدفاً ما؟ هل كان الفنانون يجيدون فن الطيران؟.

لقد بدأت الدراسة المفصلة الأولى حول لغز نازكا عام ١٩٤٦م بواسطة العالمة الفلكية الألمانية المختصة بالآثار الدكتورة ماري ريخ Marie Reiche التي كرست علمها في السنوات العشرين اللاحقة في الإشراف على دراسات مسحية دقيقة مختصة بالرسومات وبتفحص مدلولاتها. لقد ركزت ماري ريخ اهتمامها على هذا العدد الوافر من الخطوط التي تحتوي على اتجاهات متقاطعة في الوادي. لقد تبين لها بأن معظم هذه الخطوط تلتزم وجهة مستقيمة وتمتد هكذا حتى مسافة خمسة أميال وبعض الخطوط الأخرى موازية لبعضها البعض، وسواها تلتقي معا في نقطة واحدة بصورة تدريجية، بينما تنتشر خطوط أخرى على شكل أشعة من نقاط محددة نحو تلال صغيرة من الصخور الضخمة. واكتشفت ماري ريخ بأن الخطوط التي تبدو أنها تلتزم خطاً مستقيماً عند سفوح الجبال وتنبثق في الجهة الأخرى إنما تتقيد باصطفاف تام وفقا لمستوى واحد. وعندما تم فحص درجة المصداقية بخصوص خطوط نازكا استناداً إلى معدات قياسية عصرية، صدرت ملاحظة مفعمة بالدهشة والذهول: لم يكن معدل الخطأ أكثر من ٩ دقائق للقوس ولم يبلغ الانحراف إلا ٤,٥ ياردة في الميل الواحد. هذا يعني بأنه لا يمكن الحصول على مثل هذه الدقة إلا بواسطة المسح بالتصوير الفوتوغرافي Pgoto-grammetric Survey (أي بقياس المساحات عن طريق صور تؤخذ من الجو).

بكلمات أخرى، لقد تم تنفيذ الخطوط القديمة استناداً إلى اتجاه مستقيم جداً بحيث يمكن قياسها بواسطة أفضل التقنيات المسحية الحديثة. وصرحت د. ماري ريخ قائلة: «المختصون بالتصميمات الفنية فقط قادرون على تمييز هذا الإنجاز الكامل الخاص

بأعمالهم الإبداعية الشخصية من الجو. هذا يعني بأنهم حلقوا في الجو قبلاً ورسموا ذلك استناداً إلى مقياس أصغر. كم كانت قدرتهم فائقة لوضع كل خط في موضعه الصحيح والتزام الاصطفاف الدقيق على امتداد شاسع. إنه لغز محير بحيث يتوجب علينا انتظار السنوات العديدة لإدراك الحل المطلوب».

في اعتقاد د. ماري ريخ وسواها من الطلاب المختصين بلغز نازكا، أن بعض هذه الخطوط تم تركيزها استناداً إلى اصطفاف، وفقاً لحالات بزوغ وغروب الشمس والقمر ولعدة كواكب متوهجة. بالفعل إن الدراسات الاستقصائية الحديثة تشير بأن ٣٩ خطاً متجهة أصلاً نحو أحداث شمسية أو قمرية وهناك ١٧ خطاً مترابطة مع الكواكب. لكن هذا الأمر يتعلق فقط بعدد صغير. إن أغلبية الخطوط تملك مدلولاً فلكياً ويظل هدفها لغزاً محيراً حتى الآن.

- **فنانو النازكا – معلوماتهم حول العالم:**

صحيح أن هذه الخطوط هي في غاية الغرابة، لكن تفاصيل عدة أنماط حيوانية محفورة بالحوامض على أرض وادي نازكا Nazca هي أيضًا غريبة في بابها. ومما يثير الاستغراب فعلاً، صورة العنكبوت الذي يبلغ طوله ١٥٠ قدماً، وقد تم رسمه بواسطة خط متواصل واحد بطول يساوي ميلاً ونصف ميل. ومما يميز هذا العنكبوت هو مظهر أحد أرجله، الذي يبدو أطول من سواه ومنبسطاً. وعند طرف الرجل توجد فساحة صغيرة بارزة للعيان. هناك عنكبوت واحد، الذي يستخدم طرف الرجل الثالث، تماماً كما وصف ذلك الفنان في الرسمة الصحراوية، ويعرف هذا النوع العنكبوتي باسم ريسينوليي Ricinulei الذي يعيش في أعماق الكهوف في أدغال الأمازون التي تبعد مسافة ألف ميل عن منطقة نازكا. إن طريقته الفريدة في الجماع الجنسي معروفة فقط لدى العلماء، بحيث يستخدم رجله المنبسطة بهذه الطريقة المبيّنة رسماً، ولا يفعل ذلك سوى العنكبوت ريسينوليي، وذاك النوع نادر جداً. لا يمكن ملاحظة مثل هذا النمط من التوالد إلا بواسطة المجهر البصري. كيف استطاع فنانو النازكا العثور على هذا النموذج الصغير جداً، ثم مراقبته؟. نجهل ذلك، إلا إذا نسبنا إليهم معرفة علمية تعادل معرفتنا بالذات.

توجد دلالات عديدة، وليدة الرسمات الحفرية (باستعمال الحوامض) في الوادي، وكذلك وليدة خزفيات نازكا التي تم اكتشافها في هذه الفساحة الصحراوية. وتفيد بأن الفنانين القدامى كانوا واقفين على حقائق الأمور التي تخص الكون. ما وراء آفاق نازكا.

هناك رسمة صحراوية تصف قرداً ذا أطراف نحيلة وقد تم تثبيت هويته، فتبيّن أنه قرد الشبّث (Spider monkey وهو قرد أميركي بأرجل طويلة جدًا وذيل طويل يتشبث به على الشجر ورأس صغير – المترجم). ويعيش هذا الحيوان أيضاً في مجاهل الأمازون القصية.

وتوجد على فضالة من إناء خزفي في نازكا صورة مميزة للحيوان الأكتع ذي الصدر الأبيض والعطف الأسود. والمعلوم بأن الموطن الأصلي لهذا النوع من الحيوانات هي منطقة القطب الجنوبي (وهي متجمدة تماماً)، وتبعد عن هذا المكان مسافة ٦٠٠٠ ميلاً، رغم أنه يعيش حالياً في جزر غالاباغوس.

هل يستطيع فنانو نازكا رسم مثل هذه الطيور دون رؤيتها فعلاً؟.

إن الصورة الأكثر استغراباً هي الصورة التي تم اكتشافها على قطعة خزفية أخرى من خزفيات نازكا، وتمثل وجوهاً لخمس فتيات: بيضاء وحمراء وسوداءوسمراء وصفراء. ولم يتم اختيار هذه الألوان اعتباطاً، علماً بأن سلالات البشر جميعاً قد تم تمثيلها بوضوح في هذه الصورة. تبيّن لنا صور الوجوه بأن أهل نازكا يملكون معرفة مختصة بالنماذج التي يعتمدون عليها في عملهم الفني، بمعنى أنهم يعرفون كل فئة عرقية في العالم أجمع. هل كان يوجد اتصال كوني وقتذاك يماثل اتصالاتنا الحالية؟. هل هذا معقول؟.

ومع تطور دراسة موضوع نازكا تزايد عدد الأسئلة التي بات بالإمكان الإجابة عنها. متى تم تنفيذ رسمات نازكا؟. لقد تم اكتشاف خشبة منصوبة عند تقاطع خطين من النازكا. وقد أظهر الكربون ١٤ تاريخ هذا الأثر وهو عام ٥٠٠ بعد الميلاد. استناداً إلى ذلك، حدد المؤرخون التقليديون (العُرفيون) تأريخاً نسبياً بخصوص رسمات نازكا ويتراوح بين ٢٠٠ م و ٧٠٠م. ولكن لا أحد يعلم إذا كانت هذه الخشبة المنصوبة قد وضعت في مكانها هذا أثناء تنفيذ الخطوط أو بعد الانتهاء منها؟. بهذا جاز القول بأن عهد

هذه الخطوط يعود إلى آلاف من السنين. كيف تم تشييدها؟. إن دقة هذه الرسمات (بمعنى سلامتها من الخطأ) التي تمتد على هذه الفساحة الكبيرة إنما تشهد على مهارة هندسية تستدعي الانتباه. وقد ساد الاعتقاد بأن مثل هذه المهارة لا يمكن أن تنسب إلى أي شعب قديم العهد. لا يتعلق الأمر بالمعرفة المتقدمة وحسب، ولكن بطبيعة هذا الإنجاز أيضاً: تخطيط المشروع قبل تنفيذه planning، التنظيم الهندسي، تشييد الرسمات. كل ذلك استوجب طاقات عدد وافر من العمال. لا يوجد ماء، ولا طعام، ولا مأوى في أي مكان في الوادي الصحراوي في نازكا. لا يوجد شيء من هذا القبيل لتأمين ضروريات العيش لمثل هذا التعهد الهام. إذن كيف تم إنجازه؟. وهناك السؤال الأكثر حيرة وارتباكاً: لماذا؟. لماذا نفذت هذه الرسمات في المكان الأول؟. حتى الآن لا نملك أي جواب.

● **الهرم العظيم — اللغز العظيم:**

لا يعقل مناقشة المعرفة العميقة الخاصة بالقدماء دون التفكير حصراً بأرض أمون رع. إني أتذكر المطالعات التي لا حصر لها في علم الآثار المصرية القديمة، كذلك المناقشات الحامية حول مهمة الآلهة في التاريخ المصري. إني أتذكر أيضاً الليالي الشتوية الطويلة في الغرفة المخصصة لدراسة الآثار المصرية القديمة في الجامعة. عندما أحرزت تقدماً شاقاً طريقي عبر كتاب «القواعد المصرية» للسير ألن غاردنر، محاولاً حل الرموز السرية للنصوص الجنائزية المزخرفة المسروقة من قبور الفراعنة ومن نبلاء مصر. ولكني لم أكن أتوقع مثل هذه الرؤية المذهلة التي شاهدت فيها للمرة الأولى الأهرامات من أعلى ظهر الجمل المترجح.

لقد وقفت وجها لوجه مع شاهد التاريخ والمعروف باسم هرم الفرعون خوفو. إنها تجربة لا مثيل لها. وقفت على هضبة صخرية تبعد عشرة أميال غربي مدينة القاهرة العصرية، وغير بعيد عن منازل الجيزة بدا لي هذا الهرم العظيم الصامت وقد مرت أمامه عدة معارك جرت جميعاً تحت ظله خلال تاريخه الذي يمتد إلى خمسة آلاف سنة. ولكن في اعتقادي أن أكبر معركة بين هذه المعارك جميعاً هو هذا التناقض الدائر بحماس شديد بين



المؤرخين التقليديين العرفيين من ناحية وعلماء الآثار وخبراء الإحصائيات والمؤرخين المتحررين من الآراء التقليدية من ناحية أخرى. احتدمت المعركة حول الأسئلة المتعلقة بضريح فرعون. وكلما تقدم الزمن كلما أصبح هذا الراقد العملاق أكثر غموضاً ولغزاً ومهابة.

إن الأسئلة التي تجابه العلم بخصوص ضريح الفرعون خوفو متعددة، وجميعها ترتبط بمفهوم التشييد الخاص بكتل صخرية يبلغ عددها ٢,٣٠٠,٠٠٠ ونسبة وزن كل واحدة ٢,٥ طناً. ويبلغ وزن أكبر صخرة وقد تم كشفها في سقف حجرة الملك، وهي غرفة مظلمة، فيها رائحة عفنة، قائمة في قلب البنية التعميرية ويتجاوز وزن كل كتلة صخرية سبعين طناً. بحكم مقارنة الكتل الصخرية مع المقالع في مصر، استطعنا أن نؤكد النظرية التالية: لقد تم نقل الصخور إلى هذا الموقع من على بعد بضعة أميال من المقطم ومن أماكن تبعد عن الموقع نفسه ٥٠٠ ميلاً جنوباً في أسوان.

هنا أيضاً نجابه مشكلة معينة عندما نتعقب آثار البنائين. كيف تم نقل هذه الكتل الصخرية إلى موقع البناء. كذلك كم استلزم من العمال لنقلها وكم استغرق ذلك من الوقت؟.

إن التخمين غير كاف لتأكيد الحقيقة المتعلقة بهذه النقاط الفاصلة، ذلك لأن هذه المسائل حقيقية. إني أتذكر من خلال دراساتي الأولية بأن المؤرخين التقليديين العرفيين فجّروا المجموعة نفسها من الأجوبة: إن الكتابات المنقوشة على عدد من الكتل الصخرية المنسوبة إلى بناء الهرم إنما هي مخصصة للفرعون خوفو في عهد السلالة الحاكمة الثالثة في المملكة القديمة. لقد دام حكمه ٢٢ عاماً فقط. هذا يعني بأن مثل هذا البناء يستلزم فترة زمنية أكبر. لقد تم نقل الكتل الصخرية على زلاجات خشبية أو جعلها العمال تطوف وتتجه نزولا عبر نهر النيل على عوامات خشبية. وساد الاعتقاد بأن ١٠٠ ألف رجل يعملون لمدة ٢٠ سنة قادرون على تنفيذ مهمة بناء الهرم.

هل هذا وهمي؟.

بالنسبة للمؤرخين لا يعتبر هذا الأمر وهمياً. هكذا يعتقدون وهذا هو الاعتقاد

السائد. على أي حال، هل يستطيع المرء أن يتوقع فعالية عظيمة من أمة تعتبر رعيتها بدائية ولم تتجاوز إلا الخطوة الواحدة من حدود مرحلة رجل الكهف. إن مثل هذا الرأي يمكن الوثوق به ظاهرياً بالنسبة للمؤرخين، ولكن مثل هذا الحل البسيط لن يكون قادراً على إيجاد تفسير حاسم لمثل هذه المسائل البارزة.

إن المؤرخين مختصون فقط بالتأريخ وليس بفن التعبئة اليدوية. هنا يكمن الجواب فعلاً.

لنلق نظرة على بعض الإحصائيات القاعدية. إذا افترضنا أن عدد ٢,٣٠٠,٠٠٠ كتلة صخرية قد وضعت في الهرم في مدة زمنية تساوي ٢٠ سنة مما يعادل ٧٣٠٠ يوماً. هكذا وجب علينا الاعتماد على هذا الافتراض الذي لا يصدق! يجب وضع ٣١٥ كتلة صخرية في يوم واحد أو ٢٦ كتلة صخرية في ساعة واحدة خلال ١٢ ساعة عمل يومياً. ومع ١٠٠ ألف رجل، وهم يستخدمون معدات للبناء الأكثر تطوراً في يومنا الحاضر لا يستطيعون مع المهندسين منافسة هذا الإنجاز البدائي. بالإضافة إلى ذلك هناك تسعة أشهر من السنة والمخصصة عادة للزراعة والحراثة والحصاد. هذا يعني بأنهم كانوا يصرفون فقط ثلاثة أشهر من السنة في تعمير الموقع. ولو اعتمدنا على المعدل الاستثنائي الذي يساوي ٣١٥ صخرة يوميًا هذا يعني بأنه يستلزم وقتًا من بناء الهرم يساوي ثمانين سنة وليس عشرين سنة.

إن عالم الآثار المصرية المشهور فليندرز بيتري قد افترض النظرية التالية: ثمانية رجال قادرون على التعامل مع عشرة كتل صخرية، ويبلغ وزن كل كتلة ٢,٥ طناً في مدة تعادل ثلاثة أشهر. ومع استخدام الحبال والرافعات الخشبية فقط يتوجب عليهم صرف مدة زمنية تساوي ستة أسابيع لجذب الصخور بعيداً عن المقلع وأسبوعاً إضافياً لتعويمها في نهر النيل وستة أسابيع أخرى لجرها حتى قاعدة الهرم. ثمانية رجال ينقلون عشرة كتل صخرية. هذا يعني بأن ١٠٠ ألف رجل قادرون على نقل ١٢٥,٠٠٠ كتلة صخرية في السنة، وذلك لتنفيذ مشروع البناء الكتلوي في المدة المقترحة آنفاً أي عشرين سنة. لكن هذا الأمر يستوجب زيادة عدد الكتل الصخرية حتى رقم ١٥٠٠ كتلة في اليوم الواحد.

فهذا أمر مستحيل كلياً حتى ولو اعتمدنا على القياسات النموذجية الحديثة !.

إن طاقة الإنسان هي ميدان آخر فيها يتعلق بالمسألة. إن ١٠٠ ألف رجل عامل كما ذكرنا ذلك أعلاه، إنما هو حجم مقدر فقط بالنسبة لطائفة الحمالين. بالإضافة إلى هذه هناك الطائفة الأخرى من الحجارين في المقالع، والذي يبلغ عددهم تقديرياً ١٠٠ ألف رجل، كذلك ١٠٠ ألف بنّاء في الهرم نفسه وأيضاً ١٠٠ ألف مهندس معماري ومخطط مساحة ومناظر، و ٢٥٠ ألف امرأة وغلام لتحضير وجبات الطعام ولتهيئة وترتيب المساكن مع قوة حرس للمحافظة على النظام و ٣٠٠ ألف حارس يراقبون العمال ويشرفون على النظام بينهم. إننا نتحدث عن مشروع يتطلب تقريبًا مليون شخص ضمن إطار التعمير الإجمالي. هذا يعني بأن نسبة تتراوح بين ثلث ونصف مجموع السكان في جميع بلاد مصر قد وظفت في العمل، وذلك في عام ٢٧٠٠ق.م تقريباً. هل يبدو مثل هذا الأمر معقولاً نوعاً ما؟.

في الواقع كلا. مع ذلك هذا ما نتعلمه حالياً في جامعات العالم برمته. هل تستطيع طاقات مليون من الشعب أن تلبي الطلب باستمرار سنة بعد سنة ولمدة عشرين سنة؟. هل هذا أمر يصدَّق فعلاً؟. للمصداقية حدود.

يعتقد بعضهم بأن العمال كانوا عبيداً، ولم يحطوا من قدر القوة العاملة المصرية. ولكن هنا أيضاً ما نزال نتخبط في رمال متحركة. إن هيرودوت الذي زار مصر في الأزمنة القديمة ودوَّن تأريخها يخبرنا أن المصريين كانوا يقبضون أجورهم لقاء خدماتهم في تشييد الإهرام بالقمح والبيرة وسواها من المواد الغذائية. من هو الحاكم الذي يستطيع أن يدفع لمليون عامل لمدة ثلاثة أشهر من السنة ولمدة عشرين سنة دون أن يصاب بالإفلاس؟. وكيف يتسنى له الحصول على هذه الكمية الهائلة من الطعام كي يدفعها لهؤلاء العمال؟.

إن المصدر الذي نستقي منه معظم معلوماتنا حول تاريخ مصر هو النقوشات الهيروغليفية والرسومات الموجودة على الضريح. مؤرخون عرفيون عديدون يستخدمون هذه الرسومات لتأييد رأيهم المتردد والقائل بأن تشييد الكتل الصخرية لأجل الإهرامات إنما قد تم جذبها أو تعويمها أو استخدام العمال الطريقتين معاً. ولتأكيد ما ذهبوا إليه

يشيرون إلى الرسومات الضريحية، مثلاً رسومات ضريح السلالة الحاكمة الثانية عشرة للرجل النبيل جيحوتي حوتب، أما الرسمة الأخرى فموجودة في الحرم المأتمي للملكة حتشبسوت. يشير الأول إلى تمثال قد تم نقله على زلوجة خشبية بواسطة ١٧٢ رجلاً عبر أرض رطبة، والصورة الثانية تشير إلى وجود عدد من القوارب الملكية التي تخص الملكة حتشبسوت استخدمت لتعويم صخور المسلة الحجرية. ويبدو أن كل مركب (مسطح القعر) مخصص لنقل وزن يساوي ١٥٠٠ طناً.

يبدو من الناحية الظاهرية بأن هذه المواد المستعملة تلائم تماماً موقف المؤرخين. لكن الفحص الدقيق لهذه الوقائع الحسية تجعلنا نرفض ذلك. إن اعتراضنا مبني على النقطة التالية: لقد تم تنفيذ رسومات الضريح بعد تشييد الهرم بمدة طويلة تصل إلى ألف سنة. ربما استخدمت الزلوجات والقوارب المسطحة القعر لنقل أغراض ثقيلة في عهد الأسرة الثانية عشر وما بعدها، ولكن موضوعنا يتعلق بالطرائق التي استخدمت في عهد الأسرة الحاكمة الثالثة وليس الأسرة الثانية عشر. لا توجد بيّنة حسيّة تؤكد على استخدام هذه الطرائق في تشييد الهرم الأكبر. بالإضافة إلى ذلك لا يتعلق الأمر بنقل تماثيل ثقيلة معدودة، ولكن الأمر يتعلق بمشكلة خاصة بفن التعبئة اليدوية والمرتبطة بإمكانية نقل ٢,٣٠٠,٠٠٠ كتلة صخرية. حتى ولو افترضنا بأن هذه الحجة صحيحة. هذا يعني بأنه وجب علينا اعتبار الزلوجات الخشبية والقوارب المسطحة القعر قد استخدمت للقيام بهذه المهمة الشاقة. ولكن كيف تم الحصول على هذه الكمية الضخمة من الأخشاب. إن أشجار وادي النيل هي أشجار نخيل، وهي مصدر عيش حيوي لا يمكن الاستغناء عنه، غير أنه يتوجب استيراد الأخشاب. ونعلم عن طريق السجلات المصرية بأن المصريين استوردوا الكميات الهائلة من الألواح الخشبية من جذوع الشجر في لبنان. وهذا النوع من الخشب أقدم وأكبر مصدر في العالم أي خشب الأرز، وذلك في أوائل عام ٢٨٠٠ ق.م. قياساً إلى حاجة والى حجم معدل أشجار الأرز اللبناني، يفيدنا العلماء في الرياضيات ما يلي: يجب تأمين ٢٦ مليون شجرة لتشييد أو لبناء العدد الضروري للزلوجات وللقوارب المسطحة القعر. لا غابات لبنان، ولا جميع الغابات الموجودة في العالم القديم قادرة على تأمين مثل هذه الكمية الهائلة من الأخشاب خلال مدة عشرين سنة، حتى ولو كان

أسطول بكامله موجوداً لنقل هذه الكمية جميعاً أو لم يكن !!.

إن الحقيقة هي التالية: لم يستغرق الوقت عشرين سنة لتشييد هرم خوفو الأكبر. هناك بيّنة مستقاة من الطريقة التي تم فيها تشييد أهرامات أخرى في المرحلة نفسها، وتشير بأن مثل هذه التركيبات المعمارية إنما تم تنفيذها بسرعات لا تصدّق. مثلاً في دهشور يوجد هرم سنفرو، ويساوي تقريباً ثلثي الهرم الأكبر. وتشير كتابة أثرية على حجر زاوية من الجهة الشمالية الشرقية للبناء إلى ما يلي: لقد تم تشييد هذا البناء في بداية العام ٢١ من أيام حكم سنفرو، بينما توجد على مسافة غير بعيدة كتلة صخرية وعليها كتابة أثرية أخرى وتذكر المدة الزمنية ٢٢ سنة. بكلمات أخرى هذا يعني بأنه استلزم عامين لإقامة وترسيخ هذا الهرم.

وجاز القول إن هرم خوفو يشبه الهرم السابق من حيث الموقف المذكور، ذلك لأنه تم بناؤه في أقل من أربع سنوات. فالتنقيبات الحديثة التي لا تبعد كثيراً عن الهرم الأكبر قد أظهرت لنا بقايا أثرية تخص أكواخ ٤٠٠٠ عاملاً. ومثل هذه الاكتشافات زادت الطين بلة، إذ لم تساعدنا إطلاقاً في حل المشكلة. لا توجد أية وسيلة لتأمين سكن لمائة ألف عامل داخل أكواخ صغيرة يبلغ عددها أربعة آلاف كوخاً دون أن نذكر مئات الآلاف الإضافية من الأشخاص الذين ساهموا في هذا العمل. مثل هذا الاكتشاف وضع المؤرخين في مأزق حرج، إذ كيف يمكن تفسير أمر تشييد الهرم الأكبر في مدة تناهز الأربعة سنوات فقط وبواسطة أربعة آلاف عامل فحسب. وقد استخدمت في هذا المجال الزلوجات الخشبية والقوارب المسطحة القعر لمدة ثلاثة أشهر في كل سنة؟.

لنفترض أن هذا العمل قد تم بهذه الطريقة وبهذه المدة الزمنية أيضاً، لكنَّ البنائين استخدموا المهارات التعميرية والهندسية والأساليب التقنية المعروفة فقط لديهم، لقد كان عملاً تكنولوجياً بارعاً وعظيماً ويتجاوز قدرات العالم القديم كما يتجاوز قدرات العالم الحديث على حد سواء.

إن الأجيال التي أعقبت الجيل الذي بنى هرم خوفو أصابها الغروب والانحطاط. لقد كانت هذه الأجيال تعاني من علة الهُزال الثقافي، وقد أصيبت بالتقهقر من ناحية

المهارة التقنية والخبرة الثقافية، إلى أن أصبحت الحضارة المصرية ظلاً غامضاً لعظمتها التأريخية. إن المخطوطات الهيروغليفية التي تخص السلالات الحاكمة المتعددة تشير إلى تغييرات حاسمة لدى المصريين في نمط الحياة والتكنولوجيا، وهذا ما تؤيده النصوص الجنائزية المعروفة والموجودة في كتاب الموتى (المشار إليه في الفصل الأول) وهذه النصوص تؤيد هذه الفكرة كل التأييد.

إن مصر التي نعرفها من خلال الكتب التأريخية كانت بالفعل الفُضالة المحضة لشعب متقدم بدرجة عالية، الذي ورث المهارة التقنية التي تتجاوز مداركنا. إن المعرفة التي أحدثت شرراً في حضارتهم وبعثت فيها الحياة والهمة، إنما انتقلت إليهم بواسطة الأشخاص الذين ظلوا أحياء بعد الطوفان، وباستخدام هذه المعرفة استطاع مينس مؤسس مصر مجابهة التحدي وأخذ بتحويل الفوضى إلى نظام.

***

الخاتمــة

إن كل ما يتوضح أمره على هذا الكوكب في السنوات المبكرة من التطور البشري، سوف يبقى بلا شك موضوع مجادلة مستمرة، خلال السنوات اللاحقة. حتى الرواية الحافلة بالتفاصيل الدقيقة الخاصة بالأعمال البارعة التي لا تصدّق والمرتبطة بالإمكانية الإبداعية التكنولوجية البدائية (ما قبل التاريخ)، فهي تشكل صعوبة فعلية بالنسبة لإدراكنا الكامل لهذه الانجازات البارزة المختصة بأجدادنا البدائيين الأولين. وبعد، إن نظرة تأملية حول قشرة الأرض وحول ما حفظته لنا، لتفسح المجال لعقولنا كي تُغرس من جديد، في حقل التأريخ غير المسجَّل واستدراك من خلاله، تلك التفاصيل الدقيقة التي لا تزيدنا معرفة وحسب، ولكنها تجعلنا نعاني من الحيرة والارتباك، ولكنها تحرك رغبتنا لاكتساب المعرفة أكثر وأكثر.. وأكثر.

توجد وسيلة أخرى لتأويل التأريخ. وقد أثبتت ذلك المخلفات الأثرية الموجودة في غير مكانها المألوف (أوبارتز). إن الادعاء الأكبر الخاص بالمؤرخين التقليديين القائل بأن حضارتنا إنما هي تطور تدريجي إنطلاقاً من البدايات البدائية.. إن مثل هذا الادِّعاء أصبح اليوم معرَّضاً للتحدِّي بصورة جدية. إن المخلفات الأثرية Ooparts وتأريخ الكتاب المقدس وعلم الآثار والجيولوجيا وعلم معايش الإنسان القديم والتفكير التأملي المتعمق جميعاً قادتنا إلى ذلك الاتجاه.

إن وزن البرهنة ينمو يومياً، أي البرهنة التي تشير إلى أن **أجدادنا الأولين قد خلقوا مجتمعاً يفوق مجتمعنا في جميع النواحي المتعلقة بالتطور**. يجدر بنا ألا نخدع البشرية فنحاول ربط آثار التكنولوجيا القديمة بزوار (نفترضهم افتراضاً) قد أتوا من الفضاء الخارجي، فننسب إلى هذه الكائنات البشرية القادمة من كوكب آخر ما هو فعلاً نتيجة منطقية لنمو متوافق لحضارة بشرية متفوقة.

إن معتقداتنا حول العصور البدائية (ما قبل التاريخ) هي معرضة باستمرار للتبديل والتعديل بحكم الاكتشافات الأثرية الجديدة، كذلك الاكتشافات المختصة بمعايش الإنسان القديم. هكذا تصبح المفاهيم المقبولة سابقاً وحتى المضامين التاريخية المتطورة حالياً، متخلفة زمنياً ومفتقرة إلى التغيير. لم يُنبَش إلا نادراً سطح التأويل التأريخي، حتى هذه الوقائع المتراكمة المجتمعة في هذه الصفحات، جاز أن تعتبر أداة ناقلة لتحريك وتشجيع الإنسان نحو دراسات حافلة بالتفاصيل الدقيقة. أي نحو دراسات أعمق بكل معنى الكلمة.

إن نظرة شاملة للتأريخ كما تبدو لنا الآن، جاز أن تولد مداخلات خطيرة بالنسبة لمستقبلنا، ذلك لأن العالم قد التزم عدداً من التحولات الهامة، وهناك تحولات أوفر عدداً آتية في القريب العاجل. رغم أننا لا نستطيع أن نشير إلى تأريخ الأحداث التذكارية بشكل حاسم أي هذه الأحداث التي تظهر واضحة في التأريخ. يسود الاعتقاد بأن السنوات القائمة بين ١٩٥٠ – ٢٢٠ ق.م قد سجلت مرحلة من الانتقال إلى حضارة ناتجة عن العالمين القديم والحديث. خلال هذا الزمن انزلقت مملكة مصر الأولى في حالة من الانحطاط المشلول، واكتسح غزاة برابرة بلاد سومر والهند، وعانت الصين وبقية مناطق الشرق الأقصى من طوفان كارثي، وفي الأمريكتين حيث توجد الثقافات البدائية أعقبتها حضارات أكثر تطوراً. وفي أمثلة عديدة إن المجتمعات التي تضاءلت وتلاشت إنما كانت تملك علاقات تأريخية مع البقايا الأثرية المنتشرة التي تخص الحضارة المتفوقة والتي بدورها كانت مرتبطة بنظام العالم الخاص بعهود ما قبل الطوفان عبر مركز بابل العالمي.

إن انحلال المراحل الأولية للحضارات المعروفة بزمن نسبي قليلاً عند المرحلة النهائية من الألف الثالث قبل الميلاد، هو أمر لا يُفسَّر تأريخياً. لا يوجد أي سبب شمولي قادر على تقديم توضيح لهذا الغروب الفجائي. لقد اختفى النظام الكوني الأول بواسطة الطوفان الاجتياحي ومحاولة إحياء نظام العالم مرة أخرى في بابل قد باءت بالفشل. هاتان الكارثتان دمرتا النظام ولكنهما لم تقضيا على ذكرى التكنولوجيا الخاصة بالقدامى، أي تلك التكنولوجيا التي تمتعوا بفوائدها.

إن الوسائل المرعبة التي استخدمتها سلطة غاشمة لتقوية سلطتها ولنشر سيطرتها على العالم ظلت على حالتها الطبيعية، أي لم تصب بخلل. وبعض هؤلاء الأشخاص الذين احتفظوا بهذه المعرفة المهولة الرائعة بشكل أمانة قد أساءوا الاستعمال فاستخدموها لتدمير بعضهم البعض وذلك بواسطة حروب تدميرية نووية شاملة وبصورة متعاقبة. أما الأشخاص الذين ظلوا أحياء بعد الكارثة فقد احتفظوا بسر هذه المعرفة العظيمة ودمجوها بثقافة الحضارات اللاحقة، ودامت هذه الحضارات حتى نهاية الألف الثالث لما قبل الميلاد. وقد امتلكت القوة الكامنة الكافية لتتبَّؤا مركز الصدارة والاحتفاظ بسلطة كونية أخرى.

وهكذا أصبح هؤلاء يتمتعون بقوة هائلة وأخذوا يهددون الآخرين بحرب نووية.. ولكن قد انقضى زمن طويل ولم يستطع أحد تحقيق النظام العالمي المنشود.



بطارية بغداد التي تبلغ من العمر ٢٠٠٠ سنة كما رسمها ولارد غراي

نسخة غراي طبق الأصل بنيت على مواصفات البطارية المكتشفة وهي

تنتج ١,٥ و ٢ فولت من الكهرباء.

لقد مارست كل حضارة من حضارات الشرق الأوسط بعد عام ٢٠٠٠ق.م تجربة

ذات مرحلة قصيرة من الإنعاش الذاتي، فظهرت مرة جديدة على مسرح الأحداث المخلفات الأثرية لتكنولوجيا متطورة مبكرة ولكنها تناقصت كثيراً بعد ذاك. ويبدو أن مصر وبلاد بابل قد احتفظت بعدد من التسجيلات التي تتميز بالخبرة والتحذلق وبالمصنوعات اليدوية التي تنسب إلى حضارات سابقة. إن السنوات الواقعة بين ٢٥٠ ق.م وفجر عهد المسيحية إنما تشهد على بعث تكنولوجي جديد في هذه المناطق التي أنتجت بين أشياء أخرى البطارية الكهربائية التي استخدمت في العراق أثناء الحقبة الخاصة بقوهستان، وتقويم كمبيوتر صغير قد تم صنعه في اليونان حوالي عام ٨٠ ق.م، وطائرة شراعية استخدمت فوق ضفاف نهر النيل أثناء حكم البطالمة.

إن الغزو الروماني للشرق الأوسط في بداية القرن الأول قبل الميلاد أخمد شعلة البعث الحضاري. وكان بطش الرومان جزءًا لا يتجزأ من موجة التدمير التعسفي الذي أصاب مكتبة قرطاجة عام ١٤٦ ق.م، وقد حوَّل مجلداتها التي لا يوجد بديل لها ويبلغ عددها ٥٠٠ ألف مجلدٍ إلى رماد. وفيما بعد، في بيرغاموس في آسيا الوسطى كانت توجد مخطوطات يبلغ عددها ٢٠٠ ألف مخطوطة وكانت تحتوي على معلومات في العلوم الغيبانية وربما المعلومات المتعلقة بعهد ما قبل الطوفان وبحكمة أهل بابل (أي الشعب البابلي الذي عاش قبل كارثة برج بابل) المختصة بالطاقات الغيبانية، جميعاً التهمتها النيران. أما العمل الذي يعتبر أكثر همجية فهو الذي قام به يوليوس قيصر وذلك عندما أحرق المؤسسة العلمية لترقية العلوم الأدبية والعلمية في الاسكندرية إذ دمر دفعة واحدة أعظم الأعمال العلمية في العالم الكلاسيكي قاطبة ويناهز عددها ٧٠٠ ألف مجلداً.

لقد تم إنقاذ بعض السجلات بعناية فائقة بواسطة جمعيات سرية، وبصورة تدريجية تلاشت آثارها واختفت بين طيات النسيان وذلك نتيجة لاضطهاد لا هوادة فيه ولجهل جامح متصاعد. وعندما يموت مجتمع ما تموت معه أسراره أيضاً أو تظل متوارية في مستودعات لا يمكن العثور عليها إطلاقاً مرة ثانية.

إننا نشهد اليوم بعثاً جديداً في العلم والتكنولوجيا الذي يعتبر بمقياس كبير ظاهرة استثنائية مستقلة تماماً عن التطورات التاريخية. إن الدلائل الأولية لهذه الدفعة العلمية

الشديدة الحديثة ظهرت في الغرب، وظهرت في البداية في أوروبا وأخيراً وصلت إلى مرحلة من النضوج التام ضمن نطاق الثورة الصناعية. لقد أصبح تطورنا العصري أكثر تعقيداً وأكثر جرأة. هذا يعني بأننا معنيون بتقييم جديد للمخلفات الأثرية وللمنتجات اليدوية التي تخص العهود الماضية، وأصبحنا نعترف بأنها هضبات المعرفة التي قد أدركناها الآن لا أكثر ولا أقل.

لقد أصابتنا الدهشة لهذا الاكتشاف المذهل للمنجزات الماضية، ولكن يجب أن يكون هذا الاكتشاف عبرة لنا وإنذاراً. مرة أخرى أخذ العلم يقترب ويتجاوز الحدود التي تفصل العلم الطبيعي عن استعمال العلم وتحريك العلوم الروحانية الغيبية الخارقة للطبيعة (التي لا تخضع للقوانين الطبيعية). ومرة أخرى إننا نتجه نحو المنطقة الخطيرة أي منطقة العلوم الغيبية التي قد اخترق أسرارها بجرأة ملحوظة شعوب ما قبل الطوفان والبنائين. هل نقترب الآن مرة أخرى نحو نقطة الخطر؟.

لقد قيل بأن التاريخ يملك المقدرة الطبيعية الغريبة وغير المفسرة لتكرار ذاته. هل نحاول نحن الآن تقديم الحافز كي تحل الكارثة الكونية مرة أخرى؟.

SECRETS OF THE
LOST RACES

New Discoveries of Advanced Technology in Ancient Civilization
Rene Noorbergen



صورة للغلاف عن الغلاف الأصلي





الفهرس

***



أسرار السلالات البشرية المفقودة

يمثل هذا الكتاب محاولة بالغة الجرأة لفهم أسرار التاريخ القديم، حيث يبيّن المؤلف عبر فصول الكتاب وجود العديد من الظواهر الغريبة التي لم يستطع المؤرخون تفسيرها حتى الآن، على نحو ينسجم مع التصور العام الذي وضعوه لتاريخ الإنسان والذي يُصرُّون على التمسك به، واعتبار كل ظاهرة غير قابلة للتفسير في ضوئه أمراً غامضاً، تاركين مسألة التعرف على السر الكامن وراءه للزمن . وهكذا تتراكم الظواهر، الغريبة وغالباً ما تنسى أو حتى تفقد آثارها بسبب الإهمال وأسباب أخرى وتظل الألغاز المحيطة بها قائمة تحتاج الى التفسير. قد نتفق مع المؤلف وقد نختلف في اجتهاده لتفسير بعض الظواهر لكن الموضوعات التي يطرحها الكتاب هي من الأهمية بحيث تستوجب أقصى الاهتمام والغوص في أبعادها لمعرفة أصولها وزمانها وتحوّلاتها هذا ما يجعل من الكتاب رحلة معرفية ثقافية تضعنا أمام كثير من السلالات البشرية التي لابد أن نعرف عنها شيئًا ما.



I.S.B.N. 977-376-995-7



